
الوطنية العثمانية
تأليف : مدام بيرت جورج جوليس
لصاحبها مصطفى محمد



الوطنية العثمانية

تأليف

مدام بيرت جورج جوليس

الكاتبة الفرنسوية المشهورة بدفاعها عن العثمانيين

عربها عن الفرنسوية

احمد رفعت

— ١ —

يطلب من المكتبة التجارية بأول شارع محمد علي بمصر

لصاحبها مصطفى محمد

شركة دار الطباعة الفنية

بشارع كوبرى قصر النيل نمرة ٤٢

تمهيد

حياة الشرق فى اتحاد عناصره

هذه كلمة أقولها وأريد أن يحفظها عنى اخوتى المصريون خاصة والشرقيون عامة لو وصلت الى أسماعهم .

أما تحليلها فهو : ان الحياة لاتكمن في الذرات المتفرقة والاجزاء المتفككة وانما تكمن وتقوى حتى تبلغ أشدها فى الاجسام المتماسكة القابلة للحياة . كذلك شأن الشرق باعتباره جسما أو وجوداً معنوياً يطلق على مجموع عظيم من البلاد والاناس ، فاذا ارتبطت بلاده بجامعة كبرى واتحد أبناؤه جميعا فهنالك تبدو عليه مظاهر الحياة وتتمشى في أجزائه المتضامنة حتى تعمها جميعا

ولست أحاول أن أثبت هذا القول بحوادث التاريخ الماضية وعبره الخالدة فان ما يحدث فى هذه الايام أنصع حجة وأقوى دليل

وللمتدبر الحكيم أن يلقي نظرة الى أوروبا ليرى كيف يسارع دهاة ساستها الى جمع كلمة دولها كلما كاد دبيب الشقاق يدب بينهن ثم لا يلبثون أن يعودوا الى التكلم في تقاسم أجزاء الشرق المتفرقة .

فالذى يريد أن يخدم وطنه و ينفع قومه فى هذا الزمن العصيب لا بد له من أن يعمل على أن يربط هذا الوطن المقدس وهؤلاء القوم الكرام برابطة الاتحاد التي تصل بين بلاد الشرق جميعا وتجعل اقوامه وشعوبه كتلة متماسكة بالغة أعظم مبلغ من القوة .

ومن العبث أن نحاول اخفاء هذه الحقيقة تحت ستار الرياء واهمين اننا نخدع اعداءنا فى حين اننا نخدع فى الحقيقة نفوسنا ونقضي بهذا الاخفاء على اقدس شعور ينبغي أن نتناجى به وان نلقنه ابناءنا ليستفيدوا منه اذا لم نستطع نحن أن ننتفع به .

لاجل هذه الفكرة ، بل لاجل هذا المبدأ بادرت الى تعريب هذا الكتاب آملا أن يكون رسول وفاق وصفاء مابين القلوب التي يجب اجتماعها على العمل للمصلحة العامة .

واذا استفاد اخوتى المصريون من تلاوة هذا الكتاب فليتذكروا بكل خير كاتبته الفاضلة مدام جوليس وليثنوا اجمل الثناء عليها .

إن هذه السيدة الفاضلة وضعت هذا الكتاب عقب سياحتين قامت بهما فى بلاد الاناضول . ولكنها لم تكتف بهما بل عادت الى انقرة مرة ثالثة بعد نشر هذا الكتاب .

وفى المرة الثالثة بينما كانت مارة بالاستانة اذ صعد اليها على

ظهر الباخرة التى تقلها احـد المحررين الاماثل بجريدة « توحيـد افـكار » العثمانيـة وحادثها محادثة طويلة افضت اليـه في اثنائهـا بهذه الحكمة البالغة التي يجب أن ينقشها كل مصري في ضميره وأن يردد ألفاظها كل يوم على لسانه كأنها موجهة الى المصريين لا إلى الوطنيين العثمانيين وهذا نص ما قالته :

« ان العامل الذي له التأثير الاعظم في هذه الدنيا هو القوة . فالقوة ما برحت مدعاة لاحترام صاحبها ، وهي التي تحول أذهان الناس الى الاعتراف بالحق لمن له الحق . وهكذا كان في هذه المرة أيضا . فان الرأي العام الاوروبي لما فهم استحالة تحقيق ما كان يزعمه اليونانيون من استطاعتهم فتح الاناضول والاستيلاء على انقره وبالاخص سحق القوى التركية اخذ الجمهور في كل ممالك أوروبا يقتنع حينئذ بانكم قادرون على أن تحيوا حياة قومية مستقلة لا يمنعكم من ذلك مانع »

والسيدة التي تنطق بمثل هذه الحكمة البالغة والحقيقة الناصعة لا يمكن أن يكون براعها قد خط سوى الحق فيما كتبته عن أبطال الوطنية العثمانية

فلنتحاش الآن بسط آرائنا ولنطلق ليراع هذه السيدة العنان ليسطر ما رأته عيناها وما سمعته اذناها في أرض الشجاعة والقوة والاستقتال في سبيل الحياة الحرة المستقلة

٢٥ يناير سنة ١٩٢٢ احمد رفعت

الديباجة

ان هذا الكتاب الصغير خلاصة عامين قضيا في درس الوطنية العثمانية من سبتمبر عام ١٩١٩ الى أغسطس سنة ١٩٢١

فقد كافني استقراء الصراع العظيم والبأس الهائل اللذين قاوم بهما مصطفى كمال باشا وزملاؤه المغاوير المقاديم الاستعمار الانجليزي سياحتين في الاناضول وثلاث سفرات الى القسطنطينية

وفيما بعد عندما تضع الحرب أوزارها ويستقر الحسام في غمده وعند مالا تبقى هنالك حاجة إلا الى رفع الصرح الذي تواجدت مواده على أمتن أساس يمكن استقراء وقائع الحركة الوطنية العثمانية وتفاصيلها بدقة وتمحيص واضفاء الكلام على عظماء الرجال العسكريين والمدنيين الذين قاموا بأرفر قسط في هذه الحركة العظيمة

ان هؤلاء الرجال المخلصين أخذوا يلتفون منذ عام ١٩١٩ حول الزعيم الناهض

وقد أبدوا إخلاصا نادر المثال في اطاعتهم إياه وعرض مواهبهم وقواهم بغير مساومة ولا انطواء على أي مطمع شخصي . وهذا الامر هو الذى تمتاز به الوطنية العثمانية ، تلك الوطنية السامية التي من

أخص صفاتها تضحية النفس والنفيس لاجل القصد النهائي الاسمى ونسيان كل فرد من القائمين نفسه لاجل ذلك المقصد الشريف

فهل فى مثل هذه الخصيصة الجليلة يمكن الشك فى الحصول على الانتصار النهائي دائما سواء أطال المدى أم قصر ؟



القسم الاول

عواقب الهدنة

الفصل الاول

﴿ احتضار تركيا القديمة ﴾

﴿ دخول البسفور فى ٢١ سبتمبر سنة ١٩١٩ ﴾

وصلت الباخرة « ريج كارول » المبحرة من قونسطنزا مقلة على ظهرها حمولة بشرية مؤلفة من عناصر متباينـة ما بين جوابي آفاق فى البحر والبر وبولشفيين ومهربي بضائع ومحظورات وسكان ثغور شرقية وحملة روبلات يتجرون بها وناشرى دعوات واناس ثوريين وتجار واشخاص ذوى مصالح لايتسرب الريب اليهم . فكل هـذا الخليط المحتشد من كل فج عميق كانت تدفعه المطامع والآمال الى اجتياز السياج الذى اقامه الحلفاء ليصل الى صميم الشرق ، الى ارض الحقائق المحسوسة والآمال التى لا نهاية لها ،

وكان ربان الباخرة يتسلى بالاشارة باصبعه الى القمم المتعالية فوق تلك القلاع الشامخة الناهضة الى اعنان السحاب ، كما انه كان يعيد بانقاء بصره على تلك الكتلة البشرية المتماوجة فوق ظهر باخرته والمؤلفة من ممثلي سائر الشعوب . وهذا الجمهور الكبير كان متلاهياً بالشراب وبالتدخين وافراده يتجادلون ويتصايحون من غير أدنى حرج ولا شقاق ، وأصواتهم المرتفعة تعرب عن دهشتهم من المناظر العجيبة المنذهلة التي تمر قبالة أبصارهم كأنها خيالات بديعة شائقة في عالم الاحلام ، فهل لم يهمهم ويشغل أفكارهم ما ينتظره كل واحد منهم من عناء السؤال والتفتيش الذي سيصاب به من الرقابة الثلاثية التي يقوم بها عمال الحلفاء ؟

واجتازت الباخرة ريج كارول تعاريج البسفور في وسط شاطئيه الخافقين بأبدع منظر صافحته العيون — وهو المرأى الوحيد — الذي تتلاقى فيه الاضواء الضاحكة اللطيفة بالظلال الهادئة الكثيفة فجمل هذه البقاع بمحاسن الطبيعة الشائقة المتفردة التي لا تتحلى بمثلها جهات أخرى في ارجاء العالم . إلا انه كانت تنبعث من هذا المنظر البهيج الذي تراوحه سما الموت مسحة من الحزن العميق في وسط تلك الاضواء التي لا تزال على عهدها الغابر تكسو الافق ثوبها الناصع الفضفاض ولكنها تتراءى ساكنة آونة ومهتزة رجراجة آونة

أخرى وهى على كلتي الحالتين تجعل هذه الجنات الابدية ملتمعة كـدأبها من قديم الزمان فتظل على عهدها الاول لذة العيون وشهوة القلوب ومطمع الآمال وأزاء هذه العظمة التي تخشع امامها الابصار أخذ هذا الجمع الحاشد يعطف على جانبي الباخرة ويرسل بنظراته المخترقة الى مـدى سحيق لينفذ بها من خلال الزرقة التي تجلبب الافق الى ذلك المنظر الذهبي الذى يتراءى فوق قباب القسطنطينية واسكدار حتى اذا ما اشتبكت تلك النظرات بذلك المنظر الجذاب الفاتن علت صيحة من الجميع اخترقت حجب الفضاء وما هي الا صيحة شغف وشوق وحبور امام ذلك المرأى الذى لا يمكن وصفه ولا التعبير عنه

وما كادت البـاخرة تشارف منتهى مضيق البسفور حتي وقفت عنـد المنارة الناهضة في وسط المضيق هنالك واقتربت منها على أثر وقوفها باخرة رقابة الحلفاء الصغيره . ثم صعد منها الى سفينتنا ثلاثة رجال أحدهم ضابط صف فرنسوي والآخر اندرمي ايطالي والثالث ضابط صف انجليزي وتبينوا من وثائق الركاب وأحوالهم الصحية . وبعد هذا الفحص أصبح هذا الخليط الآدمي محق في النزول الى البر سالما بذهبه ورو بلاته ونفائسه وحقده الذى لا يزول .

وكانت عمارة الحلفاء البحرية راسية في القرن الذهبي وهي مصوبة مدافعها على الثكنات العثمانية فأقبلت باخرتنا الى الرصيف وألقت مراسيها . فحدث هجوم شديد وزحام عظيم لاجل الانحدار من الباخرة . فتدافع الحمالون وارتفعت أصوات الأروام ثم اختلط الحابل بالنابل وكثرت الجلبة والضوضاء فى غلطه وظهرت بيرا (أى بيوغلى) على حالتها الدائمة في قبحها الثابت وهى مشرفة على أجمل أفق فى العالم .

شوارع مقفرة واشخاص جدد

ان أولى طلائع الظلام آذنت بأقفار الشوارع من المارة وانبثت فى الحال شراذم مؤلفة من عناصر مختلفة من جنود الحلفاء فمن جنود انجليزية على أتم مايكون من الاستعداد العسكرى الى عساكر فرنسويين تبدو على ملامحهم امارات الاستخفاف وعدم الرضا ، وفي مقدمة كل فريق موسيقى كاملة الادوات . ولكن لماذا قد لبس الجميع ملابس سنجابية وانتزعوا شاراتهم حتي لم يعد هنا أي فارق بين الضابط والجندى ؟ فكان الجواب على هذا السؤال « وجود الوطنيين » . « وماذا يصنعون في وسط شوارع بيرا ؟ — هذا ماستعلمينه قريباً »

وهكذا ما ازفت الساعة الاولى حتى دخل هؤلاء الاشخاص الجدد فى الميدان وهم سكوت وعليهم علائم تبدو منها الحيرة والذهول . وذلك أن حالة المدنة المستغربة توطنت فى هذه البقعة بكل اوجه غرابتها وبكل نزعتها غير المشروعة : فمن مغلوبين على امرهم يتدججون بسائر انواع الاسلحة من الاخمص الى العقيصة وقد تبدت على قسماتهم بمنتهى الوضوح ملامح العداء والبغض ، الى قضاء ثلاثى اجنبي يكشف لهم قناع الشك عن حزازته وبغضائه وسوء تصرفه ، وعلى قنن المنائر والمآذن والقباب تتراوح شكوك المستقبل ونتائجه المحزنة . وكانت آلة موسيقية ميكانيكية تدار باليد ويحملها رجل يطوف بها الشوارع والحارات والازقة تبعث بنغماتها العذبة الشجية عن كثب وقد مر بجوارها افراد من البحارة الانجليز لعبت نشوة الحميا برءوسهم من غير ادنى شك فجعلتهم يخفون صوت ذلك البيانو الميكانيكي تحت اصواتهم الخشنة المتماوجة فى صحيفة الافق الساكن فى بهمة الليل الرهيب ولم تكن مظاهر الرزانة والوقار وتمالك النفس تبدو الا على اولئك الاجناد الوطنيين الذين يحملون شعائر الصلابة الوطيدة والجرأة العتيدة المشتهر بها ذلك الشعب المعتاد على المناجزة والمصابرة أكثر من الرضوخ والاستسلام

فسألت « والجنود غير الوطنيين ؟ »

فكان الجواب : « لا يوجد جندي واحد من هـذا القبيل فأن الجيش العثماني بأسره قد اصطبغ بصبغة الحركة الوطنية . »

اول تغير فى الشعور

من السهل الى حد ما ان يبدى الانسان رأيه فى بلاد حل بها وعلم بحالتها ولا سيما اذا كان ماماًمن قبل بحقائق هذه البلاد ودخائلها واطوار بنيها حتى لو كانت قد اصيبت بأعصار غير بعض معالمها . وان بعض سطور من قلم هـذا الملم بأحوال البلاد كافية لوصف محتوياتها ومجتمعاتها وفئاتها . وهذا الامر اكثر انطباقا على الشرق مما هو منطبق على اية جهة اخرى اما السؤال من لاخبرة له بشئون البلاد وسكانها فلا يؤدي الى العلم بحقائقها كما يمكن ذلك فى اوروبا .

وكانت حالة البلاد في سبتمبر سنة ١٩١٩ توافق التعبير الآتي : لقد عظم الجنوح الى الرغبة في التخلص من العزلة . فان الاستانة كانت اذ ذاك مفصولة بالتأكيد عن العالم . وكان قليلون من الناس من يجرؤون على اقتحام عقبات السفر . فأدى اتحاد المطالب الى التوفيق بين الاخلاق تنافرا وجعلهم ينطقون بكلمات واحدة صادرة عن آلام متماثلة : « لماذا هـذا التطويل المحرج المجرم في حالة الهدنة فيراد به اعادة الاحكام الرجعية التركيه ؟ »

ماحدث في الباخرة سوبيرب

فى ٣٠ اكتوبر سنة ١٩١٨ امضيت مقدمات الصلح فى عرض مياه موندروس على ظهر المدرعة الانجليزية سوبيرب بين مندوبى الباب العالي والاميرال كالثورب وهو المفوض الوحيد من قبل الدول المتحالفة

وقد بقى الجميع على أحر من الجمر فى الانتظار عدة ساعات لان البريد المرسل الى الجنرال فرانشه ديسبيرى كان قد حجز لسبب غير معروف فى الخطوط الانجليزيه

ويظهر ان هذا الحادث السيء كان قلما يحمل عذره على المصادفة لما وقع فى هذا اليوم نفسه وهو ٣٠ اكتوبر من اجتياز طلائع الفرقة ١٢٢ وهي فرقة سوكول الشهيرة نهر الماريتزا .

وكان اختراق تراقيا العثمانية واقتحام الاستانة وعبور الدردنيل والتحكم فيه ليس فى نظر هذه الفرقة سوي ملهاة تقتضي بضعة أيام .

فالجنرال فرانشه ديسبيري المتغلب علي البلقان كان زاحفا اذن على الاستانة . ففى هذه الآونة انقضت انقضاض الصاعقه الماحقة تلك الهدنة السياسية التي تمت بفضل المخابرات التى تكفل بها الجنرال تونشند البارع اسير كوت العماره . ولم تعلم القيادة الفرنسوية

بهذه الهدنة الا بعد التوقيع عليها . وهـذه الضربة الاولى التى اصابت النفوذ الفرنسوي فى الشرق . وما هى بالضربة الاخيرة بل سترى فرنسا كثيرات من مثيلاتها .

ومنذ هذه المفاوضة الاولى صار لانجلترا الشأن الاهم فى هذه المسألة ، اي فى مسألة الشرق الادنى

وبهذه الطريقة تم ابرام الهدنة بطريقة غير منطقية . واحتج الجنرال فرانشه ديسبيرى ولـكن احتجاجه صادف اذنا صماء .

واسرع الاميرال كالثورب بعرض الشروط الجوهرية على المغلوبين وهى : انتزاع السلاح ، وفض الجيوش ، والحكم على بعض زعماء جمعية الاتحاد والترقي . وهـذه الرعاية التي جاءت على غير انتظار من جانب الانجليز واستحقوا عليها كل ثناء من العثمانيين لم يداخل العثمانيون ادني شك فى التمتع بمزاياها نهائياً . وقد ظفروا بصلح غـير منتظر عجل بقبوله تعب الحلفاء واختلافهم . وكانت المفاوضة باعتبار الطرفين متكافئين ، وقد قبل الاميرال كالثورب على مايظهر الآراء العثمانية الملخصة فيما يلى :

« ان الدولة العثمانية ليست من الوجهة العسكرية مغلوبة ولـكنها قابلة بمحض اختيارها ان تلقي السلاح لتحصل على تسوية نهائية مطابقة لرغائبها العادلة . وهـذه التسوية يجب ان تتضمن

المحافظة على الحدود التى حدثت الهدنة وهى سالمة من أى احتلال ، وكذلك المحافظة على املاك السلطنة وحقوقها الاقتصادية . »

وعلى هذه القاعدة كان محور المفاوضات الاولى التي صار قبولها .

سوء التفاهم

لقد وقع سوء التفاهم بالفعل : وذلك أن العثمانيين الذين اسرعوا بالتمسك بوجهة نظرهم التي حدثت المفاوضات الاولى بمقتضاها واعتادوا على تطبيق اجراآتهم بموجبها أخذوا يثورون ضد كل شيء مخالف لها أو منتقص لاية نقطة من أجزائها.

ومن هذه الآراء التي صار اعتبارها قواعد لاتقبل المساس نشأت التشكيلات الوطنية اذ أسرع الفريق النشط الغيور من عناصر الشباب العثماني الى رفع عقيرتهم قائلين :

« ان الحلفاء غشونا وكذبوا علينا لاجل انهاء أجل الحرب . لانهم عند ما وافقونا على شروطنا لم يكونوا فى الحقيقة يضمرون لنا سوى الدمار والفناء »

ان شروط الهدنة التى حصل عليها الاميرال كالثروب بمفرده كانت مصوغة في قالب يضمن مصلحة انجلترا بمفردها فى السلطنة العثمانية دون أن يكون لحلفائها أي شأن فيها ، وهذا ما استدعى

دهش العثمانيين وجعلهم يقولون لنا نحن الفرنسويين في الدوائر العثمانية :

« لاشأن لنا معكم . واذا كنا سنصبح وجهاً لوجه ازاء انجلترا التي تضمر لنا العداء فانها ستشتري ذمم أفراد ونخمد هممم آخرين وفي نهاية الامر تتمكن من استعبادنا . »

ولم يتأخر المندوب الانجليزي العالى عن تنفيذ ما كان يتحسبه العثمانيون ويتخوفون منه . فانه شرع فى الحال في بسط نفوذه على البلاد والسكان مبتاعاً ذمم الكثيرين ومهاجما ذوي الهمم الابية.

ولم يكن لفرنسا من المقدرة على عمل أي شيء في هذا الصدد سوى مقاومة سلبية لاتنتج أثراً مذكورا اذ اقتصرت فى أعمالها السياسية على ما يتفق مع الخطة الانجليزية

. هنالك أخذ الاتراك يتدمرون ويغمغمون بين شفاههم بالكلام الآتي :

« أن تاريخ المسألة المصرية سيتجدد هنا . أن انجلترا تعرف ما تريد أن تفعله فهى على بصيرة من امرها وأما انتم فلا تمثلون فى السياسية سوى دوراً ثانوياً أي انكم تابعون لها فى سكناتها وحركاتها. أن انجلترا هى الامة الوحيدة التي قد تسلطت بمجهودها الخارجي على العالم أجمع . وأما انتم فلا تتعرضون الا لمسائل مقتضبه . »

ولا جدال في ان انجلترا بما كانت حاصلة عليه من ادارة

الاستعلامات البديعة تهيأ لها القدرة دائماً على الموازنة بين ماهو موافق لمصلحتها وما هو مخالف لها . وهي بهذه المقدرة استطاعت أن تدرك مقدار الوطنية التركية اذا ما أفاقت من غفوتها ونهضت من رقدتها ، وكانت تحذر جد الحذر من تحرك هـذه الوطنية لما تعتقده من ان يقظتها تؤدي الى اقتداء سائر الشعوب الاسلامية بها لانها المثال المحتذى في الاسلام وكعبة آمال المسلمين فى سائر بقاع الكرة الارضية . فأرادت انجلترا أن تتلافى هـذا الخطر الهائل الذي يهدد املاكها الاسلامية بأعظم الاخطار ويفتح عليها ابواباً لا يمكنها ان تسدها ابد الدهر ، ووجدت أن انجع الطرق الموصلة الى هذا المقصد هو استخدام العناصر الموجودة فى تركيا تحت تصرفها أي القابلة للائتمار بالاوامر الانجليزية : وما هـذه العناصر الناخرة فى عظام الامة العثمانية سوى اليونانيين الذين تحلق افكارهم فى جو الخيال نحو القسطنطينية اليونانية أى جعل هـذه العاصمة العظيمة ملكا لليونان ، واولئك الآخرين من بقايا تركيا القديمة الذين يقبلون بأى حكم وبكل شرط فى سبيل الحصول على الراحة ورغد العيش بقدر ما تسمح به مقتضيات الاحوال

٣ ـ الوطنية

تركيا القديمة

لم تكن تركيا القديمة متمثلة الا فى ذلك السلطان الضعيف العنيف المتقلب بحسب مقتضيات الاحوال عبدالحميد الظالم المستبد الذي لا كفاءة لديه ولا حنكة سياسية عنده والمتشبع بالقسوة والجبروت والذي كانت تتصرف به تمام التصرف امرأة هي اخته الاميرة عديلة زوجة الداماد فريد الذى كان صدراً أعظم فى ذلك العهد

فلم يكن هنالك أدنى شك لدى انجلترا فى انها لا يمكنها أن تجد لاجابة سؤلها وتحقيق أمنيتها فى اعادة الحكم الرجعي الذي يقضي على روح التجدد والتفوق فى الامة العثمانية سوى ذلك الوزير المتخلف عن العهد العتيق أي الداماد فريد المتشرب بحب انجلترا والذي يقبل بكل هشاشة وارتياح ما تسنده اليه انجلترا من المناصب وما تعهد اليه الاضطلاع به من مهام الامور . كما ان اختيار انجلترا وقع بالمثل على شخصين آخرين ممن يقبلون ممالأتها وتنفيذ خططها فى البلاد العثمانية وهم ذلك الغر الجاهل ذو المطامع الاشعبية سليمان شفيق وزير الحربية وعادل بك وزير الداخلية وهذا الاخير من المفرطين في التشيع لانجلترا والتشبع بالميل اليها

فهؤلاء الوزراء الثلاثه الذين يكونون تحالفا ثلاثيا ممثلا للعهد

العتيق ومنفذا لاغراض السياسة الانجليزية يقوى ضلعهم انضمام السلطان الى جانبهم . وقد أرادت انجلترا ان تجعلهم فى تمام الرضا عنها فجادتهم بأوسع مايكون من الاجر على الخدمات التى يقومون بها ولم يسخر المندوب البريطاني المالى وسعا فى هذا الصدد .

وعدا هؤلاء الزعماء الاربع كان يتألف حزب تركيا القديمة من بعض أعضاء الاسرة السلطانيه وبعض شيوخ العلماء الذين اكتهلوا على حب بقاء القديم على قدمه والذين اذا اشير اليهم بوميض الاصفر الملتمع طاروا بقلوبهم اليه ، ومن بعض الشذاذ المخاطرين بأرواحهم وشرفهم فى سبيل الحصول على الاجور الضخمة التي يتقاضونها من المندوب الانجليزى .

وأما بقية الامة العثمانية أى الاغلبية العظمى من الشعب المسلم فقد كان اذ ذاك ـ وفى جملته الجيش العثماني ـ مصطبغا بالصبغة الوطنيه البحتة

انجلترا ضد تركيا الحقيقية

ان تاريخ الحركة المترتبة على الهدنة يمكن اعتباره تاريخ الحرب الشعواء التي أشهرتها انجلترا على تركيا الحقيقية أى على الشعب العثماني الاسلامي الاصيل . وقد اجتهدت باريس فى أن تلتزم الحيدة التامة بأن تقف ازاء مايحدث موقف المتفرج . ولكن كثيرا

من الاعمال الفردية التي قام بها أشخاص مستقلون من أحرار الفرنسويين جعلت هذه الحيدة أو هذا الموقف عسيراً جداً اذ لم يكن فى الحقيقة سوى شكل صورى

وقد تم الاستيلاء بالفعل على أزمير بواسطة اليونانيين فى يوم ١٥ مايو سنة ١٩١٩ تحت حماية الاميرال كالثورب الانجليزى فى ظروف لا يمكن تصورها ، فأدى هذا العمل الى هياج الرأى العام فى فرنسا والى حدوث احتجاجات شديدة على هذا الاعتداء

وعند ما شرعت انجلترا فى القيام بحملة عسكرية عظيمة على الوطنية العثمانية بحجة المحافظة على سكة حديد بغداد الممتدة في البلاد الاناضولية انفجر الرأي العام الفرنسوي بأسره انفجاراً لا مثيل له وتعالت أصوات الناقمين على تلك السياسة من كل جوانب فرنسا

مصارعة انجلترا لفرنسا فى الشرق

في شهر سبتمبر سنة ١٩١٩ كان لكل من الدول الثلاث التي احتلت الاستانة وبعض انحاء البلاد العثمانيـة قوة خاصـة وممثلون مستقلون فى دائرة تبعيتهم الا ان الجميع كانوا بحكم تلك الحالة مشتركين فى القيام بعمل واحد وهـذه الدول هى انجلترا وفرنسا وايطاليا . الا ان انجلترا قد اتخذت لها سياسة منفردة قائمة على عزل

معسكرها عن القوتين الاخريين ووضعه تحت قيادة الجنرال ميلن وتدرجت الى ان تجعل لهـذا الجنرال السلطة العليـا من الوجهة العسكرية في سائر الحركات

وفى الحقيقة ان هذا القائد لم تكن له من المزايا والخصائص ماتجعله اسمى منزلة وأعظم قدرة على تعرفه الامور بحسب مايوافق مصلحة الجيـع المشتركة ولـكنه بمـا أوتى من التفرد بالنفوذ الاعلى فى معسكره المستقل أصبح ذا مركز ممتاز ومقدرة لامثيل لها .

وعمد المندوب البريطانى الى استعمال التكل الآتى : عدم الاهتمام بما يتراءى للاعضاء الآخرين الذين يمثلون مجموع الاحتلال الثلاثي ، اذ اقتصر على استخدام سياسته الخاصة وبوليسه الخاص ومخبريه الاخصاء ومنفذي ارادته الخصوصيين .

وبنـاء على هـذه الطريقة كان لابد لموظفى دار الانتداب الانجليزية ان يحملوا حملة عنيفة على ماهو متأثر بالنفوذ الفرنسوى . وعلى الرغم من ذلك فان هذا النفوذ بقي حافظا مكانته وقيمته اللتين كانتا له فى الشرق قبل نشوب الحرب الـكبرى

على ان الفرنسويين المقيمين اذ ذاك فى الاستانة : من ضباط قوة الاحتلال الى كبار الموظفين الفرنسويين لم يكونوا يفهمون ان روح العداء بين انجلترا وفرنسا آخذة في التقوى الى درجة قد

نخشى خطرها . بل كانوا يرون ان هذا العداء مستحيل حدوثه وان طريقة التروى والتعقل لاتسمح بالتمادى فى هذا الاعتقاد .

ومع ذلك فقد كان من الواجب ترك التروى والتعقل جانبا والالتفات الى حقيقة الواقع المحسوس : فان الادلة الثابتة والاعمال الحادثة بالفعل تثبت بطريقة لاتقبل الشك ماذكرناه من قبل عن ازدياد النفور بين هتين الدولتين شيئا فشيئا

وما كان هذا النفور فى الواقع الا حرباً بطيئة تشهرها انجلترا على فرنسا موازية على خط مستقيم للحرب التي أشهرتها على الاناضول فكل الحوادث التي سيجيء ذكرها فيما بعد كانت دائرة حول هتين النقطتين ولا تتعداهما فكانت ادارة المندوب العالي الانجلبزي تنفذ الاوامر الصادرة اليها بخصوص هتين المسألتين الهامتين على الطريقة الآتية : استئصال شأفة النفوذ الفرنسوي فى الشرق ومحو الوطنية العثمانيه ذات الميل العظيم الى جانب فرنسا

وفى شهر سبتمبر سنه ١٩١٩ كانت القسطنطنية لا تزال غاصة بالفرنسويين المتشبعين بالرأى الفرنسوي وقد تبينت لهم الحقيقة الناصعة من مجرى الاحوال

فحيثما جال الانسان فى انحاء هذه العاصمة وجد اناساً من مختلف المهن والدرجات : فمن مدنيين الى عسكريين ومن دينيين

الى احرار فى العقيدة ومن موظفين الى مشتغلين بالمهن الحرة ومن ماليين الى تجار فرجال مشتغلين بالتدريس . وكانوا جميعاً متفقين فى الآراء ويتكلمون بلهجة واحدة تعرب عن الشعور العام المشترك بينهم على هذا الوجه : ان انجلترا قد حلت بالطريقة التى اتبعتها منذ الهدنة فى البلاد العثمانية محل المانيا وستمثل الدور الذى قامت بتمثيله الحكومة الهوهونزلرنيه : أى الاحتكار التجاري والاشراف على شئون الدولة العثمانية

وقد تسلحت ضد المزاحمة الفرنسوية بنفس الادلة القاطعة التي كانت تتسلح بها المانيا فى بادىء بث نفوذها فى البلاد العثمانية وهى : ان فرنسا المنهكة قواها والخارجة من الحرب فى حالة عسيرة لا يمكن صلاحها لا تستطيع أن تشرف على شئون دولة كبيرة مضنكة وفى أشد العوز الى قوة عظيمة ومشروعات كبرى . وبناء على هذه الاعتذارات التي انتحلتها انجلترا لنفسها بدأت تعارض بكل ما أوتيت من قوة ومن مال النفوذ الفرنسوي الذي يحاول الاتصال بالوطنية العثمانية

وقد رأي الفرنسويون الموجودون فى القسطنطينية لذلك العهد أنفسهم مدفوعة بغير ارادتهم الى اؤلئك الوطنيين العثمانيين الذين اصيبوا هم أيضا مثلهم بالحقد الانجليزى ، ولم يكن هذا الميل الا نتيجة مارأوه من ذلك الاسلوب الذى اتبعه الانجليز بطريقة

منظمة فى الاستانة وفى داخل الاناضول .

واذ آنس الوطنيون العثمانيون من الفرنسويين هذا الانعطاف أخذوا يتلمسون جوانب الرعاية والتعضيد من المعسكر الفرنسوي الذي شرعوا يهرعون اليه ويعرضون عليه وجهة نظرهم وآمالهم . ومن هذا الحين شعر الفرنسويون بخطأهم الناجم من التزامهم الحيدة فى هذه المسألة الكبرى وبناء على ذلك أخذوا يعدلون عن تلك الخطة العقيمة ويجعلون عملهم مطابقاً للمصلحة المشتركة بينهم وبين الوطنيين العثمانيين

انتشار الوطنيين في كل مكان

على أثر اشتداد وطأة العداء من جانب الانجليز ضد الوطنيين العثمانيين تجلت آيات الوطنية العثمانية فى أجلى مظاهرها فانقلبت الى اعمال عظيمة مقرونه بالعقل وبالاقدام . فأخذ الفدائيون المرنون الذين يظهرون ويختفون بسرعة البرق دون ان يتمكن احد من القبض عليهم أو الوقوف على اسرارهم يتنقلون جيئة وذهابا ما بين القسطنطينية والاناضول جاعلين انفسهم وسائل الصلة ما بينهما .

وقد برز هؤلاء الفدائيون من الطبقة القديرة من الوجهتين المالية والعلمية وأقسموا على ان يقفوا حياتهم ومالهم فى سبيل

مسألتهم الوطنية . واخـذوا يقولون : « لقد وهبنا حياتنـا للامة والوطن وهيهات ان نرجع عن هـذه الهبة . فنحن مذ الآن سنتخصص لنشر المذهب الجديد فى نفوس الشعب قاطبة . ونحن نعتبر بموجب هـذه المهمة عوامل المقاومة والدفاع ، وان المرنين المتفلتين من بيننا من القوة المتحكمة الواقفة فى وجوهنا ليتراوحون مابين العاصمة وداخل الاناضول وهم على وقوف تام بكل ما يحدث من الخطط المدبرة ضدنا وهم ينقلون معلوماتهم الوافية الى الهيآت العاملة . ان الاسلام يرفرف بجناحيـه على رءوسنا فى كل مكان وهو الرابطة التي تصل مابين قلوب الجميع ولـكننا من جهة أخرى مثلـكم ، نفصل مابين هيأتنا السياسية وعقائدنا ، فمن هذه الوجهة لا أثر للتعصب الديني ضد الاجانب الذين يساعدوننا او يتعطفون علينا فى نفوسنا . »

وكان هؤلاء الوطنيون تلاميذ زعماء الوطنية العثمانية يندسون فى كل مكان بمنتهى المهارة معرضـين أنفسهم فى كل آونة لاخطار القبض عليهم والتنكيل بهم بواسطة السلطات الانجليزية . ولذلك كانوا متداخلين فى القصر السلطاني وهم يهمسون فى أذن السلطان بكلمات هائلة ، وكـذلك يفهمون السفارات حقائق الامور الجارية ويعلمونها بضرورة العمل لمصالحها التي سـتقضي عليها السيطرة

البريطانية. ولم يكتفوا بذلك بل أخذوا يتلاعبون بدوائر الاستعلامات الانجليزية . ثم انهم يجيئون الى دوائرنا ويجلسون بجانب رجالنا ويحدثونهم ولكن بدون أن يكشفوا لهم عن سرائرهم وأن يطلعوهم على آرائهم وآمالهم .

ولقد كان هؤلاء الوطنيون صادقين فى وطنيتهم ملتهبين غيرة وحمية وفى بعض الاحيان جفاة ولكنهم فى الغالب مرنون يعرفون كيف يتشكلون بأطوار السياسات التى يمكنهم أن يستخدموها فى مصلحتهم الوطنيه

وكانت ادارة المندوب المالي الانجليزى تستقبل ليلا ونهارا بصدر رحب وساعدين ممدودتين كل الذين يترامون عليها ، ولو أتيح لها لما تأخرت لحظة واحدة عن مشترى مجموع الحركة الوطنية التي كلفتها مقاومتها ثمنا آخر يتخطى كل حساب . فقد أصيبت ميزانية نفقات وزارة الحرب الانجليزية السرية بطفرات يستدعى ذكرها الرعب والغضب الشديد

يقولون للفرنسويين لماذا تصمتون ؟

وهكذا كانت الاستانة تشهد مرة جديدة المطامع والاحقاد المتلاطمة حولها . فقد كانت تيارات السياسة الاستعمارية المتنوعة

تتدفق بسرعة من كل ناحية ثم تتلاقى وتصطدم حول هذه العاصمة التي ظلت من اقدم الازمان مطمح الانظار . ويمكن القول بأن اوروبا وآسيا قد اخذتا تتصارعان فى هـذه المدينـة الكبرى، وقد أبى الشمم العثماني ان يخفض من عزته ازاء القوى المتنمرة أمامه . ومع اعتراف الوطنيين العثمانيين بالغلطات الحديثة التي ارتكبوها فى الاوقات الاخيرة فأنهم كانوا يردون بحذق وكفاءة على الانتقادات التي كان يوجهها اليهم أصدقاؤهم . وعند ما كان المحكوم عليهم يناقشون فى الاحكام الاستبدادية التى كانت تصيبهم بضرباتها الشاذة كانت أدلة مناقشتهم تتمكن من العقول بما لها من القيمة المنطقية الحائزة منتهى الاقناع والبيان اذ كانوا يقولون :

« اذا كنتم تريدون القضاء علينا فلماذا لم تقولوا لنا ذلك من قبل قولا بينا ؟ بل لماذا خدعتمونا وتلاعبتم بعقولنا ؟ لقد وثقنا بصدق وعدكم وشرف كلمتكم وقلنا فى أنفسنا : اذا كان الانجليز لا يحافظون على شرف كلمتهم ويفون بوعودهم فان الفرنسويين لا يتأخرون عن التداخل فى الامر ، وبوجودهم كوسطاء بين الطرفين يغدو مستقبلنا سالما ؛ ولكنكم بقيتم صامتين امام ظلم واعتداء أعدائنا . »

وعلى هـذه الوتيرة أخذت الاصوات العثمانية تنبعث من جوانب بيوغلي واسلامبول . أما المظاهر الرجعية الاسيوية فعلى

ما كانت متصفة به من أشد الخشونة والفظاظة فانها كانت تبدو للعيان فى ثوب الاستخفاف بما يحدث من الاموراالتى تكاد تقضي على كيان الدولة وهؤلاء الاشخاص الرجعيون الذين كانوا يمرون بك وكأنهم لم يروك فى طريقهم تبدو عليهم أمارات الخنوع والضعف وعدم المقاومة . ومع ذلك فاذا كانوا لا يهتمون بأي شيء ولا يريدون أن يقاوموا الوطنية المشتعلة فمن أين تنبعث آلاف الحوادث المكدرة التي تنزلج في الخفاء تحت أقدام أولئك الذين ليسوا أصدقاءهم ! ومن هم أولئك الذين يضرمون نيران تلك الحرائق الهائلة ؟ ومن أين تتراسل تلك القذائف الناريه ؟ ومن أين تخرج تلك الحصوات الرملية التى تنهال فى عدد الآلات ؟

فهذه الاعمال المناقضة لروح المسالمة هى الى كان يتعذر على رجال الشمال أن يدركوا لها كنها أو يعرفوا لها مصدرا الا بمنتهى الصعوبة . ان القوة الوحشية قليلة الشأن هنا . وتنقل الفصائل العسكرية من جهة الى اخرى فى كل حين لم يعد يحدث أقل تأثير فى النفوس . وذلك لان الشعوب الاسيوية لم تعد تأبه الا لقصف المدفع . ومع دلك فعندما يخفت صوت هذا المدفع الذى لا يدوى قصفه فى الآفاق الا بنفقات هائلة فانساعة الانتقام وقيام الخصوم بدور الهجوم تبتدىء .

فتور الهمه

ان مرأى الاستانة قد يبعث فى النفوس أثراً من الرجاء فى العودة الى العهد الاول حينما كانت تتجه اليها انظار الزوار والتجار من سائر الاقطار ، ولكن الانسان لايكاد يتأمل مليا فى العوادى التي عدت على هذه الروضة الغناء حتى يكاد يداخله القنوط من العودة الى العهد الاول . فحيثما توجه الانسان لايرى من الدمن العافية التي تخلفت عن الحرائق المتوالية الا عوامل تثبيط . ولقد يتساءل الانسان ماذا عساه يصنع ؟ أيشتغل ؟ ولكن بأي عمل ؟ أيتاجر ؟ ولكن فى أي صنف ؟ ومع من ؟ لقد سدت الابواب وتفاقمت المشاكل فلم تعد المصادر والموارد التجارية سهلة المتناول كما كانت من قبل .

وكان الاهالى الوطنيون اذا رأوا أجنبيا بدت عليهم سيما التخوف منه حتى اذا ما اختفى عن أنظارهم أخذوا يتساءلون فيما بينهم : « ماعندك من أخبار الاناضول؟ » فيتناجون با لامهم وآمالهم من غير أن يشعروا أجنبياً بشيء منها .

على انهم كانوا لايزالون يرون فى باريس نقطة تتراسل اليها أشعة أبصارهم باعتبارها مهد الحرية ، ولكنهم كانوا يأسفون لان ابناء

ذلك البلد لا يرثون لحالتهم ولا يأخذون بأيديهم . وعلى كل حال فقد كانوا يرون ان فرنسا هي الوادى الذى تسرح فيه آمالهم

واذا ما عاد الفكر مرتداً عن هذه التصورات الى التعرض للحقائق المحسوسة فانه يرى علائم الحياة بالاستانة مشوبة بالخمول وثبوط العزيمه

مدينة الدسائس الأبديه

أن الدسائس والفتن والخبائث والآثام تنهش الهضبة الشرقية التي يتماوج فوقها العنصر اليونانى كانه فى انضر ايام سيادته وحكمه.
فهو يمتزج بكل ما يقذف به البحر الابيض المتوسط من فضلات واقذار ، ويوطن نفسه على نقائصها وخساساتها . وهو ينغمس في بؤرة الدسائس الروسية التي لا تزال آثارها متحركة والفتن الاسيوية والمكائد الصادرة من المعسكرات المتحالفة والاحابيل الالمانية والحيل الايطاليـة والخيانات العربيـة الى غير ذلك من النزعات والمذاهب والمبادىء كالجامعة الاسلامية والوحدة التركية والرابطة الطورانية الى امور كثيرة لا تعد مما ينتشر ما بين مصر والهندفي السبل الفارسية . . .

وقد ضغطت شبكة خفية هـذه المدينة التي بدا عليها الضعف

والشحوب . وصارت فريسة للتشكيلات السرية التي اشتركت فيها جميع عناصر المسكونة والتى تتألف من عمال سريين موفدين من كل دولة وملة فمن اناس يشتغلون لاجل مصالح اجتماعية متنوعة الى آخرين يعملون لاغراض دينيه

ومن حسن الحظ ان سوء التصرف فى إحداث الشر هو الذى يكون سببا فى عدم نجاح الشر أو على الاقل فى تلطيف سمومه القتالة ، وذلك ان المؤامرات كان بعضها يهتك حجاب بعض فتحبط جميع اعمالها او تخف على الاقل وطأتها . ولولا ان العصابات كانت تصادف من المثبطات ما يمنعها من القيام باعمالها المهلكة لاصبحت القسطنطينية فريسة الاهوال وارضا معبدة للفظائع والآثام

وهذا هو المرأى الذى كانت تتمثل هذه العاصمة الحافلة بضروب الارزاء والمحن فيه لعيني الجندي البريطاني الذى كان يجيل نظره وفكره فى انحائها الواسعة وقد أصحبهما بالخوف والازدراء .

ولذلك كان من المحتم على زائر هذه المدينة الكبرى أن يري هذا المنظر أيضا وهو متربع فى المركبة التي تنهب الطريق وجوادها الجامحان يقلدان أحوال هذه العاصمة الشاذة فيشذان هما بالمثل يمنة ويسرة ويصعدان آونة فوق الافاريز وآونة اخرى ينعطفان في

المطقات التي لا يريد الحوذي أن يمر بمركبته منها . وبالجملة فان جياد الاستانة أصبحت جامحة متآمرة ضد سائقيها مسترسله في تيار أهوائها وأمانيها

فهذا السير العجيب الذى تتبعه جياد الاستانة مقلدة فيه أبناءها هو نفس السير الذى يتبعه الشرق بأسره الذى لا يمكن أن يقوده في طريق آخر ويحمله على مشية اخرى سوى زعيم واحد قدير يتولى أمره ويتصرف فيه بحكمة واقدام

وبينما تقع عين المشاهد على جمهور غارق فى لجة الأسى اذا بالمرأة العثمانية تلقى على هذه الغمرة الكئيبة أشعة ملتمعة من النضارة والبهجة تدعو الى بعض السرور والارتياح . فهي تمر مسرعة الخطا منتصبة القامة ممشوقة القد على النمط الفرنسوي فى الهندام والرشاقة والحركة ممتازة بقدميها الصغيرتين . وتخترق الزحام بقدميها الثابتتين في خطواتها الواسعة وهي تتطلب الصدقة التي دفعتها اليها الحاجة القصوى ولكنها وهى تستمد يد الاحسان تلقى بنظرة ملؤها الحقد والبغضاء

وما يهبط ستار الليل حتى ترتفع تحت ذيول الظلماء أنة الألم المحزن المخيف من سائر ارجاء المدينة . وإذ ذاك يهرع أرباب الفتن والدسائس والمؤامرات الى حي بيوغلي فينسابون فى حاناتها

وملاهيها ويجلسون حول المناضد والموائد فيتقارعون أكواب الراح فى الظاهر وهم فى الحقيقة يتناقلون الاسرار ويدبرون الاعمال الخفية . فبينما يكون هذا جالس هنا اذا به قد انتقل بكرسيه الى هنالك وبينما يكون ذاك جالسا حول منضدة الشراب اذا به انتقل الى مائدة طعام وهكذا يستمر التهامس والانتقال من مكان الى آخر حتى ينبلج الصباح

على ان الافق أخذ يتسع اتساعا هائلا لهذه الدسائس والمؤامرات . فلم تعد المسألة مقصورة على بعض الفتن والنكايات والسعايات المحلية أو الفردية التى لاتلبث أن تقضي عليها نتحة قوية من أعصار حار بل صارت واسعة النطاق متسلسلة الانظمة آخذة مأخذ حروب كبرى فقد كان الحرج المستولى على البقاع الاسيوية يتمشى فى الخفاء الى هنا ليستمد التعليمات التى ينبغي أن يتطور بمقتضاها الى شكله الظاهري أي الى النظام الحديث الذى يجب أن ينساق اليه

فما أعجب تلك الحالة التي يصبح فيها الخليفة عرضة لحملات اخصائه عليه ولا يجد له ظهيرا الا من البريطانيين وهو مزعزع فى مركزه تهدده طماعية اليوناني وتستخف به شراهة الروسي !

لقد أصبح الانجليزي السيد المطلق فى الاستانة فهو اذا تكلم

فانما يتكلم فى بيته الآمر الناهي فيه وأما كل انسان آخر سواء أكان من أبناء البلد أو ممن اعتزموا على الاقامة به فلا يرى نفسه إلا غريباً عنه . فالأقليات تبعث بصيحات الآلام المؤثرة فى النفوس وأما الاغلبية فتخفى فى زوايا نفوسها أحقادها وبذلك تتمشى ألسنة النيران متباطئة وهي تلتهم ما حولها والعثمانيون يخاطبون كل من تقع أعينهم عليه بقولهم : « ان الدمار التام العاجل خير لنا من هذا الاحتضار المؤلم الذى لا أثر فيه للرحمة . »

هل نستطيع أن نعرف ما هو مجموع التأثيرات التي يمكن أن تتولد من هذا المضطرب اللجب ومن هذه التهديدات المتوالية ؟

باريس مترددة والشرق منتظر

ان أول ما يجب الاهتمام به والتكلم عنه هو اجماع الآراء الفرنسوية . فمواطنونا يخوضون فى هذه المسألة باتفاق وجهة النظر من جهة واحدة مع محافظة كل انسان على طريقته الخاصة فى الحل المرجو لهذه المسألة . وماهذا الاجماع الا احدى نتائج اتساع دائرة السياسة التي تقتضيها الشئون الحاضرة . فانه من المستحيل البقاء فى دائرة العزلة وعدم الاهتمام بالصعوبات والمتاعب الداخلية التي تعانيها فرنسا والتى تتطلب من كل فرد من أبنائها التسابق والتزاحم فى ميدان الجد والنشاط .

فهنا كل مجتمع فرنسوي يلعن طريقة الاعتداء التى اتبعتها انجلترا وطريقة التردد التي التزمتها حكومتنا وعملها الذى لا يكاد يظهر له أثر محسوس .

والشيء المستغرب هو أن باريس لبثت لا تفقه ان الشعوب الشرقية لها رغبة لاتحد فى أن تحب حماتها وأن تبجلهم وتنوه بقدرهم، وما هذه الشعوب الا عملاء طيبو المعاملة حسنو العشرة غير انهم فى الوقت نفسه خصوم يخشى بأسهم وأصدقاء اذا ما انتقدوا كان انتقادهم أمر من العلقم

وعلى الرغم من كل شيء فان فرنسا بقيت المحببة المفضلة لدى الشعوب الشرقية لانه من الممكن المعيشة بجانبها بدون التخلى عن عزة النفس أو التنازل عن الحقوق الشخصية . وأهم مايحب فى فرنسا سياستها التقليدية القائمة على الانتصار للعالم الاسلامي وهي السياسة التي اهتدى اليها المارشال ليوتى والتى تعارض صلابة المبادىء الاستعمارية الانجليزية

إن هذه الشعوب تأبى الا ان تظل متمسكة بما اعتادت عليه من قبل . ولهذا فأن الوطنيين العثمانيين كانوا يتناجون فيما بينهم بأنه لا بد لفرنسا من ان تتبع السياسة التى ابتكرتها واتخذتها خطة دائمة لها . لقد كنا اذ ذاك فى شهر سبتمبر سنة ١٩١٩ وكان الهياج

الفكري حينئذ بالغا أشده من نفوس الاسرات العثمانية التي كانت تظهر ميلها الشديد الينا وتريد منا أن نقابلها بمثل هذا الميل . أن اهم مايجب الالتفات اليه هو أن ذلك الذى يقال عنه انه متوحش ليس سوى انسان حضري متمدين وفطرته وفلسفته تتفق تمام الاتفاق مع المزاج الفرنسوي

ولكن يوجد امر آخر يستدعى الاهتمام اكثر من الامر الاول وهو ان هذا الصديق المحب العطوف الذى يريد مناصرته يشق عليه استعمال المجاملة والملاينة ومراعاة مقتضيات الاحوال التي قد تصرف وجه من يحبه عنه ولو مؤقتا فأن مثل هذا العمل يجعله ينقلب الى مبغض لكل شيء حتى لتلك العاطفة التي تدنى بين قلبه وقلب من يحبه

وهذان الامران هما اللذان لاتدرك السياسة الاستعمارية الانجليزية لهما كنها . وهذا الجهل الاستعماري هو الذى لا بد ان يسبب لانجلترا اخفاق سياساتها في آسيا برمتها بل هو الذى سيكون العامل الاكبر فى وثوب آسيا ضد الكبرياء والجبروت البريطانيين

الفصل الثانى

﴿ يوم تاريخي فى الاستانة — السياسة الانجليزية فى تركيا ﴾

(استعمال القوة)

لقد استيقظت اسلامبول وبيوغلى فى فجر ٢٦ مارس سنة ١٩٢٠ مذعورتين من دوي اطلاق الرصاص الذى لم يستمر طويلا، وكان هذا مبدأ استعمال القوة الانجليزية وهى الوسيلة التى ارادت انجلترا ان تتخذها ضمانة لها تستند عليها فى مشروعها الاستعماري .

وبعد قليل احتلت الجنود البريطانية البرية والبحرية الوزارتين المهمتين وهما وزارة الحربية والبحرية والبريد والتلغراف . واستمر هنيهة من الزمن انقطاع المواصلات التلغرافية والتلفونية بين كل من لم يكونوا من العنصر الانجليزي السكسوني . وتدفقت القوى الانجليزية على بيوغلى ، ذاهبة آيبة مستعرضة فى كل مرة مدافعها السهلية رافعة فوهات مدافعها الرشاشة كأنما هـذا الاستعراض المتوالى منظر متحرك من مناظر السينما توغراف . وكانت هيئة الجنود الانجليزية وعمال القوميسارية الانجليزية تدل على انها تبحث مجدة فى طلاب أولئك الذين يتحرشون بها أو يشيرون اليها أو

يتهامسون فيما بينهم بشأنها لتحكم عليهم احكاما قاسية ولتنكل بهم نكالا تكون فيه العبرة البالغة وهم بالفعل يحاولون أن يستهيجوا الناس الى مايستوجب ذلك

وكانت فوهات المدافع البحرية مصوبة نحو اسلامبول والخيالة والمشاة بعدتهم على أهبة الحركة عند أول اشارة وهم واقفون صفوفا على أرصفة غلطه . وكان سكان الاحياء اليونانية ينظرون الى هذا المرأى باعجاب وقد خفي عنهم ماجبلت عليه نفوسهم من الصغر والحقارة .

أما العثمانيون المسلمون فقد انثنوا متراجعين أمام هذا التحرش ملتجئين الى منازلهم التي أوصدوا أبوابها ونوافذها لكي يمتنعوا عن مشاهدة هذه الكارثة التي حلت بهم

وعجل الانجليز بدخول ثكنات اسلامبول وقد تعمدوا اظهار قوتهم ومقدرتهم وجبروتهم باخماد أية بادرة تبدر على الاثر . وقد تجددت أصوات البنادق هنا وهنالك فسقط عدد من الجنود العثمانيين شهداء على الثرى . وهكذا فوجيء من قبيل المصادفة موسيقيو آلاي من المدفعيين فأخذوا الى شرذمة المنفذين للعقوبات حيث قضوا عليه .

لقد سقطت القبضة البريطانية بعنف على العثمانيين المتهمين

بالميل الى الفرنسويين ، فصودروا وطوردوا وقبض عليهم وسيقوا الى مالطه . وكأنما أرادالانجليز بهذا العمل أن يظهروا أنفسهم فى مظهر الكفاءة الفنية الحربية حاسبين انهم فى ساحات الوغى والصدام. وقد أخذ هذا المنظر الرائع يتكرر على هذا الشكل يوماً بعد يوم كما ان استعراض الجنود لبث يتكرر على صورة واحدة .

وفى الساعة الثالثة عرض علي الكولونيل اكس ... ان أتبوأ مقعدا فى اوتوموبيله العسكري لاذهب معه الى السر عسكرية (وزارة الحربية) فقد كان له هنالك عدة من الاصدقاء يريد أن يراهم .

وانتشرت الاحكام العرفيه فى بيوغلى كما انتشرت فى اسلامبول حيث أخذت الفصائل الانجليزية بخيولها ومدافعها تجوس خلال أحياء هتين الجهتين وهى مصوبة فوهات هذه المدافع على المنازل الموصدة أبوابها ونوافذها

وبما ان بيوغلى أصبحت خالية من الاهالى وغاصة بالجنود الغادية الرائحة فهى بهذه المثابة تشبه بلدة اقتحمها العدو بقضه وقضيضه وقد غص جسر (كبرى) غلطه بالجنود والمدافع والخيول المختلفة أنواعها بدرجة جعلت المرور على هذا الجسر مستحيلا على الأهالى .

أما فى اسلامبول فقد كان الاكتئاب يرفرف بجناحيه على رءوس الاهالي الذين كانوا ينسلون فرادى خلف الجدران مخترقين الحادات والخرائب المتبقية من الحرائق المتواليه كأنهم ظلال متراوحة وقد أخذوا ينسلون من كل حدب وصوب الى بقعة واحدة وهي ميدان وزارة الحربية وعيونهم التي تكتحل بأثمد الحزن شاخصة الى باب تلك الوزارة . وهذه الجموع التى تموج بهم تلك الساحة الرحبة كانوا جميعا من الاهالي المسلمين

وأقبل اتوموبيلنا يشق طريقا بين هذه الافواج المحتشدة وهو يسير الهوينا ، فما كادت تقع عيون هؤلاء الناس على هذا الاتوموبيل حتى أخذوا يحيونه باشارة السلام مع انهم منذ بضعة أشهر لم يحيوا أي ضابط كيفما كانت شارته العسكرية وتبعته ووظيفته فهم اذن باختصاصهم هذا الكولونيل الذى صحبني فى سيارته بالتحية انما أرادوا أن يعربوا عن شعورهم نحو فرنسا . وفى الحقيقة ان هذه التحية كانت ذات مغزى عظيم بل كانت كلاما صامتا بل استفهاما بل دعوة مخصوصة

وكان فناء وزارة الحربية يتراءى كمعسكر فى ساحة قتال غاص بالجنود على اختلاف أنواعهم وبالاسلحة على متنوع أشكالها فمن مدافع ضخمة الى ميترليوزات الى بنادق مصفوفة متعانقة . وحينما

بصر بنا الضباط البحريون ونحن داخلون أحرجهم دخولنا وظهر على وجوههم دليل الامتعاض الا أنهم لم يستطيعوا أن ينبثوا ببنت شفة

وانحدرنا من الاتومبيل فتقدمني الكولونيل إكس . . . . صاعدا درجات السلم الكبير الغاص بالبحارة الانجليز المصطفين على الدرجات في هيأة غير موافقة للنظام العسكري . فأخذ يدفعهم بقدمه مفسحاً الطريق دون أن يعترض أو يحتج أحدهم . وكان جنديان واقفين يحرسان باب المكتب الذي كنا نريد دخوله ، فلم يجرؤ الحارسان على اعتراضنا بل ظلا في مكانيهما حاملين بندقيتيهما مخليين لنا الطريق .

ماذا كان يقول الجمهور ؟

أخذت أتطلع من النوافذ الكبيرة المفتوحة مصارعها في المكتب الذي دخلناه فرأيت الجنود المتماوجة في ساحة هذه الوزارة ذات الارجاء الواسعة بأسلحتها الملتمعة ورأيت السياج ذي القضبان الحديدية الذي يفصل ما بين ساحة الوزارة والميدان الكبير الموجود خارجها وشاهدت الجمهور المظيم المتدفق من سائر جوانب هذا الميدان نحو الوزارة وهو هائج مائج آخذ في الاقتراب نحوها وعيونه شاخصة الى الداخل

ولقد كان ينساب بين هـذا الجمهور العظيم افراد يتنسمون الاخبار ويستطلعون الحقائق من فدائيي العثمانيين ولا يلبثون بعد أن يملأوا جعب افكارهم بالتفاصيل الضافية أن يختفوا عن الابصار متسللين تحت اذيال الخفاء الى بلدان الاناضول ناقلين مارأوه من شعور ومن أسى ومن مصائب متعددة جاعلين من مرادها عوامل محركة ميقظين الهمم مضرمين جذوة النار فى النفوس الهادئة التى لاتلبث بعد أن وصل اليها هذا الضرام أن تنقلب الى سعير متأجج.

فما تمر بهؤلاء الرواد الا بضع ساعات حتى يصلوا الى الاناضول وفى بضعة ايام يصلون الى قونيه ومنها ينتقلون الى انقره فسيواس ثم يأخذون فى الترامي الى جهات سحيقة ليست معينة فى برامج أسفارهم لايلبث أهلوها على أثر تلقط ما ينقلونه اليهم من هذه الانباء الفاجعة أن ينقلبوا الى نمور حردة وسباع ضارية تريد أن تظفر بفريستها أي بذلك الذى يحاول الاعتداء على كيانها

وبعد عدة اسابيع يكون هؤلاء الفدائيون جابة الآفاق قد اخترقوا الفدافد والتلاع واندمابوا بين الوديان والوهاد متنقلين ما بين القارتين العظيمتين آسيا وافريقيا اللتين لاتلبثان أن تربطهما هذه الآلام والكوارث رابطة الاتحاد المقدس . ان التأثيرات التى ستحدثها هذه السفرات المتوالية التى يقوم بها فدائيو العثمانيين ستكون

عظيمة الى حد لا يمكن تصوره

وكان يوجد بين هؤلاء الداعين الى الاتحاد والناشرين أنباء الفظائع والاهوال اناس يتزيون بأزياء الفاقة والبأساء وهم من خير ما أخرجت الامة العثمانية بل العالم الاسلامي تفكيراً وعلما وقوة ارادة وحنكة وتجربة وهؤلاء هم روح الوطنيـة الشرقية الذين يعدون وسائل المقاومة والصراع فى كل مكان ضد القوة الغاشمة التى تريد التحكم فى البلاد والنفوس وهم لا ينسازلون عن مقاومتهم وصراعهم حتى يصلوا الى النهاية القصوى فأما فازوا بالانتصار وتخلصوا من نير الاستعباد وإما طاحت أرواحهم الطاهرة فى ميادين الشرف

على ان انجلترا قد دفعت ثمنا باهظا لاستعمال القوة التى لجأت ليها فى الاستانة وباغتت بها قادة الافكار . فانها اثارت على نفسها حربا عوانا فى آسيا لا يمكن أن يتنبأ أحد بالحالة التى ستؤول اليها ولا بالزمن الذى ستنتهى فيـه وقد أصبـح الخليفة المسكين الذى تنقده انجلترا المبالغ الضخمة لا يستطيع أن يبدي أقل احتجاج على ماتقوم به من الاعمال الموجهة ضد دولته

وقد بصرت بالجمهور المحتشد فى الساحة الخارجيه يزداد اقترابا من السياج المحدق بالساحة الداخلية ليرى مايجري فيها عن قرب وهو متجنب كل ماتنتشر منه رائحة العداء

وكانت الكلمة المتفق عليها بين المحتشدين فى الخارج هي عدم التحرش بالخصومة الموجهة اليهم . ولهذا فانهم أخذوا يتراجعون الى الخلف بالدفع المتوجه اليهم من جانب الانجليز بدون أن يظهروا تبرما أو تذمرا . وكان الانجليز قد أرادوا أن يؤثروا في نفوسهم بمظهر جديد من القوة فاستقدموا جنوداً اخرى بأسلحتها المتنوعة وهى التى اخترقت هذا الجمهور المحتشد ودفعته بالطبع الى الخلف فاندفع صامتاً لايبدى عداء . على ان هذا السكوت لم يكن سكوتاً عاديا بل كان منطويا على احنة تكمن فى النفس لانه كان فى الحقيقة عبئاً ثقيلا على كل المحتشدين فكان المتطلع اليهم يرى فى انظارهم دليلا جديداً من أدلة البغضاء ينضم الى مااستوعبته النفوس من قبل .

أما الجنود والضباط العثمانيون فقد كانت انظارهم تبحث عن أنظار ضباط البعثة الفرنسوية الحربية المرتبطة بوزارة الحربية . فلا تكاد أنظار الضباط الفرنسويين تشتبك بالنظرات المتجهة اليها حتى يعرو هؤلاء الضباط هم وضيق ولا يدرون بماذا يتخلصون من حرج مركزهم ازاء الآمال المتجهة اليهم سوى أن يحولوا دفة غضبهم الى الضباط البحريين الانجليز الذين يكونون حينئذ مشرفين على الحراسة

وقد أرخى الليل سدوله على هذه المناظر فى الحالة التى وصفناها، وأخذ الخفراء يطرقون الارض بعصيهم ، وبدأت الاصوات الاعتيادية تتعالى فى جوانب اسلامبول ثم دوت بعض طلقات من البنادق فى نقط متفرقة ولم تلبث رناتها أن اختفت فى ظلام الليل

ولقد تسرب الضيق المستولى على النفوس مع الذاهبين من اسلامبول الى پيرا مجتازاً جسر غلطه صاعداً الى بيوغلي منتشرا فيها ومسترسلا منها الى سائر انحاء المدينة

النواب الوطنيون المنفيون

لقد صار اليوم التالى لليوم المتقدم ذكره من الايام المشهودة فى التاريخ العثماني فان انجلترا كشفت القناع عن وجه سياستها الحقيقية وخطت الى ما تحاوله بقدم قوية غير حاسبة أقل حساب للعواقب وذلك انها قبضت على أكبر الرؤوس المفكرة فى الحركة الوطنية فى مجلس النواب وهو ملتئم حافل بأعضائه الجريئين الذين كانوا يتباحثون اذ ذاك فى أهم مسائلهم الوطنية

لقد وصلت انجلترا الى نهاية ما تستطيع القيام به من الضغط فى الاستانة فكانت احرج ساعات الشدة وعصفت ريح الشر . فكل من كان له شأن عظيم فى الامة العثمانية صار فى هذا اليوم

إما حليف السجون فى اسلامبول أو فى طريق النفي الى مالطة أو لائذا باذيال الفرار الى الاناضول .

حينئذ أصبحت الولايات هى قلب الدولة العثمانيـة النابض لا الاستانة وتحولت الاهمية كلها الى الداخل وانقطعت الصلات مابين تركيا الحقيقية واوربا فلم يبق بينهما ادنى تعامل ولا احتكاك ولا تزاور

وقد اخـذت الهجرة الى الاناضول معها الذكاء والاقدام والحنكة والمقدرة العثمانية التى كانت متجمعة فى عاصمة تركيا او بالاحرى فى عاصمة الشرق

تزعزع منزلتنا القديمة

أن انجلترا قد ارتكبت بعد خطأها السالف فى تمكين اليونانيين من احتلال ازمير هفوتها الجديدة التي اقدمت عليها فى يوم ١٦ مارس سنة ١٩٢٠ والتى عزلت بها القسطنطينية عن الاناضول عزلا تاما

أن هـذا تشطط الذى جنحت اليه انجلترا كان سببا فى قيام قائمة الوطنية العثمانية فى الاناضول اذ انتقلت الحكومة الجديدة من سيواس الى انقره واشتد ساعدها وانتشر صيتها واتجهت اليها الانظار والتفت حولها القلوب . هنالك ظهر فى طليعة هذه الحركة

المباركة مصطفى كمال باشا داعيا الى حمل السلاح والانخراط فى سلك التجند العام ومقررا عقوبة الاعدام على كل من يتعرض لشعرة واحدة فى جسم مسيحي ما

على أثر ذلك فقدت انجلترا كل مراقبة واشراف على معقل الوطنية العثمانيـة . ولـكي تتعرف مايحدث هنالك فى طي الخفاء صار من المحتم عليهـا ان توفد اناسا من الذين يقع اختيارها عليهم وتعظم ثقتها بهم مجزلة عطاءها لهم . ومع ذلك فقد استحال عليها أن تتحقق صدق اقوالهم أو أن تقف بواسطتهم على حقائق الامور الجارية هنالك . فأن مصطفى كمال اخـذ يسود على سائر البقاع الاناضولية ويصبح الحا كم المنفرد فيها وبهـذه الطريقة انعزلت القسطنطينية بتاتا عن سائر الولايات الاناضولية وانقطع عنها ما كان يرد اليها من تلك الولايات من المواد الغذائية وأخذت تشرف شيئا فشيئا على الهلاك

وأخـيراً هاجت عواطف المسلمين فى سائر أرجاء الكرة الارضية ضد هذا الاعتداء الفظيع الذى ارتكبه الحلفاء ضد الدولة العثمانيه دولة الخـلافة الاسلامية بأخلالهم بحقوق هذه الخلافة فى شروط الهدنة التى الجأوها الى قبولها

وأما من جهة منزلتنا القديمة فى الشرق عامة وفي البلاد العثمانية

خاصة فقد كدت تكون لها هذه الحادثة الضربة القاضية عليها . فان فرنسا بدون أن تستفيد من القوة التي استعملتها انجلترا قد اتخذت لنفسها مهمة موجبة للحزن والأسف وهي أن تصير تابعة لهذه القوة كسائر الدول الاخرى ذات الشأن الثانوي . فلم يعد لها صوت سوى الصوت الانجليزي ولا سياسة الا السياسة الانجليزية

السياسة الانجليزية تنحصر في :

« ما أحسن الحال اذا ساءت الاحوال ! »

كيفما كانت اغلاط انجلترا فانها هي التي تقرر مركزها وتستولى بنفسها على هذا المركز .

أليس الشرق الكل انجليزي المستعمرة العظيمة ذات الصبغة البريطانية البحته ؟ أما الدول الاجنبية فليس لها الا أن تلاقي مقاومة انجلترا ومصارعتها العتيده

وهيهات لانجلترا أن تعدل عن اتباع أساليبها السياسية فى طريقتها الاستعمارية وهي الطريقة التي اتبعتها منذ ابتداء القرن الثامن عشر وقد بقيت أمينة عليها وفية لها . وماهي هذه الاساليب ؟ الافساد والانهاك وبث الفتن والدسائس وتشتيت الجماعات الملتئمة العممة .

أما أدواتها التى تستعملها فى هذه الاساليب فهي : مصلحة استعلامات من الطراز الاول مزودة بعمال محليين لا أثر للذمة والشرف عندهم وشذاذ من المشارقه المتجمعين من كل صوب والواقفين على خبيثات الامور فى كل ناحية يقذف بهم اليها ليجوسوا خلالها ويقوموا بتأدية أعمالهم فيها . وفرض الضرائب الفادحة واتباع سياسة تشتيت أهم خصومها . ونشر الدعوة بالقاء الخطب وبالتكلم فى كرامة أعدائها بوشايات دنيئة وتكريرها الى حد ارساخها فى النفوس .

واخيرا بعد ان تنتهى من جميع الوسائل المتقدم ذكرها تعمد الى العمل العسكرى أي إلى استعمال الشدة كنهاية الوسائل التي تتذرع بها لالجاء الثائر فى وجهها الى الاعتقاد بأن لابد له من الخضوع لمشيئتها عاجلا او آجلا ائتمارا بحكم القوة الانجليزية

واحد عوامل هذه السياسة هو المصانعة والمداجاه . وبينما نحن فى فرنسا نتحادث ونتناقش ونتجادل علنا وبمحض اختيارنا فى سائر الشئون نرى الامر على عكس ذلك فى لندره حيث لا يمكن البحث فى المسائل السياسية الا بين المتخصصين فيها الذين لا يسمحون بنشر شىء من معلوماتهم وآرائهم ومناقشاتهم على الجمهور . فالجمهور هنالك لا يعرف التمهيدات ولا النتائج بل الاغراض نفسها

٤ — الوطنية

تخفي عنه بطريقة دقيقة مقرونة برعاية عواطفه

أن السياسة الانجليزية تعتمد على بعض قواعد الالعاب الرياضية التي بمقتضاها : « لاتصح الخضوع مطلقا والتنازل عن الحق الذى يعتقد الانسان انه في جانبه الا اذا غلب على امره تماما وفقدجميع قواه ، فان الاشياء المكتسبة لايجب أن تمنح بل ينبغى أن تنتزع منك قسرا . » (لندره يونيو سنة ١٩٢٠) . وهذه الكلمات الصادرة من الكولونيل . . . — الذى ربما يكون أعظم رجال ادارة السياسة المدنية — تلخص المذهب السياسي الانجليزي . فقد قال فى معرض الاجابة على الحملات الموجهة اليه بشأن نتائج الاعتداءات الاخيرة :

« نحن أول شعب فى العالم ولسنا فى حاجة الى الاستعانة بأحد لاننا نؤثر ان نعمل بأنفسنا لمجرد مصلحتنا . وما أسعد الحال لدينا اذا ساءت الاحوال لاننا يمكننا حينئذ أن نستثير حمية الاهلين لدينا ونستخرج القوى الحقيقية الكامنة فى بلادنا من مكامنها »

ثم تمهل قليلا وقال :

« أن الشرق بالنسبة لكم امر ثانوي لان علاقتكم به علاقة بديعة ترضى عزة نفوسكم الا انها ليست اساسية بالنسبة لكم . أما بالنسبة لنا فأن الشرق هو حياتنا أو موتنا بنسبة بقائه مواليا لنا

مرتبطا بنا أو مجافيا لنا عاملا على القائنا خارج دائرته . »

فمن هو اذن ذلك الخصم الذي يقف دائما على قارعة الطريق ويسدها على انجلترا فى غدواتها وروحاتها ؟ هو للفرنسوي بالطبع فهو إذن سواء أفي افريقيا أم فى آسيا المزاحم العنيد الذى ينبغي قهره واراحته من الطريق . وعلى هـذه الوتيرة مرت سنة ١٩١٤ فقد كانت انجلترا تقول لنا فى أثنائها :

لقد انضممنا اليكم ضدالمانياوأما فيمايختص بالشرق فاننانحتفظ تمام الاحتفاظ باستقلالنا فى وجهة نظرنا وعملنا فيه »

وكان الفرنسويون يجيبون على ذلك بأنهم لا يستطيعون الاستغناء عن مقابلةهذه القاعدة بطعنتهالخنجرفى الظهر (كحوادث سوريا وقليقيا المتتابعة فى عامي ١٩٢٠ و ١٩٢١) . وانه لمثال سيء يضرب للشعوب الاسيوية .

على ان ميدان الشرق فسيح جداً ، وهلا يكفى اتساعه لاحراز دولتين أو ثلاث دول فاكثر مهمة تعليم وتربية شعوبه ؟

ولكن انى للسياسة البريطانية أن تقبل التنازل لغيرها عن حصة ولو ضئيلة وجشعها الاستعماري يأبى الا أن يكون خليفة المطامع الالمانية الاستعمارية

ولكن عمال ادارة السياسة المدينة لم يكونوا يبالون باراء

الناس حتي لو كانت آراء حلفائهم بل كانوا يقولون وهم يتبسمون :

« هـذا أمر لا يهمنا فاننا سنبقى أبد الدهر أعظم الناس قوة وأبسطهم ملكا »

المقدمات

لقد اختطت لنفسها خطة ترجع اصولها الى عام ١٩٠٨ مقتضاها أن تجعل الدولة العثمانيه مملكة ضئيلة ممزقة منهوكة القوى تحت اشرافها . وكان ذلك عندما بدأ احرار العثمانيين ينهضون نهضتهم الاولى التي كانت ترمي الى تقوية دعائم دولتهم وترقيتها ونشر معالم الحضارة والعلم فيها . هنالك رأت انجلترا أن تقاوم هـذه النهضة وتعمل على احباطها ومنع أولئك الشبان النشطين من اكمال أعمالهم لانها كانت ترى هذه الاعمال معضدة من جانب المانيا التي كانت إذ ذاك مشرفة على الشئون العثمانية

على أن أحرار العثمانيين قد أرادوا أن يتخلصوا من اشراف المانيا على شئونهم مستمدين أيدى المعونة من فرنسا وانجلترا لمحو النفوذ الالماني ولـكن انجلترا لم ترد أن تعضد الدولة العثمانية الا اذا كان على رأسها وزارة خاضعة لها تمام الخضوع . فتم لها ما أرادت وتعين كامل باشا في منصب الصدارة العظمى

واذ رأت جمعية الاتحاد والترقى ان كامل باشا يريد أن يجعل السلطنة العثمانية مستعمرة انجليزية من جهة وأن يعود الى طريقة الحكم الرجعي من جهة أخرى فلم يسعها الا أن تسقط هذا الوزير المصطبغ بالصبغة الانجليزية ومن ذلك الحين بدأ العداء والصراع الشديدان بين الطرفين بدرجة فظيعة

وقد أفلحت انجلترا فى أن تعيد كامل باشا الى السلطنه وتحاول القضاء بواسطته على كل ما هو منتم الى أحرار العثمانيين من رأي أو عمل غير ان نجاحها لم يطل أمده لان الشعور الوطنى تكون فى البلاد العثمانية لاول مرة وتقوى بسرعة عظيمة

وفي عام ١٩١٠ تمكن فيتز موريس الترجمان الاول فى السفارة البريطانية من ايجاد الشقاق والانقسام فى داخل جمعية الاتحاد والترقي وبهذه الطريقة استمال اليه أحد مشهورى الاتحاديين وهو القائمقام صادق فقد قبل هذا الشخص أن يكون زعيم جمعية الائتلاف والحرية وكانت جمعيته التخصية مؤلفة من بعض الاعضاء من الكهول المعممين المسلمين المعادين لجمعية الاتحاد والترقى ولروح التجدد العثماني

وحيكت خيوط هذه الجمعية وفق الاهواء البريطانية فهى إذن قائمة على أساس مكافحة الوطنيين العثمانيين ولا تزال بقاياها حتى اليوم ثابتة على هذا الغرض

وفى سنة ١٩١١ تثبتت دعائم هذه الجمعية الرجعية وبواسطة دعوة قويةانتشرت فى سائر انحاء السلطنة أمكن ضم بعض الضباط العثمانيين اليها . وبواسطة هؤلاء الضباط تيسر اسقاط الوزارة الاتحاديه .

فى هذه المرة عاد كامل الى الصدارة أيضا وبعودته أخـذت السياسة الانجليزية تزداد مضادة وعداء للعثمانيين وكانت النتائج الاولى المباشرة للخطة العدائية الحديثة نشوب الحروب البلقانيـة

على أن هـذه الحرب التى أدت الى هزيمة العثمانيين كانت سببا فى تداعى اركان جمعية الائتلاف والحرية فاستولت جمعية الاتحاد والترقى من جديد على ازمة الشئون العثمانية .

وفى نوفمبر سـنة ١٩١٢ كان كامل بوّ السياسة الانجليزية (والبو هو جلد الحيوان الكامل المحشو بالقش وغيره) كما صار الداماد فريد فيما بعد بوّا انجليزيا ، وقد تمـكن من القبض على زعماء الاتحاديين وكان يريد محاكمتهم فأدى عمله هذا الذى يخالف روح الحرية اصطدامه مع الرأى العام العثماني وهو حادث لامثيل له من قبل . وهنا نجم عن هـذه الحالة ظهور الفكرة الوطنية فى مظهر متجسم محسوس . وبنـاء على ضغط انجلترا دعا كامل الدول الى ادخال اسطول دولي يرسو فى ميـاه الاستانة ثم اضطر بنـاء على

سخط الرأي العام ضده وهياجه عليه أن يتنازل نهائيـا عن السلطة التى كانت انجلترا قد اسندتها اليه

تعضيد المـانيا لتركيا فى سنة ١٩١٢

لقد حاول مؤتمر السفراء أن يصدر بعض قرارات مضادة لتركيا الا أن البارونفون مارشال سفير المانيا صرح علنا بان مثل هـذه الوسائل لافائدة منها . فـكان هـذا العمل منتهى المهارة والحـكمة فى اعادة نفوذ بلاده فى السلطنة العثمانية . لقد اظهر كامل جزعا شديدا واخذ يقول : « انى قد هرمت وأصبحت أيامي معدودة وأما انتم فلا تزالون غضاض الاهاب ومن الخسار أن تذهب دماؤكم سدى »

على أن مشروع السفراء قد تم الاتفاق عليـه على الرغم من الاحتجاج الوحيـد — هو الاحتجاج الالمـانى — الذى انتشر خبره بسرعةهائلة . فكان المارشال من وراء هذا الاحتجاج ذكر عاطر وسمعة مشهورة باعتباره صديقاحميما للعثمانيين البائسين

وعلى الرغم من وجود الاسطول الدولي فى مياه الاستانه فقد تم الانقلاب الجديد وسقطت وزارة كامل كما ذكرنا من قبل وبسقوطهاضاع النفوذ الانجليزى . واجتاح الهياج واليأس الوطنيان

المسئوليات على نفوس أحرار العثمانيين كل القوى المقاومة والمعارضة اجتياح السيل الجارف . وصار هـذا الظفر الذى أحرزه أحرار العثمانيين انتصارا عظيما للسياسية الالمانية التي عرفت بمفردها كيف ترضى عزة النفس العثمانيه

جوبن و برسلاو

في اغسطس سنـة ١٩١٤ كان كل سكان الاستانة المسلمين ينتظرون على أحر من الجمر تسليم المدرعتين الموصى عليهما في انجلترا.

وكان قد دفع ثمنهما مقدما بطريق الاكتتاب العام الذى حدث في البلاد العثمانيه وانهالت عليه الاموال من كل جانب . فقد دفع كل عثماني ماجادت به نفسه السمحاء من أغنى سرى الى أفقر عامل .

واشتعلت نيران الحرب الاوروبية ولم تشترك فيها الدولة العثمانية فى باديء الامر . غـير ان انجلترا رفضت أن تسلم هتين الباخرتين اللتين نفد الصبر في انتظارهما فعظم جزع الشعب العثماني الى درجة هائلة وأخذ يفكر في ماضيه فعرض له السؤال الآتى :

أولم يفقد هـذا الشعب الحربى النبيل اكاليل النصر فى الحروب البلقانية بسبب انحطاط قواته البحرية الى درجة هائله ؟

وعلى أثر هـذا العمل المستبشع ببضعة أيام دخلت المدرعتان

جوبن وبرسلاو البسفور وهما رافعتان الراية العثمانية وقد خط بأحرف من اللغة التركية فوقها هذه الجملة البليغة : « هدية من المانيا الى الدولة العثمانية التي مكرت بها انجلترا » وقال الذين شاهدوا هذا المنظر العجيب البديع ان العين لم تر فيما رأت من سائر الاشياء مثل منظر الطرب والذهول بل الجنون الذى استولى على الشعب فى ذلك الحين . لقد نجحت المانيا فى اعمالها وتوفقت الى الغرض الذى كانت ترمى اليه فما هي الاعشية وضحاها حتى صارت الدولة العثمانية حليفتها الامينة .

وبعد الهدنة عرضت المسألة نفسها مرة اخرى . فما عسى أن يكون موقف الحلفاء امام الدولة العثمانية فى هذه المرة أيضا ؟ لقد تقدمت انجلترا دول الحلفاء ورأت ان الساعة الحاضرة هى ساعة البت فى الامر ، ولكن أتراها ادركت ما كان يجرى اذ ذاك فى داخل البلاد العثمانية ؟ كلا . وانما كان همها أن تبحث لها عن عمل تستخدمه فى قضاء ماربها ، وكما وجدت فى عام ١٩٠٨ كاملا مستعدا لاجابة سؤلها فقد وجدت في هذه الآونة فريدا قابلا لتأدية نفس هذه المهمه

حامل التفويض الأنجليزي

لما اعتزمت انجلترا على ان تنفذ مقاصدها فى البلاد العثمانية

بحثت عن الشخص الذى يمكنها أن تفوض اليه تنفيذ هذه المقاصد فلم تجد من هو أوفق لها من ذلك الكهل المتربى فى حجر الرجعية وهو الداماد فريد فجاءت به ووضعته على رأس الوزارة لتحي به حزبها القديم الذى كانت قد عفت آثاره وانقطعت أخباره وهو حزب الائتلاف والحرية ذلك الحزب الذى اشتهر بمعارضته لكل ما يصدر من فتيان العثمانيين الاحرار فلما اخذ فريد هذا الحزب تحت كنفه وظلله بجناحي رعايته رأى ان لا يبقيه كحزب ظاهر بل يجعله بمثابة جمعية سرية يصح أن يطلق عليها اسم « اصدقاء انجلترا » وهذه الجمعية اخذت بالفعل تبث الدعوة بوسائل عديدة لاعتناق مذهبها .

وما كان الداماد فريد ممن لا يأخذون على انجلترا اهناتها واغلاطها بل كان يسردها وهو مستخف بها ولكنه مع ذلك كان من بقية ذلك العنصر المنقرض الذين تخلف فى قلوبهم حب انجلترا والخوف من بأسها . ولذلك فهو على حد الكلمات المنبعثه من فمه يعتبر انجلترا مع توالى اغلاطها « أقل ضررا من سواها »

وبما انه تلميذ قديم من تلاميذ اكسفورد ومتأثر أعظم التأثر بروح الاستعمار الانجليزى فلم يكن له بد من التمشى على الطريقة الانجليزية ومع ذلك فهذا مالم يمنعه من العناية بنشر الآداب

الفرنسوية وعلى الرغم من كونه رجلا قويم الاخلاق فقد قبل أن يضع نفسه تحت الوصاية الانجليزية وان يتقبل ماتمده به من الصلات المادية وكان يرى من المتعذر عليه أن يختط لنفسه خلاف هذه الخطه.

أما خصومه الوطنيون فقد آلوا على أنفسهم الا يستسلموا الى عوامل افسادالطويات . فكان الدامادفريد يستسخف بهم ويقول وهو يهز كتفه : « ما اجنهم ! » . وكان شأنه فى عمله شأن سيده وولي نعمته عبد الحميد فقد قبل سيادة انجلترا كما قبل ذلك سيادة المانيا .

ان الداماد فريد الموقع على معاهدة سيفر ذلك المنحوس المشؤوم لن يغتفر لفرنسا ما رمته به من المخجلات

وما عهد الناس من هو أسرع الى ايصال الاذى الى امته وبلاده من ذلك الحقود الذى تأكلت قلبه الاضغان الشخصيه التى يخلط بينها وبين مصالحه الخاصة ومصالح رفاقه . فهو يمقت اولئك الشبان الذين لا يصغون الى الرجال المتقدمين فى السن الذين يكون لهم سابق اتصال بعهد الاستبداد ويقول فى هذا المعرض : بدون تداخلى فى الاعمال وتدبيرى شئون المملكة لن يبقى اثر لهذه السلطنة » .

وهكذا كان يرتكب الداماد فريد نفس الغلطة الكبرى التى

كان مولاه عبد الحميد يرتكبها من قبل وهى فتح صدره لكل من يتظاهر له بالحب والولاء من غير أن يعرف حقيقة هذا التظاهر ولا الباعث اليه فيترامى فى حضن ذلك المتظاهر ويعتمد عليه ويتطلب عضده ، هذا ما يصل اليه مجهود فكره أما انه يتساءل فى نفسه الى أين تقود هذه المحبة وما مغبة هذا التعضيد ؟ فهذا ما لا يعرفه أو ما لا يخطر له على بال

الأجراء

لقد افتتح السلطان مع صهره الداماد فريد باسميهما قائمة اسماء الاجراء الذين تستخدمهم انجلترا وهى قائمة طويلة. ومع ذلك فكيفما كانت منزلة السلطان فى ذلك الحين فأنه كان يفقه الخطر الكامن فى التحرش بالعاطفة الوطنية العثمانية ولهذا لم يقاطع الزعيم العظيم ومع اعترافه بأنه المخاص الامين للانجليز فقد أبى ان يسمح بالاقتتال مع الاناضول

أن السياسة الانجليزية كانت تحقر بمحض ارادتها الرجال الذين تستعملهم فى اغراضها ومن هذا القبيل أن المصريين علموا من مدة وجيزة جدا بواسطة مصدر بريطاني مقدار المرتب الشهري الذى يتقاضاه اعظم رأس فى الاستانة وهو السلطان

وبواسطة الداماد فريد اخذت صحافة الاستانة المشتراة ثلاثة ارباعها تقوم بحملات شديدة جدا على فرنسا مالئة اعمدتها بتلك الجمل الموعز بها . وقد اعتنى بهذه المسألة جد العناية مدير ادارة الصحافة هنالك وهو ضابط انجليزي .

وكان يهرع المولا سعيد المعمم خطيب المساجد المسوحة بالمسحة الانجليزية فى قسم اسلامبول كل يوم الى القوميسارية البريطانية العليا ليتلقى الاوامر الموحاة اليه منها . وكذلك رفقى جواد المهيج الالد ضد كل ما هو ذى صبغة فرنسوية كان يتلقى الاوامر الصادرة اليه من تلك المصادر نفسها .

أن نجاح سعيد موللا ليس سوى نذير اخفاق لجمعية اصدقاء انجلترا بسرعة ، وذلك لان الواعظ الانجليزى فريو الذى قدم من انجلترا لاجل هذا الغرض خصيصا أخذ يعضده بجرأة واقدام من اول ابتدائه فى عمله . وما اعجبها من جمعية تتداخل فى كل شئون الصراع القائم فى تلك البلاد وهى تتلقى كل يوم المعلومات التى يجب عليها أن تعمل بموجبها من ذلك الجانب الذى يوزع كل يوم أوامره على الهيئات المختلفة التى تعمل باشارته . وهذه الجمعية أخذت تعد بواسطة عمالها الموسوسين فى صدور الناس المذابح التي أصيب بها المسيحيون والتى انما أريد القاء تبعتها على الوطنيين وهى مذابح

أضه بازار التي حدثت في اكتوبر سنة ١٩١٩ وقونيه التي حدثت في عامي ١٩٢٠ و ١٩٢١

أما أعضاء هذه الجمعية المشهورين فكانوا الاشخاص الآتية أسماؤهم :

مصطفى صبري النائب السابق والذى صار شيخ الاسلام ، والقائمقام صادق بك العامل الانجليزي الذى اشتغل بنشاط في مصر مدة الحرب والرجل الذى خلق جمعية الائتلاف والحرية ومحمدعلي ذلك المخاطر جوابة الآفاق الشهير وأخيراً العلم الاشهر الذى يعرفه كل انسان على كمال الذى لولاه لما تمكن الانجليز من القيام بعملهم التحكمي في الاستانة وكذلك كان يشترك في الجمعية المذكورة أو بالاحرى في الحزب المذكور الشهير عيوله الحبية لانجلترا والذى انما تكون ليعطي انجلترا تفويضا بادارة البلاد كل من زين العابدين شيخ قونيه الذى كان مبعوثا في البرلمان العثماني سنة ١٩٠٨ والخوجه وصفى المبعوث القديم والدكتور رضا توفيق « الفيلسوف المعلوم » وبقى هذا الحزب يشتغل للاغراض التي خلق لاجلها وهو يستمد مادة قوامه من المصادر المفهومة .

وفى سنتي ١٩١٩ و ١٩٢٠ بذل سعيد المو للا والواعظ فريو مجهودات مضاعفة للحصول على أعضاء جـدد وما هؤلاء الذين

يتسمون باسم أصدقاء الانجليز الا أعداء الفرنسويين وقد أبوا أن يلتزموا الحـدود المعينة لهم فتخطوها الى أمور استوجبت بعض الملامة والمؤاخـذة ولـكن العتاب لم يكن شديدا كما قد يتصوره الانسان . ومع ذلك فما أعجل ما اندرج فى مدارج النسيان !

ولا ننس ان هؤلاء المأجورين يتقاضون نفقات هائلة ولـكن الرصيد السري للقوميسارية العالية كان يتدفق من عين لا تنضب

الأنجليز فى بلاد الأكراد

فى بلاد الاكراد التى تعتبر مستودعا للرجال الذين يمكن استخدامهم فى اهم الامور وأشق الاعمـال انحدر ذوو الدسائس الاسيوية من رواد الانجليز ورواد الوطنيين العثمانيين ليتخذوا لهم انصارا من كل فريق بحسب ما أعد من الوسائل التى تجتذب الاكراد الذين اشتهروا باستئجار انفسهم لاي انسان ولاي عمل تلقاء أجر مرض ، وبالفعل وجد كلا الفريقين خيرة الاجناد فى تلك البلاد

ولا غرابة فى هـذا الامر فأن جريدة التيمس نشرت فى شهر نوفمبر سنة ١٩١٩ رسالة بعث بها اليها مندوبها الخاص قال فيها :

« أن الاكراد فى الشرق والاروام فى ازمير هما الفكان اللذان يحاول أن ينهش بهما الحزب الاستعمارى الانجليزى الدولة

العثمانية الى ان تستجير به وان تقبل الخنوع للسيادة الانجليزية كما رضخت من قبل للسيادة الالمانية . »

وكان الاكراد فى خلال الحرب قد ساء التفاهم بينهم وبين ضباطهم العثمانيين فغادروا صفوفهم وانثنوا الى قراهم ومنذ سنة ١٩١٥ لم يبرز فارس واحد من تلك البقاع لينضم الى الجيش . ومع ذلك فقد كان سرور العثمانيين عظيما لان هذه البقاع اكتسحها الروسيون الذين اوغلوا فى هذه النواحى فكان من وراء هذه الطامة ان عاد الارتباط بين الاكراد ودولتهم الى ما كان عليه من قبل . وفى ابريل سنة ١٩١٧ سقطت بغداد فى قبضة الانجليز ، فلفتت المسألة الكردية انظار البريطانيين الذين ارادوا ان يحتكوا بالاكراد ويجعلوا صلة بين الطرفين . وفى ديسمبر وصل الانجليز الى تلك الجهات ونشروا فيها شيئا من النظام والسكينة فابتهج الاهالى ولم تبد فداحة الحماية الانجليزية فى بادىء الامر وحسب الاكراد انهم سيدومون متمتعين باستقلالهم الذى حصلوا عليه بالعمل وان الانجليز سيحافظون على هـذا الاستقلال

الا ان الامور تحولت الى العكس فأن الاكراد بلغ منهم الاستياء اشده عند مارأوا بلادهم تستغرقها الحملة الانجليزية الحربية بسرعة وما يصحب الجيش الموغل فى كل بلد دائما من ضروب

الشدة والمصادرة والاضطهاد . فاضطر الانجليز حينئذ الى ان يتخلوا مؤقتا عن أماكنهم التي كانوا قد احتلوها بصفة وقتية الى العثمانيين. وان من أفضل ما امتاز به الاكراد قوة ثباتهم فى مواقف الدفاع العصيبة فقد أصبحت المدافعة هى الفن الوحيد الذى يجيدونه للغاية وانتهى امر الانجليز بالاخفاق فى تلك الاصقاع الوعرة فانثنوا قافلين عنها بالخيبة والندم وكان لهذا الفشل دوي هائل بين مسلمى البلاد الاسيوية

ما كاد يتم ابرام الهدنة مع العثمانيين حتى اسرع الانجليز الى الاخذ بالثار فاحتلوا الموصل . فلبث الاكراد ينتظرون ساعة مصابهم

وكانت انجلترا فى هذه الآونة غارقة فى حلم استعمارها الشرقي وبما انها حسبت نفسها ذات سيادة على البلاد الفارسية فلم تداخلها خلجة شك فى الاستيلاء على العراق وضم بلاد الاكراد اليها .

وكانت قد خطت فى هذا السبيل خطوات واسعة فأنشأت ادارة كردية وجيشاً كرديا وجعلت اللغة الرسمية للحكومة الكردية الجديدة اللسان الكردى .

واتخذت انجلترا من مدينة بغداد عاصمة لهذه الامبراطورية العظيمة التي تستغرق آسيا الصغري برمتها غير مستثنى منها سوى جزر ضئيلة تكاد تعتبر مستقلة ، ومن حسن حظها انلم يتم سقوطها

فى الشبكة الانجليزية الآ واحدة بعد واحدة .

وهكذا القت انجلترا شباكها على ارمينيا وجمهوريات القوقاز الصغيرة وجبال الكردستان وتركيا التى خارت قواها وعرب الحجاز واهالى دمشق والساحل السورى وهى تضاحكهم بالحكم الاداري الصوري الذى لايمكن ان يظل مدة طويلة آلة تغرير وتلاعب بعقول مجموع العناصر المنتشرة فى هذه الاقطار . ولكن من هى الخصيمة المزاحمة الواقفة لها بالمرصاد فى كل هذه الانحاء والتى تعرقل مساعيها الاستعمارية ؟ هى فرنسا بلاريب .

ان اتفاق سيكس — بيكو السرى الذى تقرر سنة ١٩١٦ كان يحرج المشروعات الاستعمارية الانجليزية « فمطالبنا فى الموصل » كانت تهيج اعصاب انجلترا الى النهاية القصوى وحقوقنا السورية كانت تغضب مكتب الادارة السياسية المدنية . ولا يسعنا الا ان نردد اننا كنا فى صراع مع الانجليز فى الاقطار المتعددة التى تتصادم فيها مصالح الطرفين المتناقضة لان الانجليز كانوا يغضون من امتداد نفوذنا السياسى وانتشار علومنا وآدابنا فى الاصقاع الشرقية

فكانت اعمالنا ومدارسنا منتشرة فى الموصل وهى تبث انوار العلوم والآداب بطريقة مثمرة باهرة . وكان يكفى الدومينيكيون ان يفتحوا ابواب هذه المدارس وان يقبل أبناء

البلاد على مدارسهم حتى يستولوا على قلوب الاهالى . وكانوا يطوفون فى كل مكان بدون ادلاء ولا حماة ولا اسلحة وهم يبتسمون كلما رأوا الضباط الانجليز فى اشد الاهتمام بالدفاع عن انفسهم .

وكان اهم مايسخط الانجليز ويحرجهم هو ذلك الخطأ الذى يرتكبه الفرنسويون باطلاعهم على الاعمال الاستبدادية التى يقترفها الانجليز فى تلك الانحاء وهى اعمال يمكن ان تصدر من شعوب اسيوية لاتزال غارقة في بحار الجهل والهمجية لا من دولة اوربية مستضيئة بانوار العلوم والمدنية

ومن سنة ١٩١٩ الى اواخر سنة ١٩٢٠ استطاعت انجلترا ان تتفق مع اكراد القسم الجنوبي من الكردستان أما اكراد القسم الشمالي فظلوا يقاومون وينازلون انجلترا في ميادين الصراع .

وابت انجلترا الا ان تحاول التغلب عليهم لتفتح سائر البلاد الكردية ولكن الاكراد الذين اشتهروا بشدة المراس والصبر على مكاره الدفاع والحصار صابروا الانجليز في ميادين القتال حتى تمكنوا اخيرا من اصابة الجيوش الانجليزية بهزيمتين فادحتين احداهما في الكردستان والاخرى فى خط سامسون طرابزون وهذه الهزيمة كان لها من التأثير فى نفوذ وسمعة الجيش الانجليزي واسلحته ماجعلها تعتبر فى مقام لايليق بما كان مشهورا عنها من

قيل اي ان الثقة بقوة انجلترا قد زالت من النفوس التي كانت تخشى بأسها . فكان يطلق على انجلترا المثل الذى ضربه الاتراك عنها بقولهم : « أن الاسد البريطاني يطارد قنفدا فى الجبال ولكنه فى أغلب الاوقات لا يرى له اثرا . »

وفى هذه الاثناء أعلن الاكراد بما عهد فيهم من البراعة والذكاء استقلالهم بموجب الحق الطبيعى الذى لهم فى بلادهم وهذا الاستقلال يشمل الكردستان المؤلفة من الولايات الاربع وان وبتليس وديار بكر وخربوط مع قسم صغير من ولاية الموصل يندمج فيه وادى خابور الاعلى وأماديا

ويمكن التساؤل عن كنه هذا الاستقلال وعن شكل الحكومة التى ستتولى ادارة البلاد المحررة والتفويض الذي بموجبه تدير شئون البلاد والجواب على ذلك هو ما كانت ترده انجلترا فى دوائرها السياسية إذ ذاك من أن الذي سيتولى حماية تركيا وأرمينيا والعراق هو الذي سيشرف أيضا على الكردستان

وكان اهتمام الدوائر الانجليزية بهذه الاسئلة والاجوبة عظيما جداً لان بلاد الكرد البادية الآن للانظار فى مظهر الاقفار والفقر يمكن اعتبارها من أغنى بلاد العالم اذا ما شرعت الايدي العاملة فى استخراج كنوزها الدفينة . ان هذه البلاد حافلة بالبترول وبالرصاص

والفحم وبأعظم مناجم النحاس فوق ظهر الكرة الارضية .

هنالك فى هذه الوعور والاوغال والوهاد والجبال وبين تلك القبائل والعشائر الحربيـة الجافية المتخاصمة المتكافحة على الدوام أخذت انجلترا تبحث عن منبع فياض من الرجال الاقوياء الذين تستطيع أن تجند منهم جيشا كثيفا تقاتل به الوطنيين العثمانيين الذين وقفوا فيوجهها وأقاموا قيامة العالم الاسلامي خاصة والشرق برمته تقريبا عام ضدها

ماذا يريدون فى لندرة ؟

فى خلال المدة التي كانت تعمل فيهاانجلترا على تنفيذ مآربهاالتى بسطنا شرحها بوجه الاجمال فيما تقـدم كانت السكينة والانتظار والحيرة والسأم والحرج ترفرف على معسكرنا . وكانت باريس تعارض فى القيام بأعمال عسكرية للتغلب على الصعاب والعقبات الناهضة فى الشرق ولا تندفع الى القيام بشىء من ذلك الا بدافع ضروري جدا .

وقد ظفرت هيئة المستطلعين الفرنسويين بمقادير عظيمة من المراسلات التى تكشف القناع عن التلاعب الانجليزي . ولـكن ماذا يهمّ من هذه المعلومات اذا كانت نتيجتها اهمالها والسكوت

على محتوياتها . إن باريس لا تريد أن تقرأ التقارير الضافية المرسلة اليها من عمالها المنبثين فى البلاد الاجنبية . الحياة قصيرة فى باريس ذات الملاهى العظيمة وهي أقصر بالنسبة لتلاوة التقارير السرية .

أما فى لنـدرة فالقوم على عكس ذلك فان موظفى وزراة المستعمرات يهتمون أشد الاهتمام بكل جزئيات وكليات الحوادث الجارية ويقفون على تفاصيلها فى أوقاتها غير تاركين شاردة أو واردة ممـا تتضمنه التقارير المرفوعـة اليهم . وكان همهم الأكبر التغلب على مقاومة العثمانيين . وماذا كانت تبتغي لندره من الاعمال لتنفيذ أغراضها فى الشرق وتثبيت أقدامها فيه ؟ كانت تبتغي الاحـداق بجانبي طريقها الى الهند واستعباد الخليفة العثماني الذى تعتبر أخذه تحت جناحيها الوسيلة الوحيـدة لاستتباب الأمر نهائيا فى الهند وفى مصر . وكانت تبتغى كذلك ضمانة توليها الشؤون الاقتصادية فى سائر أجزاء السلطنة القديمة ذات المصادر الاقتصادية الجسيمة . فكيان الجيش البريطاني متوقف حتى الآن وسيظل متوقفا فى المستقبل على حـل المسئلة العثمانية ولا سيما مسئلة الخلافة ومقرها أي القسطنطينية

فخطة وزارة الحربية الانجليزية قائمة الآن في تمزيق السلطنة العثمانيـة وعلى تشتيت النفوذ الفرنسوي وهو النفوذ الوحيـد ذو

القوة القادرة على الصلابة فى وجه الانجليز وعلى ذلك فأهم شيء لدى وزارة الحربية الانجليزية تسابق عمالها المحليين فى سائر الجهات المتفرقة الى تحقيق هاتين الامنيتين .

وامام تصميم انجلترا على تنفيذ هذين المقصدين وعدم مبالاتها بما يترتب على هذا التصميم من العواقب الوخيمة ستظل وزارة الخارجية مغمضة عينيها عن كل اعتبار سياسي كما ستظل وزارة الحربية منفذة رغائب الوزارة الاولى بكل ما أوتيت من حول وطول .

ولكن المسئلة لها وجه آخر فامام انجلترا وقوتها الهائلة ومساعيها العظيمة توجد قوة خصومها الوطنيين العثمانيين تلك القوة التى على الرغم من الغطرسة الانجليزية تزداد مقاومتها اشتداداً كل يوم عن اليوم السابق وتزداد دائرة هذه المقاومه اتساعا . وقد اصيبت مشروعات انجلترا الهائلة ضد الوطنيين العثمانيين بنكبات مؤلمة للدولة الانجليزية ومن هذه النكبات فشلها فى بلاد العجم والحملة الصحفية العثمانية التى تقوم بها الجرائد الفرنسوية لاجل مصلحة العثمانين والهزائم الانجليزية التي توالت في الكردستان .

أن العمل ضد فرنسان بطريقة جهرية تراها الابصار مما يستحيل تحقيقه. اذن لم يبقي على انجلترا الا أن تعمل فى حيز الخفاء

وفى مثل هذه الحالة تعرف كيف توحى بمهارة وتحوط الى عمالها في السر مايجب أن يقوموا به لتنفيذ خطتها السياسية . وهى تقتصر على التقليل من الالفاظ وتتجنب المخابرات الكتابية بقدر الامكان وتبسط يدها أوسع البسط . وعندها أن كل من ابتكر لها مشروعا أو أفضى اليها بسر غير معلوم يصيب مكانة عليا لديها وهذا هو البرنامج الذى تعتمد عليه

خطأ انجلترا الذي لا يصلح

أن انجلترا مخدوعة بطريقة لايمكن تلافيها . فانها حسبت أنها لاتستطيع أن تتغلب على الشرق وتوطن نفوذها فيه الا بمهاجمة قوتين عظيمتين احداهما تتألف من خلفاء أحرار العثمانيين الذين اصبحوا حملة أعلام الاسلام والقائمين بكلمته العليا والقوة الثانية هي النفوذ الفرنسوي المنتشر فى الشرق والذي اشتهر عنه فى كل زمان بانه رمز الحرية ونصيرها الاكبر الذى تقتدى به وتنسج على منواله سائر الشعوب التى تريد التخلص من ربقة الذل والاستعباد أو تحاول الظهور والارتقاء .

فمنذ أن ابرمت الهدنة انتشرت رجالنا فى سائر البلاد التي انتصر عليها حلفاؤنا فى الحرب الكبرى . ولم يكن انتشارهم مقصورا على

الشرق دون الغرب بل لقد عم سائر الانحاء فمن الروسيا الى المانيا الى السلطنة العثمانية وكان لهم ذلك الشأن الذي أدى الى تحمل الانجليز منهم بالعمل على ازالة نفوذهم للتخلص منه .

وكانت انجلترا تزعم انها ضحية سياستين متعارضتين كلتاهما قائمة بنفسها منفصلة عن الاخرى تمام الانفصال وهما سياسة وزارة الخارجية وسياسة وزارة الحربية وكانت الاولى منهما تتهم الاخرى وتلومها والثانية لاتصغى الى الاتهام والملام بل تبقى ماضية في عزيمتها مستمرة على تنفيذ اعمالها . ولكن هذه البراعة في التخلص من التبعات الملقاة على عاتقها لم تراع في السلطنة العثمانية التي انتهجت فيها السياسة الاستعمارية خطة التحكم الفظيع الذي لايجب ان نتغافل عن اثباته في هذا المقام فهي لم يكن لها سوى هم واحد وهو أن تصل الى غايتها بلا روية ولا رحمة . ولم تكن سياستها الاستعمارية الشديدة مقصورة على اضطهاد الوطنيين العثمانيين فقط بل كانت ترمي الى القضاء على كل نفوذ اوربى من البلاد العثمانية بامرها .

فما أعظم الاحقاد التى ولدتها هذه السياسة ! ومن أعجب العجائب ان انجلترا وهى تريد أن تكتسب ود سائر العناصر الاسلامية التي تحاول أن تدخل بلادها تحت النفوذ الاستعمارى البريطانى يذهب بها سوء سياستها الى التقرب من العناصر الشرقية

المعادية للعناصر الاسلامية وهذا التناقض العجيب جعلها تزداد كل يوم اقترابا من العناصر غير الاسلامية وابتعادا عن الاحتكاك بالعالم الاسلامي حتى صارت فى درجة عظيمة جداً من التنافر معه. وبالطبع ان بناء سياستها الاستعمارية ستتداعى أركانه على التوالى بفضل اثبارها العناصر المضادة للمسلمين على العناصر الاسلامية.

الوطنية العثمانية وفرنسا

لماذا تنتشر سمعة فرنسا وعلومها وآدابها فى كل مكان وتجد أمامها مباشرة تلك السياسة المضادة لها ؛ ذلك لانها تنشر مبدأ محبوبا لدى النفوس وهو التجرد من الغايات وهذا المبدأ يرتاح اليه الشبان الوطنيون. فان هؤلاء الشبان جعلوا مذهبهم الجملة الآتيه « كل انسان سيد فى بيته » وبما ان انجلترا متداخلة فى كل مكان فهى تلتقى فى كل مكان بفرنسا التى تنطبق أعمالها على ذلك المذهب واذا ماتلاقت هاتان الدولتان أو بالاحرى اذا ما تلاقى نفوذاهما في بقعة واحدة حدث التزاحم والتضاد

وقد اصبحت سيادتها فى الشرق هذه الايام مكتسية ثوب الجبروت والغطرسة وسياستها القاضية بعدم سلامة الشعوب والامم

اخذت تتجلى فى اوضح مظاهرها وكل انسان سواء أكان فى الاستانة او فى الاناضول يقول لك : « لقد كان مركزكم رفيعا جدا ونفوذكم متراميا الى ابعد امتداد على اثر ابرام الهدنة لانكم كنتم تحافظون على سلامة الشعوب وحرية الافراد واستقلال البلاد بدون ان تتطلبوا جزاء على ذلك . وبالمثل كان لفرنسا هنا من النفوذ ومن المحبة على اثر ما اصابها فى سنة ١٨٧٠ مالم يكن لسواها . فهل من اللازم ان نوضح فوق ما تقدم ان نفوذها وحبها ازداد بعد عهد الانتصار الاخير مراراً عديدة ؟

« ولكنكم ارتكبتم اغلاطا عظيمة فى الحال وهي اغلاط شكلية واغلاط سياسية فالمسيحيون يتهمونكم بمالأة المسلمين والمسلمون يرمونكم بعدم الاهتمام الا بمصالح المسحيين . فنحن جميعا نتساءل فيما بيننا : ما الذي اصابهم ياترى ؟ ومن اين جاءت لهم هذه الخطة المبهمة المشكوك فيها ؟ وهل انتم حقيقة مثلما يؤكد الانجليز قد اشتفت الحرب قواكم حتى انكم اصبحتم في حالة لا تمكنكم من مباشرة أى عمل كيفما كان نوعه ؟ »

ونحن يمكننا أن نجيب على هذا القول بان رجال حكومتنا سواءا كانت موافقة ام غير موافقة من الوجهة السياسية لا بدلهم من ان يراعوا فى كل مؤتمر يعقد شعور الرأي العام فى فرنسا .

ولولا فرنسا لغلبت الوطنية العثمانية على امرها منذ الساعة الاولى من ظهورها . أما وقد وجدت تنشيطا وعطفا عظيمين من جانب فرنسا فقد تقوت ووجدت من مقتضيات الاحوال مايساعدها على المقاومة والثبات فى وجه الاستعمار الانجليزى .

المضايقة السرية

في سنة ١٩٠٢ ترأس الوطنيون العثمانيون حركة الاستقلال التى لم تلبث أن عمت جميع الاقطار الاسيوية . وكانت الحركة الوطنية تحصر الاستانة وتضغط عليها من سائر الجوانب فلما جاء يوم ١٦ مارس المشهور لم يقلل شيئا من هذا الضغط . اذ فى كل ليلة يقع حادث جديد يذكر بوجود الايدى الضاغطة السرية . فقد نسف مستودع ذخائر وحدثت حريقة ذات شأن عظيم ثم تلت هاتين الحادثتين سلسلة من الاعمال التى يستحيل تلافيها قبل وقوعها . ومع تكرر هذه الحوادث الهائلة لم تتمكن السلطات المتحكمة فى الاستانة من اكتشاف الفاعلين

وارادت السلطة الانجليزية الا تحسب حسابا لهذه الاعمال الدالة على مقدرة الوطنيين . فتمادت في مجهوداتها الساحقة المدمرة ناسية أو متناسية ان قد حدث تطور عظيم فى آسيا وان قد استجد

فيها امر جـديد فى منهى الاهميـة . لقد لاح الوقت الذى لم تعد تستطيع فيه قبضة من الرجال أن تتغلب على الملايين من الخـلائق التى لها ولو بعض الثقة بنفسها والاعتداد بقوتها

لقد تأخرت انجلترا جدا فى ادراك ماتراكم حولها من الاعباء الهائلة التى سببتها اغلاطها العظيمة وسوء اعمالها الشنيعة . فقد نهض اليوم فى وجه انانيتها الهائلة جمهور عظيم من الشعوب الغضاب



الفصل الثالث

﴿ اليونانيون في أزمير ﴾

(هدير الرعد)

في الساعة ٢١ من يوم ١٤ مارس سنة ١٩١٩ أعلن الاميرال كالثورب قائد موقع أزمير بانه طبقا للمادةالسابعةمن اتفاق الهدنة يجب أن تكون حصون المدينة محتلة بجيوش الحلفاء . وبعد مضى ساعتين أى فى الساعه ٢٣ أرسل هذا الفيس اميرالمذكرةاخرى الى قائد الموقع يعلنه فيها بانه طبقا لقرار مؤتمر الصلح يجب أن تحتل الجنود اليونانية مدينة أزمير .

فكان هذا النبأ كهدير الرعد فى السكينة الشاملة وفى ابتداء انتعاش الحياة الاقتصاديه . ان أزمير وولاية ايدين قد اجتازتا مدة الحرب فى ظروف استثنائية اذ اتفق اليونانيون والمسلمون اتفاقاً صامتا بمنع الالمانيين من التداخل في شئون المدينة والولاية باستئصال كل الاسباب التي كان يمكن الالمانيون أن يتذرعوا بها . وعلى ذلك فما كادت الحرب تضع أوزارها ويتم ابرام الهدنة حتى أخذت الحياة العادية تجرى في مجاريها بأسهل طريقة وأتم نظام فى هذه الولاية المظيمة

ان القرار الخارق العادة الذى أصدرته الدول الكبرى — أو بالاحرى الذى أصدره المستر لويد جورج — قلب كيان كل شيء فى الولاية وفى المدينة . والعثمانيون المسلمون سكان أزمير الذين أقاموا البراهين الجلية على حكمتهم وترويهم اتحدوا على أن يقولوا في هذه الاوقات المصيبة : (نحن على استعداد لان نقبل باتفاقنا جميعا وجود الحلفاء في مدينتنا الى ان تنتهى الامور . أما ان يكون اليونانيون مفوضين من قبلهم لارهاقنا والتحكم فينا وأن يصبح رعايانا اسيادنا فان هذا بالتأكيد هو نهاية ما نستطيع صبرا عليه وخاتمة الوفاق بيننا وبينهم . نحن نعترف باننا ارتكبنا هفوة عظيمة فاذا كان لابد من عقابنا فليكن ذلك بمعرفة الدول الكبرى ونحن نتقبل هذا ولكننا لانقبل باى حالة من الاحوال الحكم اليونانى . فمن المستحيل ان نخضع لنير اليونانيين .)

من المؤكد انه لا يمكن الاعتقاد بامكان حدوث مثل هذا الخطأ الجسيم جداً وما ارتكابه الا افظع ضروب التحرش والمناجزة .

وكيف يتيسر لليونانيين ان يقوموا بهذا العمل الذي يمكن اعتباره فى منتهى الدقة ؟ بل ما هي وسائل الحكمة التى سيتخذها هؤلاء المحتلون الجدد لتوقى العبث وسوء التصرف عندما يشرعون فى الاستيلاء على المواقع التي عهد بها اليهم ؟

وقد حدث بالفعل ما انذر به الاميرال كالثورب اذ دخلت منياء أزمير فى يوم ١٥ مايو في الساعة السابعة صباحا المدرعتان افيروف وليمنوس تتبعهما عدة نقالات والقت مراسيها . وبدأت الجنود اليونانية تنزل من النقالات تحت قيادة الكولونيل زافيريوت . وهذه الجنود تتألف من ألاي افزون ومن الالايان الاربعين والخمسين من الجنود المشاة . وكانت قد تقدمتهم بعض فصائل من البحارة اليونانيين لتتأكد مما اذا كانت التعليمات التي اعطيت للقيادة العثمانية قد نفذت تماما وان الجنود العثمانيين موجودين في حالة التام وتجرد من الاسلحة فى ثكناتهم . ولم يكن من المسموح الا لرجال البوليس ان يبقوا فى مراكزهم فقط . على ان الانجليز كانوا قد احتلو من قبل المكاتب التلغرافية وكان الاميرال كالثورب قد اعلن ان المراكب الحربية التابعة للحلفاء ستحافظ على السكينة والأمن في جميع الخط الذى سيحتل .

ودقت الساعة الحادية عشر واذا بالجنود اليونانية وقوف على رصيف الميناء فما استقبلهم سوى السكون التام والصمت العميق . وكانوا يمتدون على شكل صف مستطيل ويندمج بينهم رجال العصابات (غير النظاميين) اليونانية المسلحة تسليحا قويا .

كل هذه المعلومات الاكيدة وما سيتلوها من التفاصيل

الحقيقة مستمدة من مذكرات ضباط فرنسويين رفيعي الدرجات

زيتو فنزيلوس !

هذا الصف يتقدمه علم يوناني كبير جداً بين صفين من الاروام يصيحون : زيتو فنزيلوس !! : (يحي فنزيلوس) وكان حامل العلم يلوح به ذات اليمين وذات الشمال . واشتد زحام المتظاهرين وأخذوا يختلطون بعضهم ببعض وأصواتهم تتمازج حتى لا يكاد يعرف منها شيء وساروا على هذه الوتيرة الى أن بلغوا الشكنة التي يوجد فيها معظم الجنود العثمانيين المحتجزين . وكانت عمارة الشكنة الغاصة بالجنود حافلة أيضا بعدد عظيم من الضباط وبالانفار المقترعين للالتحاق بالفيلق المعسكر في الولاية وكذلك ضباط الآلاي السادس والخمسين من الخيالة وسواهم من الضباط الآخرين الذين أسرعوا بالالتجاء الى هذه العمارة ليحتموا فيها اذا امكن أن يقال انها ستحميهم وكان مجيئهم اليها في منتهى السرعة طبقا للامر الذي نشر على عجل ولهذا فقد كان احتشادهم في فناء الشكنة بهيئة مختلطة وقد ساد بينهم الهرج وعلاهم الذهول .

وقد أسلموا سلاحهم بمحض اختيارهم سواء أكان ذلك لكي لا يستوجب قيام حركة شديدة تدعو اليها عزة النفس أم لمنع ماربما

يتهمون به من التهم الباطلة التي لا يمكن دفعها والتخلص من بطلانها في امثال هذا الموقف الحرج .

وأخذ هؤلاء الرجل العزل من السلاح ينكمشون بعضهم الى جانب بعض وعلى وجوههم آثار الهياج العصبي والغضب وقد اسفوا على اخلادهم الى السكينة وعدم قيامهم بواجب الدفاع الذى يقتضيه الشرف العسكري وان كان غير مجد .

ودوى فى ارجاء الثكنة صوت طلق من مسدس أطلقه أحد المهيجين الدساسين الاروام . وكان هذا الطلق المنتظر هو العلامة التى بموجبها اسرع فى الحال الجنود اليونانيون بالهجوم على الثكنة والاصطفاف ازاءها ثم اطلقت من المدافع طلقات تهليل وابتهاج فما لبثت المدافع الرشاشة اليونانية ان فتحت افواه نيرانها بالمثل فطارت مصاريع نوافذ الثكنة الزجاجية واكتسى فناء الثكنة بالجثث التى انتثرت على الارض فاخذ الجنود امام هذا المنظر الرهيب الفظيع يترامون نحو المبانى لكي يستتروا بها فوطأ بعضهم بعضا وازداد القتلى بهذا السبب واخيرا تمكن بعض الضباط من تهدئة روع المحصورين . الا ان احدهم اخذ يستجيش حميتهم فاعاروه اذانا صاغية فاخذ قطعة من القماش الابيض وخرج فى مقدمة الهائجين ولكنه بوغت باطراف الاسنه اليونانية ووقع على الارض شهيدا .

هنالك لم يسع القائد العثماني سوى الخروج فى دوره ليسكن هذه الفتنة ولـكن النيران لم تخمد الا ببطء شديد .

وفى خلال هذه الجلبات والفظائع وصلت الى القائد العثماني بعض الاوامر المتضمنة الاذن للضباط والجنود العثمانيـة بمغادرة الشكنة اذ سيصير انزالهم فى المراكب فى الحال فانتظم سائر الضباط والجنود فى صفوفهم وخـرجوا من الشكنة وقد صحبوا معهم كل اخوانهم الجرحى الذين يستطيعون أن يتحملوا وانيسيروا بمساعدة اخوانهم وما كادوا يخرجون من الشكنة حتى أحدق بهم الجنود اليونانية ورجال العصابات واختلطوا بهم وظلوا يلازمونهم حتى أوصلوهم الى الميناء .

وقد عمد المحرضون من الاروام المتعصبين الى اهاجة جمهور الاهالى اليونانيين فاندفعوا الى الاحتشاد من كل مكانوهم فى حالة هياج وتحمس عظيمين وعلى أثر هـذا التجمهر الهائـل بدأ غوغاء الاروام يسبون ويصخبون ويسيئون معامـلة الجنود العثمانين ثم ابتدأوا يجترحون الجرائم . وقداصيب الضباط العثمانيون بضربات شديدة بمؤخر البنادق وبأسنة الخناجر وقد فتشت جيوبهم ونهب كل ما كان معهم . وكان جذب المناديل وتمزيق الطرابيش ووطئها قدابالارض من افظع ما اصيب بههؤلاء الضباط بل والمسلمون الذين

وجـدوا فى الطرق وكانت هذه أكبر مسبة وأعظم اهانة لحقت بالسكان المسلمين

وطفق الضباط اليونانيون يصفقون للمعتدين وحينما أشرف الجمهور الرومي على التعب وبحت اصواته اقتصر على السب واللعن . واضطر الضباط العثمانيون الى السير على مهل ما بين صفين من المعتدين . وأخيرا وصل هذا الموكب المحزن بحالته السيئة الى رصيف الميناء . .

وبقي القتلى والجرحى مطروحـين على قوارع الطرق وليس من يرحمهم ويأخـذ بيدهم . وكانت طلقات الرصاص تتراسل على الاحياء من الجرحى الذين يلفظون أنفاسهم الاخيرة وهي صادرة من الباخرة البحرية (بتريس) ومن الدسافات اليونانية ومن مصرف الاناضول اليوناني ومن البيوت المجاورة .

وكان البحارة الاروام يتفكهون بالتصويب على الضباط العثمانين وقد سقط أكثر من ثلاثين ضابطا على الارض صرعى على مرأى من الباخرة التي ستقلهم أما البقية الباقية من الضباط الاحياء فقد وصـلو الى الباخرة وهم فى اسوأ حال سواء أمن جهة ملابسهم أم من جهة الاصابات المتعددة في اجسادهم تشيعهم اللعنات والشتائم الفظيعة وقد أنزلوا في قاع السفينة مع الحيوانات

هكذا حدثت مقدمات الاحتلال الرومي لأزمير . وكما بينا

فيما مضى هذه التفاصيل الموجزة ملتقطة من مذكرات ضباطنا الذين شاهدوا هذه الحوادث التي لا يمكن لغمها وهم في اشد حالات التهيج وانفعال النفس وما هي الا حوادث ستتخطى عواقبها كل حد التخمين وستجر اشد الويلات والبلاء

التعمية

لقد يتبادر الى الذهن هذا السؤال وهو لماذا لم يحرك مسلمو الولاية وازمير ساكنا ازاء هذه الفظائع التي لا يمكن السكوت عنها ؟

والجواب على هذا السؤال يتلخص في البيان الوجيز الآتي وهو : انه قبل حدوث هذا الاحتلال الفجائي بايام قلائل قدمت بعثة من القصر السلطاني موفدة من قبل السلطان خاصه لتطمئن الاهالي ولتقول لهم ان الاحتلال سيكون بلا شك مؤقتا وانه ينبغي الابتعاد عن كل مايؤدي الى اراقة الدماء كيفما كان هذا العمل عسيرا ولا تتحمله النفوس . وقد كلفت حكومة الاستانة والى الولاية بتجنب كل مقاومة مسلحة وبهذه الطريقة اتيح للاروام ان يحتلوا ازمير بدون ان يصادفوا مقاومة تقف اعتداءهم . وعلى ذلك لم يبدأ الصراع بين الطرفين الا بعد الاحتلال وذلك عقب المذابح

وحوادث النهب والاعتداء التي اقترفها الاروام الاجانب وأهالي البلاد

اتجاه الانظار نحو فرنسا

منذ ١٦ مايو حدثت بعض حوادث التهييج والانفعال في الاستانة أدت الى استقالة الوزارة واحتج الصدر الاعظم لدى مندوبي الدول العاليين . وفي يوم ١٧ مايو وصلت التفاصيل الاولى المتضمنة حوادث القتل والنهب وضروب الاعتداءات المتعددة . فوضعت الرقابة بأشدها على الصحف الا ان الرسائل البرقية تنقلت بين الاكف فاحدثت تأثيرا شديداً جداً في قسم اسلامبول وفي عشرين مايو نزل الى أرصفة الاستانة الشهود الاول الذين قصوا ماراأوا وما سمعوا وكلهم كانوا ممن حضروا فاجعة الاحتلال وجرحت قلوبهم بما ترتب عليه من الامور الوحشيه ذلك الاحتلال الذي دامت مدة فظائعه أربعة وعشرين ساعه بدون أي تداخل من قبل الحلفاء . وقد جاء تلغراف رسمي من قبل القائد العثماني رئيس الفيلق السابع عشر يؤكد كل التفاصيل التي قصها شهود العيان . فاستولى الحزن العميق على نفوس سائر مسلمي الاستانة وكذلك اروامها ادركهم جزع شديد خوفاً من العواقب التي تترتب

على وصول هذه الانباء . فقامت فى قسم اسلامبول قائمة الاحتجاجات والمظاهرات وتتابعت بدرجة مدهشة . ولا يمكن تصوير منظر ذلك القسم اذ ذاك الا فى هيئة مأتم وطني عام ولكنه خال من حوادث العنف والاعتداء . لقد التزمت الدوائر العثمانية خطة التروى الخليقة بكل احترام وانما ارادت بهذا الوقار من غير ادني شك ان لا تجعل لخصومها مجالا للتقول عارفة حق المعرفة بان أقل بادرة من الغضب تؤدى حتما الى جلب عواقب لا تحمد والى خلق وشايات فظيعة لا تنطبق على الحقيقة ولا يراعى فيها عواطف المسلمين نحو اخوانهم والتاثير الفظيع الذى احدثته الانباء الهائلة الواصلة الى مسامعهم .

ولبثت الانظار مدة عدة ايام تتلفت نحو فرنسا منتظرة ما ستنطق به هذه الدولة وما ستتخذه من الاجراءات ولكن النتيجة كانت موجبة للاسف الشديد . فقد خابت الآمال وظلت فرنسا المنتظر حنانها وتعضيدها ملتزمة جانب الصمت أو بالاحرى بكماء خرساء

اذن نريد الانجليز

وقف اللورد كرزون وخلفه وفد مسلمى الهند يحتجون •

وحينئذ اخذت الصحافة الشرقيه تفتح صدرها ترحيبا بانجلترا : (نحن نريد الانجليز .) هذاما كانت ترددهالصحف الشرقيةفاخذت القوائم تنتشر بين الاهالي بقصد التوقيع عليها لاجل طلب الحماية الانجليزية وتقوى اذ ذاك ضلع جمعية اصدقاء انجلترا ويظهر انهذا الحزب الاستعماري قدافلح فى دسيسته . فانالدعوة التى طافت انحاء الاستانة اذ ذاك احدثت تأثيرا في السواد الاعظم من الاهالي .

اما فى ازمير فبعد انقضاء ثمان واربعين ساعة في النهب وكل ضروب الاعتساف ساد شيء من الهدوء والسكينة على المدينة الا ان الهياج بدأ ينتشر رويدا رويدا فى سائر ارجاء الولاية .

لقد خط يراع احد الضباط الفرنسويين البنان الآتى : (ان احصاء حوادث الاعتداء التي ارتكبها الاروام عند دخولهم ازمير تدل على قتل ثلثمائة عثمانى وعلى جرح ستمائة منهم . وقددفع الهياج والطيش اللذان تغلبا على عقول الاروام اذ ذاك الى انيقتلوا خمسة عشر نفسا من اخوانهم فى الدين والجنسيه لا لعلة سوى انهم بصفتهم موظفين كانوا واضعين الطرابيش على رؤسهم فلم يتبينوا حقيقة امرهم وفتكوا بهم على اعتبار انهم مسلمون . وكذلك دفعهم تعصبهم المذموم على انيذبحوا رئيس محطة السكة الحديدالفرنسوية وموظفين ايطاليين واحد الرعايا الانجليز واخذ المتجمهرون من

الاروام على رصيف المنياء يسبون بالخش الالفاظ النساء المسلمات اللواتى هرعن من كل حدب وصوب ليتعرفن انباء ازواجهن واخوتهن وابنائهن . ولم يكتفوا بسبهن بل مزقوا حجبهن واعتدوا على حرماتهن . وكانت الطرق غاصة بمنظر سائر انواع الجرائم وكل ضروب السفالات والموبقات المخزيات .

الا ان مارس إله الحرب تراجع امام المريخ إله الحكم فقد تولى امر منع الجمهور من التمادى فى غيه وطغيانه افراد من اليونانيين وقادوا فصائل تمنع كل رجل خطر يعتدى على المارة ويقترف الفحش الآثام .

وزاد هذا الضابط فى كتابته عن حوادث ازمير ماياتى :

(ان حوادث ازمير قد اظهرت ان اليوناني حسب ماعرفته احدى الجرائد العثمانية ليس فقط غير كفء لان يفوض اليه ادارة اي بلد آخر بل هو فى اشد الحاجة الى ان يخضع للمراقبة العتيده)

وان هذا البيان لخير شرح للحالة التي حدثت هنالك

ولكن هل يستطيع الاروام ان يغضوا من غلوائهم وان يكبحوا اجماح نفوسهم ويظهروا للملأ انهم لم يقدموا على ما اقترفوه الا بدافع الحماسة الذى تغلب على عقولهم ازاء ذلك الانتصار العظيم والفتح المبين ؟

كلا فان الحوادث التي تعاقبت فيما بعد فى منيمن وفى آيدين ، تؤكد أن اليونانيين غير أكفاء لان يحكموا العقل وأن يتغلبوا على طيشهم وتهورهم وسوء تصرفهم وكثرة اعتداءاتهم . فاذا كان الهدوء قد عاد الى ازمير فما ذلك الا لأن الحلفاء كانوا قد حركوا شفاههم فصدرت أحكام عاجلة على اناس من المعتدين . ولكن هذه الاحكام التي حدثت فى أزمير وهدأت الحالة فيها لم يكن لها اقل تأثير فى الداخل اذ بدأ أروام البلاد الداخلة يعمدون الى ارتكاب اعمال وحشية هائلة دامت اياما وليالي متعددة دون أن يوجه الحلفاء اليها أدنى اهتمام حتى عيل صبر الاهالى المسلمين ورأوا أنهم أصبحوا هدف المصائب والأهوال التي لاخلاص لهم منها اذا ظلوا ملتزمين جانب التؤدة والسكينة فعمدوا الى تأليف العصابات المسلحة التي انبثت فى كل مكان لتقابل الشر بمثله عملا بذلك المبدإ القائل العين بالعين والسن بالسن . وتولى تنظيم هذه العصابات وقيادتها زعماء من خيرة الوطنيين العثمانيين .

العين بالعين والسن بالسن

لقد بدأت الحرب الحقيقية فأصبحت ولاية أزمير ساحة قتال تلتهمها نيران المعارك من سائر الجهات . وكانت الجنود النظامية

اليونانية كلما هزمهم القرويون البسطاء يعمدون الى الانتقام لانفسهم من كل من يقع فى قبضة أيديهم . ولكنهم تعلموا الكذب والاختلاق على حساب هذه الاعمال الوحشية التي كانوا يقترفونها فقد أخذوا يذيعون الانباء والاحصاءات الكاذبة . وعلى كل حال فان مسلمى هذه الولاية الذين يبلغون ثلثى سكانها قاطبة حملوا السلاح وصمموا على التفانى فى الدفاع عن أرواحهم وحريتهم واستقلالهم . وقد تعلم الجنود اليونانيون من التجارب التي يتلقونها يوميا كيف تكون قوة اندفاع الصادق

وقد صار تبادل مدينة آيدين عدة مرار بين الطرفين ذخيرا أحرقها اليونانيون ولن يمضي عليها غير قليل من الزمن حتى تصبح دمنا عافية او بالاحرى تلالاً من الانقاض .

وكذلك تبادل فريقا الاهالي من المسلمين والمسيحيين حوادث القتل والنهب حتى ادركهما جميعا من المضار والآلام ما اشتف قواهما معا .

ان الاختلال سيعم الاناضول بأسره . والاهالى المسلمون الذين احرجت نفوسهم هذه الحالة الشاذة لابد لهم من الانضمام الى رجال الحركة الوطنية الذين سينظمونهم بواسطة الضباط النظاميين فى شكل عصابات قوية حسنة الترتيب وستكون هذه العصابات خير قوة يستعين بها الوطنيون على انهاك القوى اليونانية .

وهذه العصابات لن تعتدي الاّ على اعدائها الحقيقيين الذين تولدت العدواة والبغضاء فى قلوبها عليهم أما غير اولئك الاعداء فلا تمسهم بسوء ومثال ذلك الضباط الفرنسيون الذين يروحون ويغدون فى الاماكن الدائرة فيها رحى الحرب بدون ان يمسهم اذى من قبل الوطنيين العثمانيين بل يجدون منها كل عطف ومراعاة . واذا مارأى احد الضباط الوطنيين فرنسويا استقبله بالحفاوة وأخذه الى مكانه الخاص وعامله بالكرم المشهور عن العثمانيين خاصة والعناصر الشرقية عامة وعندما يختلى هؤلاء الوطنيون بالفرنسويين الذين يستضيفونهم يشرحون لهم حقوقهم المشروعة وعدل مطالبهم ويفندون مزاعم وأباطيل الانجليز واليونانيين وما ينسبونه اليهم من الوشايات التى هي أحق بهم

الاسباب المعقولة لهذا التدبير

وهكذا اقدمت اوروبا او بالاحرى انجلترا على اقتراف الغلطتين الجوهريتين الآتى ذكرهما فى بحر ستة أشهر فمكنت بهما الوطنيين من تنظيم المقاومة التى لايمكن التغلب عليها فيما بعد وهاتان الغلطتان هما :

الاولى ابرام هدنة غير محكمة بمنتهي مايمكن من السرعة

تقضى بترك الجيش العثماني سليما ومسلحا تسليحاً تاما . الثانية اثارة الهياج اليونانى الذى باصطدامه بخصوم قادرين على مقابلة الشر بالشر أدى الى نشوب الحرب

وعلى ذلك يرى ان هذين العملين المتواليين من جملة الاسباب المعقولة التي انما يراد بها تدمير الدولة العثمانية وهى الاسباب التى إمامن قبيل المصادفة واما لسوء الاستعمال لم تؤدأولم تكف لتحقيق الاغراض المطلوبة منها

شهود العيان فى حوادث مينمن

هـذه ثلاث أدلة تختص بحوادث مينيمن وايدين لانزاع ولا جـدال فى قوتها الثابتة ــ وقد جمعتها سلطاتنا العسكرية ــ وهى توضح الحالة بجلاء كاف للوقوف على دخائلها :

فأما الشاهد الاول فهو صفر افنـدى الشركسي التاجر فى مينمن وقد كان من جهة شاهد عيان ومن اخرى معتدى عليـه وشهادته تتلخص فيما يلى .

فى يوم الاحـد ١٥ يونيه سنة ٩١٩ بعد الظهر رأى جمهوراً كبيراً يحتشد فى شارع السوق التركي فخرج من مخزنه واستعلم عن السبب فى ذلك فرأى موكبـا طويلا يترأسه اعيان الاروام

المتوطنين مينمن . وقد ذكر أسماءهم . وكان هـذا الموكب مؤلفا من اناس من اليونانيين العثمانيين الذين يتبعون طابوراًيونانياًيتقدمه قائده ممتطيا صهوة جواده ومحاطابالاروام الذين يصيحون ويهتفون: زيتوفنزيلوس ! واخترق الموكب هـذا السوق وهو يصخب ويرسل الفاظ التهديد والوعيد واستمر منسابا فى طريقه حتى بلغ برجام .

وفى اليوم التالى أى فى يوم ١٦ يونيه حوالى الساعة العاشرة مساء وصلت الجنود اليونانيـة التى كانت قد احتلت برجام الى مينيمن فارة امام العصابات الاسلاميـة التى اصابتهم بشر هزيمة وكان دخولهم مينمن مصحوبا بجرحاهم العديدين . فوضعوا مدافع رشاشة فى الحصون القديمة وأعدوها للدفاع .

وفى اليوم التالي صباحا قاموا ابجوبة فى القرى المحيطة وفي مينمن وارتكبوا شيئا كثيرا من حوادث النهب والسرقة والاعتداء .

وقد هوجم السوق التركي واطلق الرصاص جهرة على كل مسلم كان يمر من هذا السوق . واما المدافع الرشاشة التي وضعت فى الحصون فقد اكتسحت المدينة بقذوفاتها المتماطرة . وقد ذبح القائمقام ورجال الجندرمة العثمانيين فى دار الحكومة . واخيرا وصل ممثلا انجلترا وفرنسا من ازمير وتمكن صفر افندي الذي كان رأسه

لا يزال فوق جسده من ان يقابل هذين المندوبين بعد ان دفعه الاروام عدة مرار وحاولوا الحيلولة بينه وبينهما فعرض شهادته بالتفصيل وسرد اسماء القتلى الذين ذهبوا ضحايا الهمجية والتعصب فى حيه .

وفي الايام الثالثة التي حدثت فيها هذه المصائب بلغ عددقتلى المدينة ثلثمائة وكانقد خرج للحصاد ولاشغالالمزارع سبعمائةعامل فلم يعد منهم واحد وقد اخذت سائر اموال وجواهر تجار مينمن المسلمين وكـذلك نهبت سائر بيوت الاهالي المسلمين . وكتب الشاويش الفرنسوي بيتو من البلوك السادس منفصائلالسكك الحديديه وناظر بريدفى مينمنالى ضابطه بتاريخ ٢٥ يونيو مايأتى :

(بسبب كل الحوادث التى تتابعت هنا ومن جهة اخرى بالنظر لتألمي الشديد ولعدم وجود احد يساعدنى هنا فانى اطلب منك نقلي وارسالي الى اية جهة اخرى لا يوجد فيها اروام . اما الحياة هنا فلايمكن تحملها . وفى كل يوم اضطر الى الركض ذاتاليمين وذات الشمال لطرد الاروام الذين يريدون اقتحام المحطة سواء رجالة او خيالة وهم مسلحون او غير مسلحين وفى غالب الاحيان يرفضون الخضوع لتعليمات السلطةالعسكرية الفرنسوية ولايتنازلون عن غيهم الا بعد انذارهم عدة مرار وزيادة عن ذلك فان قلبي مفعم

باشد الاسى من جراء ما رأيت وما سمعت هنا ومن هذا القبيل ماحدث بالامس من أن الجنود اليونانية فى اثناء عودتها من برجام نصبت خارج نطاق السكة الحديدية اسواقا فى الخلاء واخذت تعرض للبيع الاشياء المنهوبة من ملابس الى فضيات الى جواهر فاحذية وهلم جرا . وهم يزعمون جهرة بانهم مزودون بالامر من الحكومة الانجليزية بقتل الاتراك الذين يصادفونهم وان يكسوا ويزودوا بالسلاح كل الجنود الفرنسويين الذين ينضمون الى جانب الاروام لمحاربة الاتراك وانهم مستعدون لان يعيدوا علائقهم مع فرنسا متى ارادت ان تصادقهم

آيدين

ان غضب واشمئزاز الشاويش بيشو يشاركه فيهما كثيرون من الضباط الفرنسويين . وأما من جهة حوادث ايدين فلا يمكن الالمام بها اتم مما يمكن اذا قرىء التقرير الذى كتبته الاخت ماريا احدى بنات جمعية الاحسان التي تتبعت هـذه الحوادث بمنتهى الدقة ونحن نجتزىء بشذرات مما كتبته :

يوم الثلاثاء ٢٤ يونيه — نشر العثمانيون المسلمون انذارا نهائيا على الاروام يدعونهم فيه بمغادرة ايدين قبل يوم ٣ يوليه .

وبعد الظهر تقدمت فصيلة الى جنوب المدينة فهاجمتها شرذمة من غير النظاميين وظل تبادل الرصاص مسموعاً مدة ساعتين وفى الساعة الثامنة مساء عاد الجنود الاروام الى المدينة بعد ان اشعلوا النيران فى قرية امي حيث كانوا متحصنين بها . وكان الجنود يحملون على اطراف اسنتهم الغنيمة التى حصلوا عليها فى حوادث السلب والنهب وقد استقبلهم مواطنوهم بالتهليل والتصفيق كأنما هم عائدون من افتتاح العالم بأسره .

يوم السبت ٢٨ يونيه — خرجت فصيلة اخرى رومية قاصدة التجول والاغارة على الجهة نفسها . وحوالى الساعة الحادية عشرة صباحا ابتدأ تبادل اطلاق الرصاص واستمر بشدة بقية اليوم كله . وقد وضع الاروام مدافع رشاشة فوق بيوت الحي الاسرائيلى وأخذوا يطلقونها على الاحياء الاسلامية التي ابتدأت تلتهمها النيران . وحاول المسلمون أن يلوذوا بأذيال الفرار الا انهم اجبروا على الاحتباس فى بيوت تلتهمها السلمية اللهيب اذ دفعوا اليها ألسنة ليتمكنوا من نهب بيوت أولئك المساكين فى أمان واطمئنان وقد ذبح كثيرون من هؤلاء البائسين . وفى الساعة السادسة مساء تقريبا أقبلت الينا عدة اسرات مسلمات تلتمس منا مأوى تلوذ به . وظلت الحرائق ملتهبة طول الليل وهي تمتد من مكان الى آخر

بحالة مفزعة . على أن هذه الحرائق لم تقتصر على التهام الاحياء الاسلامية بل تخطتها الى الاحياء المسيحية . وقد ذبح الاروام المسلمين الذين ظفروا بهم على قوارع الطرق من غير ما تحاش ولا مرحمة .

يوم الاحد ٢٩ يونيه — لم تنقطع أصوات البنادق فقد كانت الطلقات تتراسل من سائر الجهات . وقد استعمل الاروام مدافع من ذات المرمى القصير لم تستطع مقذوفاتها ان تصل الى المعسكر التركي . وأما من خط الاتراك فقد كان الامر على العكس اذ كانت تتهاطل قذائف قوية تذهب الى مرمى بعيد وأخذت هذه القنابل تمر فوق ملجأنا طول النهار . وفي الساعة السابعة مساء كان حي الاسرائيليين قد احترق تماما ولم يبق منه أثر فأحضر الينا الاروام أكثر من ستمائة لاجىء . والضابط الذى كان يقودهم الينا والذى أظهرنا له دهشتنا من هذا العدد العظيم قال لنا : (وماذا تريدين ياأختاه اننا ننقذهم من النيران التى تكاد تلتهمهم جميعا ...)

... وأخذ الجيش الرومي ينسحب ذابحا ومحرقا كل ما فى طريقه وكان الكولونيل اليونانى الذى يقود الجنود بعد دائما بحماية مواطنيه الذين يرتكبون الفظائع والاثام عندما تخلى الجنود الرومية هذه

المدينة . وبناء على ذلك فان قسما كبيرا من الاروام عندما علموا بان الجنود الرومية ستنسحب اسرعوا بالركض في منتصف الليل الى اكام متزال محاولين اللحاق بالجيش الا ان الجنود حينما رأوا هؤلاء اللاحقين بهم كثيرى العدد لم يقبل منهم سوى اثنين او ثلاثة من السادة الاروام دافعين فى ظهور الجمهور باطراف الاسنة حتى انزلوهم من قمم الاكام . فانحدر هؤلاء القوم وهم متعبون ومصابون بجراح من اطراف الاسنة واقبلوا الينا مسرعين يلتمسون منا الاحتماء فى ظل الراية الفرنسوية بعد أن خذلتهم الراية اليونانية التي كانوا يستعزون بها ويعتمدون عليها من قبل

وبعد أن غادر الجنود النظاميون الاروام مدينة آيدين وابتعدوا عنها اخذوا يرسلون علينا صيبا من نيران مدافعهم المتوسطة والمدافع الرشاشة أما المتطوعون غير النظاميين من الاروام فقد عادوا واجمين وقلوبهم دامية من أثر مافعله بهم اخوانهم فى الدين والجنسية . وقد وجدوا على أثر عودتهم احياءهم مفترشة بجثث اقاربهم واصحابهم وقد صارت هذه الاحياء اكواما من الانقاض المتداعية . . .

. . . واذا كان الاتراك قد ارتكبوا بعض الفظائع فما ذلك الا لأنهم رأوا باعينهم مافعله الاروام اثناء احتلالهم بلدا لاحق

لهم من الوجهة الشرعية فى احتلاله . ولقد كان اليونان يعلمون — الاتراك هم الذين اعلموهم ذلك — بانهم اذا جاءوا الى آيدين فان الاتراك سيذبحون على أثر ذلك بقدر ماسيحدث فى المدينة من قتل . وزيادة على ذلك فاننا نقول للذين تؤلمهم ضمائرهم باعتبار انهم متمدينون أن اليونانيين قد ارتكبوا من ضروب التوحش والهمجية مع اعدائهم ماتقشعر له الاجساد وان مافعله اعداؤهم معهم لايكاد يذكر فى جانب مافعلوه هم . وعلى هؤلاء المتوحشين يرجع القسم الاعظم من المسئولية فى ذبح الالوف من الخلائق البشرية والتمثيل بها فى آيدين وكذلك تقع عليهم تبعة الحرائق الهائلة التى كانوا أول من اشعل ضرامها . »

في سبيل السلام

إن ماقام به العثمانيون المسلمون فى ساعات هياجهم وغضبهم الاولى وخوفهم على حريتهم واستقلالهم قد قال لهم الاروام . المثل مثلين وأكثر ولكن لامن قبيل الدفاع عن أنفسهم وحريتهم واستقلالهم بل بادعائهم انهم موكلين من قبل المدنية الاوربية التى أرادت أن تنشر السلام فى ربوع الشرق فكان عملها هذا سبباً فى انتشار الخصام . والاهوال فى تلك الربوع . وان هذا العمل

الذى لا يمكن أن يزول اثره من البال لن يغتفر للذين أوحوا به وهم يحسبون انهم ينشرون السكينة والطمأنينة فى كل مكان . ومن العجيب ان دولتين عظيمتين من كبريات دول العالم وأعلمهن بسياسة الشعوب واطوار الامم تخطئان مثل ذلك الخطأ الجسيم فتسند الى شعب منحط كالشعب اليونانى مهمة بث السلام فى بلاد واسعة الارجاء حافلة بعناصر قوية المراس لها سابقة فى المدنية والحضارة والرقي والسؤدد مع أن العنصر اليونانى الذى اعتمدت عليه تلكما الدولتان العظيمتان ليست له مدنية تذكر فى الاعصر الاخيره ولا هو بقادر على القيام باعباء مثل هذه المهمة الجسيمة فضلا عما يوجد بينه وبين العناصر التى عهد اليه أمر تسكينها وادارة شئونها من العداء الذى لا يزول

الارقام تتكلم

ان نتائج هذا الشطط لابد من ان تصير عظيمة .

ان كل المجهودات التى بذلتها الدعوة اليونانية لاجل توطيد حقوقها الشرعية على أزمير وولايتها تتداعى أركانها أمام الحقيقة الناصعة .

إن المملكة اليونانيه القديمه كانت قد اتخذت من أزمير مستعمرة لها جاعلة رعاياها تحت السيادة اليونانية وهؤلاء الرعايا

اعتنقوا الديانة الاسلامية قبل أن يسود الحكم العثماني على أزمير ثم لما انتشر الحكم العثماني فى البقاع المجاورة لازمير أنضمت هذه الجهة بمحض ارادتها الى السلطنة العثمانية . واذا كانت القسطنطينية قد سقطت فى أيدى العثمانيين من طريق الفتح فان ازمير لم تكن كذلك بل هي التى تقدمت بمحض ارادتها وانضمت الى كيان الدولة العثمانية وهـذا هو الفرق العظيم بين أزمير والاستانة من الوجهة التاريخيه

واذا تخطينا النقطة التاريخية منتقدين الى النقطة الاحصائية فاننا نجد أن ازمير وولاية آيدين تقطنها أغلبية عظمى من الاهالى المسلمين وكل سكان الارياف اتراك مسلمون بحت وهذه بعض الارقام التى تحصلت عليها ادارة استعلامات جيش الشرق فى يونيه سنة ١٩١٩ :

فى ولاية ايديا . . ١٨١٤٨ عثماني مسلم و ٣٠٠٥٩٠ من الاروام .

وفى قضاء ازمير ٥٩٤ مدرسة عثمانية مسلمة و ٤٥٠٠٠ تلميذ مسلم و ١١٠ مدرسة رومية و ٩٠٨٠ تلميذ رومي و ١٣٠ مسجدا و ٦٥ كنيسة رومية أو ارمنية .

ويوجد فى ولاية ايدين ٥٠٨ مساجد كبرى و ٢٧١ مسجداً صغيراً و ٤٨ مدرسة اسلامية و ١٦٩ كنيسة رومية أو أرمنية

كراهة الاروام

هذه هى الاغلبية الاسلامية الماحقة فى مدينة أزمير وولاية أيدين ومنها يستدل على أن هـذه الاغلبية لايمكنها أن تقابل أى سلط عليها بدون أن تحرك ساكنا أو تبـدى مقاومة . ولاجل التوصـل الى اعادة وضع اليد على هذه الولاية والى إنشاء اليونان الـكبرى ثانيـة كان من الواجب استعمال براعة فائقة وتلطف مع الشعب المحتـل وهـذان الامران لاينتظر من الشعب اليونانى ان يتحلى بهما لانه مع الاسف الشديد مجرد من كل الخصائص السياسية اللازمة للامم العظيمة التي تريد أن تكون ذات سيادة وتوسع فى امتداد النفوذ . أن هذا الشعب يمتاز قبل كل شىء بتغليب هواه على كل الصفات الاخرى . فكل انسان يعرف كيف يضع مصالحه نصب افكاره ولا ينزعها من قلبـه ومع ذلك فانه لاينبغى لاجل الحصول على هذه المصالح أن يعمل على الانتقام أو يعمد الى الكبرياء فانه لو استسلم اليهما لفقد كل مزايا الحكمة والروية والصواب

وان من أهم صفاته التى لايمكنه التخلي عنها والتى اشتهر بها بين العالمين خليقة البغضاء والحقد . فما كاد الاروام يستولون على أزميـر حتى أدرك الفرنسويون والانجليز ان هؤلاء القوم قـد

ارتكبوا من الفظاظة والفظاعة ماجعل النفوس تشمئز منهم وتمل من اعمالهم . ولم يمض غير قليل من الزمن حتى فقدت المدينة ما كانت عليهمن حالة الرفاه والرغد والهدوء التى لم تتوصل الحرب الكبرى نفسها الى تغييرها .

وقد اصيبت كل اعمال الاوربيين فى هذه المدينة بالعطل واصبحت غير قابلةللرواج كما كانتمن قبل . فكماأصاب سلانيك البوار كذلك أصاب ازمير الكساد وسوء الحال . وقد بلغ من أمر هؤلاء القادمين الجدد انهم ابوابحكم ماجبلوا عليه من الفظاظة والادعاء الكاذب أن يقبلوا أية نصيحة أو اية مساعدة تمد اليهم . وقد دعاهم الغرور الى الاعتقاد بأنهم اكفاء لان يديروا كل عمل وان فيهم الكفاية العددية للقيام بكل مشروع . وما مضى الا أشهر قلائل على هذا الحكم حتى ظهر فراغ عظيم يجب سده .

ومع ذلك فقد كان لا بد بعد وقوع تلك الحوادث الجنائية وتلك المصائب الهائلة من صدور بعض الاحكام على اشهر المجرمين الذين اقترفوا تلك الآثام الفظيعة وبقية الذين اخلوا بالنظام وضعوا تحت مراقبة تختلف بين الشدة والتخفيف . وقد تألفت لجان انجليزية فرنسوية متنقلة من مكان الى آخر محققة متوسطة بين الفريقين لاخماد نيران العداوة والاقتتال المشتعله بين الطرفين . فساد شىء

من الهدوء وصارت دائرة القتال محصورة فى جبهة معينة على قدر الامكان

اللهيب يمتد فمن يستولى على الانقاض ؟

ان نيران الحرب قد اشتعلت بالفعل بين الطرفين ولكن نتائج الاعتداء لا يمكن ان تظهر الا فيما بعد ببطء شديد

فاول ما تكون المكافحة بين انصار المبدأين ثم تنتقل الى مصادمات كثيرة التكرار وعظيمة المفعول ثم تنتقل الى دور مفاجآة دموية هائلة . لقد امتد الحريق واخذ يتنقل من مكان الى مكان وهو يتطلب رجالا اخرين وادوات حربية اخرى فتورطت اليونان باغراء انجلترا التي تعضدها وتشجعها فى الاندفاع فى تيار جارف لا تستطيع ان تقاوم شدة انحداره قوتها المادية ومقدرتها المالية . وكلما حاولت اليونان ان تتلكأ او تحجم عن العمل ضغطت عليها انجلترا بيد من حديد وساقتها الى تحمل الاعباء الثقال باضطهاد بل باحتقار شديد ومع ذلك فان اليونان لم تساوم ولم تصمم على المطالبة بالمعونة المالية .

لقد اخذ الفرنسويون العسكريون او المدنيون الذين كانت اعمالهم تلجئهم الى البقاء فى البقاع الشرقية يزدادون دهشة وتعجبا

من هذه الحوادث الغريبة .

وقدرأى هؤلاء الموظفون انفرنسافقدت مراكزها التى كانت تتمتع بها قبل الحرب وقدأساء سمعتها أصدقاؤها الاقدمون وأخذوا يقاتلونها ويهزمونها فرفع هؤلاء الموظفون أصواتهم فى باريس بالاستغاثة لاول مرة ولكن باريس لم تصغ ولم تجب بكلمة واحدة

ومع ذلك فقد كان من الميسور لنا الاجابة على تلك الاعمال الموجهة ضدنا اذ كانت الاسلحة القاطعة بين أيدينا وكنا لانزال فى مراكز قوية لايرى من السهل اخراجنا منها ! وكانت انجلترا الاستعمارية تهتم جد الأهتمام بكل الحوادث التى تقع منا أو ضدنا وقد كانت أخذت نصيبها ومثلت الدور الاهم فى المسئلة الشرقية بدون أن تجهل مايخف بأعمالها من الاخطار . وكانت تعتقد أن اتفاقها معنا فى العمل يدل على انها تقبل باشتراكنا معها فى الفوائد المكتسبة . فى حين انها لاتريد الا أن يكون لها كل شيء . وأخذ عملها المستحكمة حلقاته والذي وضعته على ترتيب ترى هى انه لايغادر صغيرة أو كبيرة بدون أن يكون لها غنم فيها وأن يرجع مزاحمها بالفشل منها

هذه هى الحوادث التي تتالت من مايو الى اكتوبر سنة ١٩١٩ بدون أن يطرأ عليها تغيير جديد .

وقد اجهد الاروام انفسهم بدرجة شديدة للثبات في جبهة قتالهم وتحملوا في سبيل ذلك أعظم المصاب ومع ذلك فلم يكن يوجد امامهم اذ ذاك سوى متطوعين غير نظاميين وجنود من الدرجة الثانية إذ كان الجيش العثماني الحقيقي يقاتل الانجليز في خط بغداد أو يحافظ على جبهة أرضروم . وقد أخطأ العثمانيون الوطنيون في الاستخفاف بالاروام واهمالهم مفضلين الالتفات الى من كانوا يحسبونهم أشد خطراً عليهم فتركوا الوقت الكافي للاروام لاستجماع قواهم وتنظيم صفوفهم حتى صاروا خطراً كبيراً . وهذا أول خطأ عسكري ارتكبه الوطنيون العثمانيون

وفي يوم ٤ اكتوبر سنة ١٩١٩ سقطت وزارة الداماد فريد بتأثير هياج عظيم حدث في الرأى العام العثماني . وقد هلل وصفق وكبر سائر العثمانيين على اختلاف آرائهم ومبادئهم لسقوط تلك الوزارة الآنفة وقد كان سقوطها مترتباً على ممالأته أعداء الدولة العثمانية على احتلال أزمير

وبلغ من عناد هذا الرجل انه لم يعد يحفل بالحوادث الفظيعة المتتالية ولا بالتهديدات والنصائح الموجهة اليه . ولاعتقاده بان الحلفاء يرغبون ويستطيعون ان يخمدوا كل حركة وطنية صمم على ان لا يعتمد الا على هؤلاء الحلفاء الذين كانوا السبب في اسناد مركز

الصدارة العظمى اليـه والذين ينقدونه المرتبات الضخمة ويؤيدونه في كل مشروعاته بحولهم وطولهم وهو عدا ذلك ليست له سياسة خاصة سوى مناهضة الحركة الوطنيـة القائمة على معاداة الحكم الرجعي وبهذه الطريقة الممقوتة التي اتبعها هـذا الرجـل اسخط الرأى العام الاسـلامي في سائر انحاء الكرة الارضيـة ولم يعـد احـد يقبل وجوده في مركز الصدارة

وأقبلت امواج الوطنيـة العثمانيـة التي استقرت في الزوايا الشرقيـة المتنائيـة من الاوناضول الى الاستانة فغطّت الداماد فريد واسقطته من منصبه .



القسم الثانى

الحركة الوطنية

الفصل الاول

فجر الوطنية

الاشتراك فى العمل

ليت شعرى ماهى فى الحقيقة تلك الحركة الوطنية التى يتكلم عنها باعجاب بالغ مبلغ التعصب كل انسان فى الاستانة وفى المعسكر العثمانى وهو يعتبرها كشىء سري كما يتكلم عنها كل انسان فى المعسكر الانجليزى والرومي باحتقار لاحد له ؟ فهذه الحركة قد اختلفت حولها الميول فبعضها يلفت الى حد الشغف والتوله والبعض الآخر الى حد الغل والبغضاء

على أن شدة الميول المبغضة في اظهار مقتها تدل على أن هذه الحركة الوطنية قوية الحياة شديدة التأثير . ومع ذلك الا يشعر الانسان بقوة تلك الحركة من تأثير اعمالها في العاصمة وما تحدثه من الهزات العصبية ؟

فالوطنية العثمانية لها ما للاروام وما للانجليز فى الاستانة من الاشياع المخلصين ومن الجمعيات السرية والعلنية ومن الضرائب التى تجبى لهـا ومن النفقات التي تنفق باسمها ولها فضلا عن ذلك ميزة ليست لخصومها وهى التفاف سائر المسلمين حولها واجابتهم مطالبها وخضوعهم لاوامرها . وللاقتناع بصحة هـذه الاقوال يكفى محادثة الفدائيين واشياع هذه الحركة . فان هؤلاء يبحثون بمحض رغبتهم عن الفرنسويين القادمين حديثا من فرنسا ليطلعوهم على حقيقة الامور الجارية وعلى آمالهم ومطالبهم . أما المقيمون فى الإستانة فانهم غالبا فاقدوا الشعور قليلو التأثير ودائما غير مصدقين ولا مؤملين ولهذا فانهم لا يعيرون الآمال العثمانية الا أذنا متلاهية

إن موقف الفرنسوى القادم حديثاً على الاستانة يكون مصحوبا دائما بالمراعاة والتلطف فأول ما يعرض له أن يقابله أحد الوسطاء أو أحد الاصدقاء ويلقى عليه السؤال الآتى : ألا يريد أن يعرف حقيقة تلك الحركة الشهيرة التى يتكلم عنها كل انسان مع انه لا يدرك حقيقتها ؟ وهل يريد أن يفارق القسطنطينية قبل أن يكتشف خبئية ذلك السر ؟

وفى اليوم التالى أو بعـد يوم آخر بجىء الى هـذا الضيف

الجديد رسول سري فى وقت غير معلوم ويفضي اليه بالموعدالذى تحدد له . ثم يجيء اليه فيما بعـد حينما يكون الناس قـد غلب على جفونهم النوم انسـان لا يريد أن يبوح باسمه ولا بالمهمة التى جاء لأجلها ويأخـذه ويذهب به الى مكان مخصوص حيث يجتمع به شخص تلوح على ملامحه سيما التضحية والاخلاص وما هو الا أحد الفدائيين أو أحد رجال العصابات وقد تخطى الحـدود وافلت من الحراس الانجليز واليونانيين ووصل وهو ممتقع اللون فيجلس الى جانب ذلك الزائر ويقول له بعد التحية الشرقية المشهورة بالانس والملاطفة :

« ارجو منك عـدم مؤاخـذتى اذا كنت قد تأخرت عن القدوم اليك مبكرا وجئت فى مثل هذه الساعة المتأخرة لانى الآن اقل تعرضا للخطر وهذا هو السبب الذى الجأنى الى تحميلك عبء الانتظار الثقيل فى جنح الليل المظلم . فهل تريد أن نتحادث ؟ »

وعلى أثر ذلك يدنو منـه ويدور الحـديث بينهما تحت ضوء النور الـكهرباء الضعيف المسترسل من انبوبة زجاجية مرتفعة فوق رأسيهما وفى كل ربـع ساعة يسمعان وقـع عصا الخفـير التي تقرع الارض . وهذه الحالة تدل على أن الاسلام لا يزال ساهرا لا تغمض له عين .

وهنا يبتدىء الفدائى الوطنى يخاطب مستمعه بقوله : « انى الدكتور »

ثم يصرح هذا المرسل من قبل الحركة الوطنية باسمه والقابه واذا به أحد أولئك الشبان الاذكياء المستنيرين بأنوار العلوم الحديثة والذى دفعه فكره الى تلك الحركة الخطرة فى حين انه ليس سوى أحد أولئك الذين يتولون معالجة الاجسام وابراء النفوس فهو اذاً يضم الى صفته الاولى الصفة الثانية وهى كونه من أصحاب المبادىء السامية والامانى الشريفة . وأمثاله من المتشبعين بالمبادىء الوطنية الصحيحة بامتزاجهم بأركان الحرب الوطنيين يكونون بلاط ومجلس الزعماء العسكريين وهذا العمل يعتبر أنكاراً للنفس قبل كل شىء . وعلى هؤلاء الاشخاص المخاصين تقع أثقال كل التبعات وفى مقدمتها تبعة الاخفاق والفشل . وهم مكلفون بأن ينقلوا بمنتهى السرعة الانباء وعلى مهارتهم ونشاطهم وخفة حركاتهم يتوقف نجاح أية معركة أو أية مخابرة أو مفاوضة. وان هذا العمل شاق وغامض . الا ان بقاء الاسلام وعزته يتوقفان على مثل هذه الاعمال الشاقة الخطرة . ثم يأخذ هذا الرسول الخاص فى محادثة الزائر الجديد بقوله : « ان حركتنا وطنية محضة وهذه الكلمة بالطبع تدهشك لانك لم تعتد على سماعها من قبل فى البلاد

العثمانية . ولكنها انما تولدت من كل ما أصبنا به من ضروب الالام والارزاء منذ ابرام الهدنة الى الآن »

ثم يبدأ الدكتور ر . . . فى شرح مبدإه ببلاغة وترتيب منطقي عارضاً ادلته واحداً اثر الاخر كما تعود على عرضها بالامس وقبل الامس وكما هو مستعد لان يبسطها فى الغد وفي اية مرة اخرى . ولا يقصر سرد حوادث الظلم والاضطهاد التى ارتكبها الحلفاء وهى الحوادث التي سببت بحق وجود الحركة الوطنية والتي كلما اقدم الحلفاء على ارتكاب امثالها ازدادت ثقة العثمانيين كافة بهذه الحركة وعظم تعلقهم بها واعتمادهم عليها فى خلاص الوطن . وتظل الفاظه متحدرة من فمه قوية التأثير بقوة الحق التي تتبين من خلالها والتى تجعل هذه الالفاظ ممتنعة على كل تفنيد ونقد ثم يظهر هـذا الخطيب ماستنتجه هـذه الحركة من التفاف الشرق بأسره ولا سيما آسيا حول القائمين بها واهتمامه بشكاواهم ومطالبهم التي لا أثر للاشتطاط فيها وهكذا تمر الساعات فى الشرح والتبيين وعصى الخفير توضح الساعات بنقراتها المنتظمة على الارض ودار البحث والجدال بين المتحادثين وكلاهما محتفظ بحرية رأيه الخاص ما بين روية المنتصر السهلة وتشدد المغلوب الذى يهدده كل شيء .

ثم يمد ذلك الفدائى يده الى محادثه فجأة مسلماً ومودعاً ولا يكاد

الزائر ينتهي من السلام حتى يكون الفدائي قد اختفى فى جوف الظلام وبعد قليل يجيء من يوصل الزائر الى الباب الخارجي ويفتحه له فيخرج الى الطريق وهو مشغول الفكر بما رأى وما سمع وهكذا يبث الوطنيون العثمانيون آراءهم ويظهرون آمالهم على الرغم من العيون المحدقة بهم والاذان المنصتة اليهم من رجال الحلفاء وعمالهم المأجورين

مصطفي كمال

لقد تمسك العثمانيون بنصوص المبادىء التي قررها ولسون . ولهذا فانهم عندما وقعوا شروط الهدنة لم يكن يداخلهم ادنى شك فى بقاء السيادة العثمانية على سائر ارجاء السلطنة التي يعد العنصر الاسلامي أكبر العناصر فيها وكان هذا الاعتقاد راسخا فى نفوسهم الى حد لا يمكن التغلب عليه وما هو إلا أحد مبادىء ولسن التى قبلوا الصلح بموجبها . ولكن كل هذه العقائد أو بالاحرى هذه الاحلام لم تلبث أن اختفت دفعة واحدة فاستولى على كل طبقات الامة الشعور بانها قد أصبحت عرضة للتلاعب والغش . وحينئذ أخذ الجميع يوجهون انظارهم الى رجل يكون جنديا بطلا من أبطال الحرب الاخيرة فاتجهت أفكارهم الى ذلك الذى رفع بيمينه لواء النصر

العثماني فى وقائع الدردنيل والذى وقف متجهما فى وجه التحكم الالماني ولم تتجه الانظار الى أنور تلميذ برلين بل الى مزاحمة وعدوه الالد مصطفى كمال بطل انافورتا المعبود من رجاله ومن الجماهير الاسلامية فهو الذى سيقوم بتمثيل الشعور الجديد الذى يحرك العثمانيين ويهز قلوبهم أى يحرك العاطفة الوطنية

فكل تاريخ حركة المقاومه سينقش حول اسمه . والذى دعاه الى القيام بهذا الصراع الخطر الى حد الجنون هو مابعثه فيه أصدقاؤه عن التحميس وما اضطره اليه خصومه من الغضب فمصطفى كمال فى نظر اوروبا وفى نظر الاناضول هو الزعيم الحقيقي للحرب التى اضرم نيرانها ضد الاشراف الاجنبى .

ولد مصطفى كمال باشا فى سلانيك عام ١٨٨٠ من اسرة مسلمة أصلها من لاريسا وقد بدأ دروسه فى مناستير فى المدرسة الحربية . وقدم الى الاستانة وهو فى حداثة السن حيث أتم دروسه الحربية فيها .

وفى اليوم الذي غادر فيه المدرسة برتبه ملازم صدر أمر بنفيه الى دمشق . وكان هذا النفى فى عام ١٩٠٢ وذلك لان عبد الحميد لم يكن يحب الرؤوس القويه . ومن دمشق نقل الى يافا وعومل معاملة شديده . ففر من هنالك الى الاسكندرية ومن الاسكندرية

سافر بسهولة الى بيرا اليونانية ومن بيرا ابحر الى سالانيك . وفى سلانيك سقط فى وسط الاشراك التى كان ينصبها اذ ذاك شبان تركيا الفتاه فأخذ بنصيب من هذه الاشراك وكان من أشدهؤلاء الاحرار غيرة ونشاطا وقد اشترك فى تنظيم جمعية الاتحاد والترقى ولبث ثمانية أشهر وهو مختف عن الانظار يعمل فى السر مع زملائه وقد نجحوا اذ ذاك فى استمالة الجيش برمته اليهم اذ أعدوه للثوره .

وقد صار من كبار مروجى الدعوة الوطنية لاجل تلك الحركة وقد نظم لها الفروع المركزية فى سوريا . وضاعف همته في سلانيك ولما هبت الثورة كان قد التحق كركن حرب لمحمود شوكت باشا ودخل معه بهذه الصفة الى الاستانة عام ١٩٠٨

وهذه الاعمال جعلته يتخرج من خير مدرسة ثورية ويكون عليما وضليعا فى الشئون الثورية فقد تقلب في أعمال تنظيم الجمعيات السرية وفى نشر الدعوات وفى ايجاد الاساليب المبتكره للتهريب ولتحريك النفوس . على ان كل ذلك لم يكن ليحل من نفسه محلة كبرى ولم يرض مطامعه وانما كان فى همته مثل استاذه محمود شوكت باشا أى انه كان جنديا جادا .

وفى سنة ١٩١٠ حضر الينا وشاهد المناورات الحربية العظيمة التى حدثت فى بيكارديا كمندوب من قبل وزارة الحربية العثمانية

فدهش ضباطنا من حسن نظره فى الفن العسكرى وعاملوه معاملة الرفيق ثم انتقل من هنالك الى طرابلس الغرب واشترك فى القتال من أول وقائعه ذلك القتال الذى كان كمقدمة للحروب الكبرى . ومن طرابلس حضر الى غاليبولى . وفى خلال الحركات الحربية التى حدثت فى البلقان استعاد أدرنه .

وحينما انتظمت الدولة العثمانية فى صف حليفات المانيا كان مصطفى كمال ملحقا عسكريا فى صوفيا عاصمة بلغاريا . وكان الحظ قد خدمه منذ صغر سنه فأخذ يرقى درجات المعالى تباعا .

وقبل حدوث وقايع الدردنيل تعين قائداً للفرقة التاسعة عشرة وقد التقى به الحلفاء فى موقعة آرى برنو . ثم التقوا به فيما بعد امام انافورتا واليه يرجع الفضل فى منع كل تقدم من قبل الحلفاء وبالرغم من انه لم يكن إذ ذاك سوى قائمقام فانه قاد فى أحرج المواقف مجموعة القوى الجرمانية العثمانية وكان تحت من أمرته ثلاثة قوادومائة وستين الف عسكري . وقد اضطر ليمون فون سندرس الذى كان يمقته أشد المقت الى الانحناء امام الضرورات التى كانت تقتضيها تلك الساعة الحرجة لان الهجوم الانجليزي كان موجها الى النقطة المتاخمة المياه .

فاكسب مصطفى كمال جنوده متانة السيوف القاطعة وقادهم

بنفسه الى الهجوم والدفاع العثمانيين فنجح فى عمله أعظم نجاح وعلى أثر تحسن الحالة ونجاة الدردنيل من الحلفاء داخلت القيادة الالمانية العليا هواجس الخوف من اشتهار سمعته فارسلته الى القوقاز . وهنالك قاد الفيلق السادس عشر . وعلى أثر تعيينه قائداً اشتبك فى منازعة مع فالكنهاين الذى كان معهوداً اليه رئاسة الحركة الموجهة الى الهجوم على بغداد . فأخذ مصطفى كمال ينتقد تلك الاستعدادات ولم يسعه الا أن يستقيل ليعرب عن استيائه بطريقة محسوسة . فأرسل الى حلب مغضوبا عليه فأرسل تقريراً من هنالك بتاريخ ٣٠ سبتمبر الى طلعت وأنور وهذا التقرير مستنداً من أغرب المستندات

متنبىء

وكان هذا التقرير عبارة عن بيان فى منتهى الاسهاب عن الحالة العسكرية موضوعا فى قالب خاص لايستطيع أن يوضحه سوي عسكري سياسي فى آن واحد وعلى الرغم من أنه فى موضوع لاعلاقة له بالادبيات فقد كان موضوعا فى قالب انشاء بليغ بديع التعبير والتصور . وقد رسم بقلم مصور بارع حالة البلاد الاقتصادية والاجتماعية بذكاء وغيرة متلهبة . وكان هذا الكاتب القدير عليما بحالة شعبه وبموارد البلاد الاقتصادية وبالاغلاط وسوء التصرفات

الحافلة بها ادارة البلاد .

وفى هذا التقرير يقول مصطفى كمال :

« ان الحرب قد اتت على موارد العناصر المؤلفة منها امتنا بدون استثناء فادى هذا الى تفكك العرى الكائنة مابين الشعب والادارة تفككا قويا عظيما »

واخذ مصطفى كمال يشكو من انحطاط السلطات العامة ومن الضعف المتزايد فى الحياة الاقتصادية و « من مسئلة ضرب النقود الفظيعة التي تشغل الشعب باجمعه وتجعله لايثق ادنى وثوق فى المستقبل وتدفع خيرة الناس الى التجرد من كل الروابط المقدسة التي كانت تربطهم بحكومتهم وقد تنبأ مع الحزن والاسف بانهيار معالم السلطنة فى مدة قريبة وسقوطها تحت الاشراف الاجنبي .

وكانت تنبآته العسكرية اسد نظرا واقرب الى الحقيقة من كل مافى التقرير من التنبؤات الاخرى . ولا يبرح عن البال أن هذا التقرير كتب فى أعظم اوقات الانتصار الالماني وانه لم يكن موجوداً إذ ذاك فى البلاد العثمانية انسان غيره يشك فى انتهاء الحرب بانتصار المانيا وحليفاتها . فهو وحده الذى ادرك أن الحلفاء لن يدعوا الانقسام يفكك عرى وحدتهم واكد أن تألمهم من نقص الحاجيات لديهم وما يعانونه من ضروب الشقاء اقل بكثير جدا مما لدى

اعدائهم من هـذا القبيل . وما كان يعتقد بانتهاء الحرب بانتصار معسكره . واظهر ضعف الجيش العثماني وعجز موارد البلاد من الرجال عن سد اماكن النقص فيه . وعدا ذلك فقد وردت له فى هذا التقرير اقوال سيحققها المستقبل . وفى هذا الصدد يقول :

« أن قاعدة جعل العالم الاسلامي طوع مشيئة انجلترا وقيام حكومة مسيحية فى فلسطين تحت النفوذ الانجليزى وتمكن النفوذ الانجليزي من مصر الى الابد ومن قناة السويس والبحر الاحمر والرغبة فى حرمان وطرد تركيا من اجمل بقاعها ومن قواها الدينية الاخيرة كل هـذه الامور لها عند انجلترا اهمية عظيمة تجعلها تغير اغراضها من الحرب وتوجه مجهوداتها ضدنا فتعاجلنا بضربات قاضية لايمكن تجنبها والافاقة منها . »

ولم تكن اراؤه تتفق فى أية نقطة مع اراء القيادة الالمـانية العليا . وفى الواقع ماذا كان يهم هـذه القيادة من تضعضع الدولة العثمانية ؟ وقد قاوم مصطفى كمال كل مجهود يرمى الى استغلال موارد بلاده الحيوية وحمل على فلكنهين فى هـذا الصدد وبلغ من جرأته إذ ذاك أن يكتب ما يلي .

« ان فلكنهين يجرأ اليوم على أن يقول الى كل من يصغى اليه وبكل مناسبة انه المانى وانه يريد بالطبع أن يفكر قبل كل شئ

فى مصالح المانيا . واذا كان قد توفق فى بحر شهرين الى الدفاع بنجاح عن الجبهة الفلسطينية باستخدام كل القوى الموجودة تحت قيادته فسيصير امام العالم وامام وطننا كقائد أحرز أعظم الانتصارات وحينئذ كل السلطنة العثمانية تفلت من قبضتنا وتصبح مستعمرة المانية ويستخدم فلكنهين لادراكه هذا الغرض ذهبنا وكل مانستطيع أن نجمعه من بقية الرجال المتخلفة فى الاناضول . »

لقد كان جواب انور على هذا التقرير جافا خشنا ومقصورا على عدم قبول تلك الاراء . فاستولى فلكنهين على القيادة العليا فى جبهه فلسطين وظل مصطفى كمال مغضوبا عليه . ولبث حد عشر شهراً من سنة ١٩١٧ الي سنة ١٩١٨ وهو يفكر ويتأمل فى تحكم واستبداد رؤساء جمعية الاتحاد والترقى

وقد جعلت الحوادث اراءه مطابقة للصواب اذ توالت الهزائم بسرعة على جبهة فلسطين ولم تعرف المانيا كيف تستفيد من القوى التى بين يديها فصار الالتجاء الى مصطفى كمال وتعين رئيساً لمجموعة الجيوش الرابع والسابع والثامن . وهى مجموعة يلدرم أى الصاعقة فنظم الجملة على بغداد . وقد تحقق حلمه . وهم بالسفر الى مهمته الجديدة وهو يكاد يجن من الابتهاج لانه توصل أخيراً الى انديكون رئيسا منفردا ليس لاحد سلطة عليه . ثم وصل اليه تلغراف رقمى

عند بلوغه اول مرحلة وقد ارسل اليه من أعز اصدقائه الذى كان قد وضعه هو بنفسه فى الاستانة ومن هذا التلغراف علم بالشروط الابتدائية المشتملة عليها اتفاقية الهدنه فكانت هذه هى الطامة الكبرى.

ان هذه الايضاحات تلقى أشعة على الاسباب الغامضة التي جعلت الاميرال كالثورب يقبل ابرام الهدنة بسرعة عجيبة وبالشروط التي كانت أساسا لها . وذلك أن الانجليز كانوا يعلمون تمام العلم حقيقة مركزهم فى العراق ويعلقون أهمية كبرى على الحملة الموجهة ضدهم تحت قيادة مصطفى كمال .

واستمر مصطفى كمال قائما بإعباء عمله ولكنه بصفته عسكريا لم يكن فى استطاعته ان يتعدى حدود النظامات العسكرية

وعلى أثر ابرام الهدنة وتشكيل الوزارة الفريدية عمد الداماد فريد الى التخلص من مصطفى كمال لانه كان يحسب له حسابا كبيرا. فعينه رئيسا للجيش الثالث مع مهمة تنظيم الولايات الاناضولية الشرقية من الوجهة الادارية . وكان هذا التعيين من افظع ما ارتكبته وزارة الداماد فريد من الاغلاط

وأول ما بدأ به مصطفى كمال من الاعمال ان احتج جهاراً على تداخل الانجليز فى شئون الاناضول . فهاجم هذه الخصيمة الجديدة كما هاجم من قبل المانيا .

وما كاد يصل الى بقعة عثمانية بحتة حتى رأى كل من يستطيع ان يحمل بندقية مسرعا اليه وانضم رجال الجندرمة الى قيادته وأخذوا يحبذون عمله وبهذه الطريقة انتشرت فكرة المقاومة في تلك الجهات .

ومن السهل معرفة ما انتجته مسئلة احتلال اليونانيين أزمير من تقوية الشعور العام للقيام بهذه الحركة التي اتجه اليها فكر مصطفى كمال

الغازي مصطفى كمال باشا

اشتباك القتال

عندما وصلت الانباء الجديدة المتضمنة خبر استيلاء الاروام على ازمير كان مصطفى كمال موجودا فى اقزاعلى مقربة من سامسون وكان قد نظم مظاهرة كبيرة وأخذ يلقى فيها خطبة اراقت الدموع من العيون وأقبل الضابط الانجليزى المشرف على اعمال تلك الجبهة ليرى هذا العمل فهاجه واسخطه ما رأى وما سمع وطلب من الاستانة بالتلغراف استدعاء الخطيب على جناح السرعة . فاجيب الى سؤله بلا تلكؤ غير أن دوائر الاستانة حارت فى كيفية تنفيذ هذا الامر ولم تعلم من الذى يستطيع ان يقوم به . على انها قد استدعت مصطفى كمال بحجة المفاوضة معه فى الشئون العامة .

وقبل أن تصل اليه رسالة الحكومة الرسمية كانت قد وصلت اليه رسالة من اصدقائه يخطرونه فيها بما هو منوي له فارتحل من تلك الجهة الى ارض روم وبهذه الطريقة بدأ الخصام والعداء بينه والصدر الاعظم وقد احتاط مراعاة لشعور الاهالى المسلمين بان اعلن انه بعاداته حكومة القسطنطينية المؤتمرة بأوامر الاجانب لا يعادى السلطان الخليفة وان صلاته مع السلطان ودية وحبية غير ان المبالغ التي تدفعها انجلترا الى السلطان المسكين تجعله تحت تأثير ونفوذ الانجليز ولذلك فهو لا يعتبر ان الخليفة الحالى صاحب نفوذ عليه .

اقبضوا على العاصى

وهكذا قامت قائمة الكفاح ما بين الطرفين فكان مصطفى كمال واقفا امام عدة خصوم هم الانجليز والاروام والارمن . وقد أخذت جمعية الائتلاف والحرية تحتفر له فى كل خطوة من خطواته حفرة تجعلها خفاً له فانتشرت العصابات المأجورة المؤلفة من أتعس وأشقى وأفسد مأجورى العثمانيين الذين لاخلاق ولا ذمة لهم فى آثاره تتطلب الفتك به . وأخذت جماعة المعممين من كهول فقهاء الاتراك تعتبر هذا الزعيم الوطنى عاصيا مارقا منشقا عن الدولة والخليفة ولكن نجم مصطفى كمال ابتدأ من عهد تحامل تلك الجماعة عليه يسطع فى سماء الاقبال فعلت منزلته واشتهر صيته واجتمع حوله أشداء الرجال وامتد نفوذه فى بقاع متسعة ولم يزده ذلك الكيد له الا تماديا فى التمسك بعقيدته وشرف ضميره .

ان الوطنية العثمانية التى سيصير مصطفى كمال علمها المفرد ليست سوى نظام شرقي بحت . وهذا النظام سيعم شعبا انهكته الحروب المتوالية في بحر خمسة وعشرين عاما والتي لم تكد تنتهى حتى كاد هـذا الشعب يصبح منهبا مقسما هو وبلاده تحت مخالب الحمايات الاوروبية . وهذه الحمايات اخذت تخادعه وتغشه لتأخذه تحت

جناحها بحجة انقاذه من استبداد وقسوة الشرائم والزعماء الشرعيين الذين كانوا يتولون شئونه

أن اعمال مصطفى كمال مشتملة على جرأة عظيمة . فانها تريد أن تجتذب اليها عناية واهتمام ذلك الفلاح الاناضولى الذى يكاد لا يعنيه مثل هذه الشئون عناية كبرى . فكان لا بد له اذن من عصابات قوية مؤلفة من رجال فدائيين مدركين حقيقه المهمة التي عهدت الى هممهم والى عقولهم ليتصرفوا فى تنفيذها تصرفا حكيما مصحوبا بالاقدام وتضحية النفس . فتألفت هذه العصابات بالفعل واخذت تهاجم المدن الشهيرة فى الجهات الريفية وتستولى على مكاتب التلغراف وتتفق مباشرة مع حكام المدن والجهات او ترسلهم الى سيواس للمفاوضة مع السلطة المركزية الاساسية حسبما تراه هذه العصابات من مقتضيات الاحوال

وكان مصطفى كمال يرى ان اجتذاب الجندرمة العثمانية اليه نجاحا عظيما لحركته لانه اذا ما فاز بتعضيدها له فقد فاز بالتفاف البلاد كلها حوله .

وقد أدى وجود هذه الحركة الى أن يهرع الضباط المتقاعدون من سائر الجهات الى مصطفى كمال ويلتفون حوله وكذلك الموظفون المتبرمون من مراكزهم ومعظم رجال السياسة وتقريبا جميع اصحاب

العقول الكبيرة والمواهب الطبيعية العظيمة . وقد أخذت هذه الجماهير تنساب شيئا فشيئا الى داخل الاناضول . وانتهت الحركة الى أن تستغرق بأمواجها الضافية كل ما يتمشى فيه دبيب الحياة والتفكير فى تركيا . وكذلك أخذت تسرع بقايا جمعية الاتحاد والترقى الى الانضمام الى مصطفى كمال وتمكن من تنظيمها والاستفادة منها بأعظم فائدة

ان هذا العاصى منظم مصلح

وبهذه الطريقة تمكنت الوطنية العثمانية فى بضعة أسابيع من الاستيلاء على الاناضول على مرآى ومسمع من الجنود الانجليز الذين عجزوا عن كبح جماحها وبلغ السخط والغضب منهم أشدهما . وكانت مزايا هذه الوطنية من مبدأ الامر التشبع بروح النظام والطاعة . وكانت خزائن جمعية الاتحاد والترقى لم ينضب معينها بعد بل كانت قادرة على دفع النفقات الاولى لكل الاعمال الابتدائية ولكن مصطفى كمال لم ينس ان أوربا موجودة ازاءه . فجعل همه أن يوجه نظره ويلتمس المعونة من المؤتمرات الوطنية التى تتابع انعقادها فى ارض روم وسيواس . فأخذ يبرر فى منشوراته وتصريحاته ضرورة ايجاد حكومة فى قلب الحكومة الموجودة من قبل .

البلاد العثمانية للعثمانيين

وقد وضع شروطا اساسية لابرام الصلح مع الدولة العثمانية وهي تتضمن سلامة كافة الاراضي العثمانية واستقلالها وتأييد الخلافة فيها وجلاء الاروام عن أزمير. على أن الوقائع الحربية ظلت متتابعة. وما كانت الاناضول خالية من الاسلحة والذخاير والادوات الحربية التي جمعها الانجليز من جيش القوقاز واستولوا عليها فانتزعها الوطنيون من ايديهم. وزيادة على ذلك فان الايطاليين أخذوا يهربون الاسلحة والذخائر الى الوطنيين عن طريق اضاليا وقونية. وكذلك الالمانيون تركوا بمحض ارادتهم في الاماكن التي كانوا فيها مخازن هائلة مملوءة بالقنابل اليدوية وبالديناميت ومقادير عظيمة من المدافع السهلية ومن سائر الادوات الحربية الاخرى. وأصبحت أفيون قره حصار مركز الحركات وحشد الرجال والتموين

ومع ان مصطفى كمال لم يقصر في القيام بالاعمال الحربية ولم يتهاون فيها لحظة واحدة فانه بدأ من الاشهر الاولى يفاوض لاجل الحصول على مطالبه وكان العمال الذين يوفدهم الى القسطنطينية والى العواصم الاوربية مزودين بتعليمات تقضي بتمهيد الطرق لوضع الشروط الابتدائية للاتفاق المراد ابرامه. ولم يترك فرصة تمر به

من غير ان ينتهزها للدخول فى مفاوضات شبه رسمية مع ممثلى فرنسا فى القسطنطينية ومع الضباط الفرنسويين القلائل المختصين بمهمة الاستطلاعات والاستعلامات فى الاناضول . وكان يجتذبهم الى سيواس حيث يلاطفهم هنالك ويشرح لهم اعماله ومقاصده بطرق جذابة . وكل الذين سافروا الى سيواس عادوا منها حاملين اعظم تأثيروهم مقتنعون بالمقاصد السلمية القابلة للتحقق التى كان منطويا عليها الزعيم الوطني . ولكن السلطات الانجليزية كانت تصر على اسنانها من الغيظ والكمد ولا تريدالا مواصلة الحرب. وكان لدى الانجليز اذ ذاك (٤٠٠٠) رجل فى خط بغداد . وكان أغلب هؤلاء الجنود من الهندوس الذين كانوا يهاجمون هجومارخوا وهذا هو السبب الذى يعلل به توالى الانهزامات الانجليزية .

واما السلطان فقد كان متراوحا مابين صداقته للداماد فريد وعاطفة حنانه للاميرة اخته امرأة الداماد وما بين التشيع لمصطفى كمال . ولكن المندوب البريطانى تعالى وضع حداً لكل هذه الترددات .

ومع ذلك فان الوطنيات المصرية والهندية والعربية تداخلت فى القصر السلطاني فارتجف الخليفة أمام هذه القوى الجديدة وأخذت ذكرى عبد الحميد تقلقه وتزعجه .

٥ — الوطنية

وفى هذه الآونة كان مصطفى كمال قد انتهى من سائر است
ووصل الى نهاية تحميس وتنظيم ولم شمل العناصر العثمانية المد
ولكنه بما جبل عليه من الحزم منع المتطرفين من تنفيذ ذلك المشروع
العظيم وهو الاغارة على الهند فلم يسمح لقرينه ومناظره أنور بدخول
تلك البقاع وكذلك لم يسمح بهذا الامر لخصمه الآخر جمال وأخذ
يسعى لافهام باريس ولندره حقيقة الامر نافيا عن نفسه ما يتهم به
من تعضيد ما كان يخشاه هو ويتوقاه اكثر من كل شيء وهو
مشروع أنور الذى يرمى الى تعضيد الحركة الطورانية وتأييد
الحركة الروسية وتلك الحركة الجنونية العظمي وهى الجامعة الاسيويه

ان وطنيته كانت قائمة على دعامه مكينة من الاعتدال أساسها
المنصرية التركية فقط . وهو يعترف بضرورة المساعدة الاجنبية
مع سعيه لانقاذ تركيا على مبدأ « تركيا للاتراك »

وهذا تصريحه فى هذا الصدد : « ان كل احتلال وتداخل
أجنبي سيكون معتبراً كخطوة أولى لتشكيل حكومة رومية أو
أرمنية . وهذا هو السبب فى أن العناصر العثمانية المقيمة فى الاناضول
الشرقى يجب عليها مقاومة كل ما تأتيه حكومة الاستانة الى الموت
ن أفعال هذه الحكومة موعز بها من قبل الدول الاوربية وهي
تستفيد منها فقط . »

لا ، الانجليزية

لقد أجاب الفرنسيون على كل تلك المفاوضات والمخابرات بان الاتفاق والتفاهم ليسا مستحيلين اما الانجليز فكانوا يقتصرون على كلمة واحدة لايمتنعون عن ترديدها فى كل آونة وهى لا . ولقد صارت لا الانجليزية مثلا مضروبا فى جميع البلاد الاناضولية وأخذ العثمانيون يرددون هذه الجملة « ياويلتنا من ذا الذى سيحررنا من الاستعباد البريطانى ؟ »

أي اشراف ؟

عند مايتناقشون فى ضرورة اختيار أمة مثقفة مرشدة وتعرض عليهم أسماء الدول المختارة لهذا الغرض وهى انجلترا وفرنسا وامريكا فان آراءهم تتلخص فيما يلى :

« ان بين انجلترا وبيننا اليوم دم مراق وفضلا عن ذلك فانها تحتقرنا وأمريكا تحوز شيئا من رضانا فيما يختص بمسئلة المساعدة المالية وأما أن تكون كمشيرة ومرشدة ومعلمة فلا لان الامريكيين جفاة وهم لايزالون فى عهد الطفولة العلمية وهم فى الحقيقة لايزالون تنقصهم أمور كثيرة . وأما فرنسا فهى الدولة التى نستطيع أن نتفاهم

معها أكثر من كل دولة أخرى ولكن هل تريد أن تبذل مجهودها لاجل هذا ؟ وهل تستطيع ذلك ؟ وهل يستطيع رجال سياستها فى باريس أن يتحملوا عناء السعي لاجل التعرف بنا ؟ »

اما انجلترا فقد تركت الكلام واستمرت على اشهار الحسام وفى مبدأ الحرب اتبعت قوانين الشرف والاتفاقات الدولية ما بين المعسكرات المتعادية ولكن فيما بعد عندما تغلغل اليونانيون فى داخل الاناضول بدأت اعمال الارهاب والفظائع بأشد أهوالها وحينئذ عمد العثمانيون الى اتباع مبدأ العين بالعين والسن بالسن . ولقد أخذ العثمانيون يعيبون على الانجليز سياسة الرياء ذات الوجهين التى اتبعوها ما بين الاستانة والاناضول .

وفى أول قسم من هذا القتال الانجليزي العثماني بذل الانجليز من المجهودات ماحمل مصطفى كمال على أن يتقرب من المانيا . فقد قبل عن طيبة خاطر الاموال الالمانية وهي التى استعملها فى التنظيمات الوطنية الاولى وهى أول خطوة مصحوبة بالذلل ولكن كيف كان يمكن اجتنابها ؟ وكيف كان يمكن اجتناب المساعدات والامدادات التى كانت تصل اليه من الجارة الهائلة وهي البلشفية ؟ وهذه الجارة المفزعة أخذت تزيد العثمانيين حقداً على حقد واحتقاراً تلو احتقار رامية بذلك الى استخدام حوادث الاناضول في مصلحتها ، ولكن

اذا لم يقبل الاناضول تعضيدها ومعونتها ماذا كان يصيبه ؟

ولقد قال إذ ذاك بكر سامي بك عند ما استفحلت فتن الانجليز ودسائسهم :

« إن الخائن البيون (يريد انجلترا لان هذا اللقب علم عليها) لا يريد أن يكون سلطاننا معنا لانه يسحر سلطاننا بصوته الجذاب الفاتن كما فعل مثل ذلك بشاه العجم . »

على ان بكر سامي بك يسبح في لجة من الوهم لان عناد انجلترا كتجهم المانيا لا أثر للخوف فيهما

موقف الباب العالي

واستمر الباب العالى على خطة تلاعبه المزدوجة : فهو يبدى المعارضة فى الظاهر ويوالي تشجيعاته فى الخفاء . وما كان يحتج الا بفتور على المجهودات التي يبذلها زعماء الوطنيين لايجاد حكومة فى وسط آسيا الصغرى مهمتها نفي الارمن من الجهة الشرقية وطرد الاروام الى الجهة الغربية وكان يقول بانه يرتاح على أثر التوفيق بين المتنازعين او تجريدهم من اسلحتهم التي يستعملها بعضهم ضد بعض حسبما تسمح به مقتضيات الاحوال . وهذه مرونة السياسية هى شطر من القانون السياسي الذى كانت تركيا لقديمة تتبعه .

وكان الباب العالي يهيىء نفسه في سره على الاغلاط الانجليزية وعلى سوء التصرفات التي تقترفها ادارة السياسة المدنية بموالاتها وممالأتها العظيمتين بطريقة جهرية الاقليتين الرومية والارمنية الموجودتين في الاناضول وباختيارها الضباط الانجليز من الاوساط الانجليزية اليونانية الذين تحرجهم صلاتهم بالاسرات المرتبطين بها والذين مع ارتدائهم بالثوب العسكري لا يزالون مشتغلين بالمصالح التجارية .

واذا كان الاناضول يضيف الى حساب الدولة البريطانية قائمة الآلام التى اصيب بها واذا كان اسم الجنرال ميلن قد صحب بالاستياء والمقت فان الاستانة كانت فريسة الاجتماعات السرية التى تكافح فيها جمعية يلدز الوطنية جمعية أشياع انجلترا ولكن الانجليز اخذوا يبحثون عن الطريقة التى يحولون بها العاصفة التى تهددهم الي فرنسا

سحب الأنجليز من وان وسيواس واطنه

لقد بدأ التذمر والهياج ينتشران فى كل مكان وانتشرت الاشاعات القائلة باننا سعينا فى انسحاب الجنود الانجليزية من المثلث الواقع بين وان وسيواس واطنه مقدمة لاحتلالنا كليكيا .

وسمحت انجلترا للصحف الموالية للعثمانيين فى لندره بان تنشر

الاحتجاجات المتواليــة العظيمة على احتلالنــا كليكيا وان تدعو سائر العثمانيين الى التظاهر ضـد ذلك الاحتلال وبالفعل اقيمت المظاهرات الـكبرى التي كان شعارها السخط على وصول جنودنا الى الموانيء الـكايكية

لقد أصبح الهياج والاضطراب والحقد لدى العثمانيين عظيما جـدا . فهم يرون أن الفرنسويين قد احتلوا كليكية واليونانيين ازمير فهذا العمل يرمى اذا بلا شك الى تقسيم البلاد العثمانية .

فكان جواب الانجليز على هذه التذمرات مايأتى : « يجب أن تقبلوا اشرافنا على شئونكم والتوكل عنكم امام اوربا واذ ذاك تعرفون اننــا مخلصين لـكم فاننــا مستعدون للمحافظة على سلامة اراضيكم . »

ويجب الاعتقاد ولو مرة واحـدة بان هـذه الالفاظ تعرب عن آراء صادقة وذلك لان سلامة الاملاك العثمانيـة تظهر لاهالي الهند أن انجلترا قد حفظت وانقذت الشرف العثمانى وان الخليفة يسود حكمه ويمتد نفوذه تحت رعاية وحراسة انجلترا ولا تعود آسيا الصغرى احدى مشاكل المسائل الاستعمارية الانجليزية . ولا يكون الانجليز قد تخلوا عن رأيهم الاول .

واذا كانت المكافحة فى الاستانة قد بلغت ذلك المبلغ فمــا

عسى أن يكون شأنها فى الاناضول ؟

وكانوا يقولون لى : « تعالى وادرسى هذه الحركة الشهيرة التى ابتدأت تعرفين شيئا عنها ولتكن دراستك في المكان الذى يقال بأنه غاص بالقلاقل والاعتداآت فاذا جئت الى هنالك فانك ترين بعينك من هم أولئك العصاة وقطاع الطرق » ثم يتوسعون فى الشرح فيقولون :

« على الرغم من وجود حالة الحرب ووقوع المعارك يوميا فانك ستحكمين بنفسك علينا اذا كنا نحن مجانين ومتوحشين أو لم نكن كذلك »

هذا ما كان يردده على الموفدون القادمون حديثا الي خاصة لاقناعى بوجوب الذهاب الى الاناضول لمشاهدة الامور الجارية هنالك وابداء آرائى خلواً من التحامل ومن التأثر بالاقوال المغرضة الصادرة من مصادر مختلفة وبعد مصاعب ومشاكل متعددة أوجدتها الظروف السياسية سافرت بنفسى الى داخل الاناضول . افلا يجب الوقوف فى مكان العمل على روح وكنه ذلك المجهود العظيم الذى يبذله العثمانيون فى سبيل المحافظة على كيانهم ؟

الفصل الثاني

فى الاناضول – نوفمبر سنة ١٩١٩

فى خط بغداد

وصلت في الحال الى داخل محطة حيدر باشا التى تعتبر رأس خط السكة الحديد الذاهبة الي بغداد وكان هذا الدخول يعتبر اول اندماج فى دائرة اشراف الحركة الوطنية . فان الانجليز على الرغم من كونهم يؤشرون على جوزات السفر وعلى تذا كر السكة الحديد فان المحطة كانت غاصة بالضباط والجنود ورجال الجندرمة ورجال البوليس الوطنيين وهؤلاء كانوا يروحون ويغدون بغير تضايق ولا عناء

وكانت انجلترا تزعم انها قد استولت على خط بغداد ولكن كان يوجد من الادلة القاطعة ما يكذب هذا الادعاء . وأهم هذه الادلة امتلاء القطارات الذاهبة الى داخل الاناضول بالجنود والفلاحين الذاهبين للانضمام الى قوى الوطنية . وكان ضباط الحركة الوطنية يظهرون بملابسهم الرسمية التى أصبحت فى منتهى البساطة ويعرفون بذلك الكابك الاسترخانى الذى يشتركون جميعا فى وضعه على

رؤوسهم . وكذلك كانت تلوح على وجوه الجميع علامات الشحوب والتأثر الدالة على انهم لا ينامون الا قليلا . وهذه المحطة الكبيرة العجيبة التي كانت تدل فيما مضى على مقدار قوة الالمانيين ونفوذهم بقيت الى اليوم حافظة بامانة آثار تلك القوة ولكنها أصبحت ذات منظر كئيب يدعو الى الانقباض من جراء ماأحدثته فيها قذائف طيارات الحلفاء من الخروق المتسعه والاتلاف المتعددة فى أثناء الحرب الكبرى

وحصل تبادل قوارص الكلم بين المسافرين والانجليز الذين أرادوا أن يفحصوا أمتعة الراحلين وبعد قليل أخذ القطار ينطلق بركابه المديدين . وهكذا استمر القطار يخترق ضواحي الاستانة وصوته مختنف تحت أصوات ركابه من رجال ونساء كباراً وصغاراً الذين هاجروا الاستانة ذاهبين الى دار الهجرة الجديدة . وكان المعهود فى هذه الضواحى من قبل انها تكاد تكون حدائق فيحاء مزدانة بمختلف الازاهير ومروجا خضراء مفترشة بالسندس النضير واذا بها اليوم وقد لعب الاسى بها وصيرها قاحلة مشعثة خلوا من كل نضرة وبهجة

وبعد مغادرة بنديك يبتدىء بيثينيا القديمة وهى تلال قائمة ممتدة على سائر الشواطىء وما هى الا بقايا بناء عظيم هائل لم

يمد له شكل معروف وتقول الانباء القصصية ان انيبال مات فيه

وقد مررنا بقطارات مفعمة بالجنود الهنود وهـذا أهم منظر من المأساة الانجليزيةالسكسونية . فقدكانت المعسكرات الانجليزية منتشرة على جانبي السكة الحديد وما ذلك الا لتحدث تأثيرا فى نفوس الجماهير الراحلة الى داخل الاناضول .

ووصلنا الى أزميت التى تراءت بقسميها ، القسم المسيحى المشيد على شكل أنف تياترو أى مدرجا فوق الخليج الذى يمتد الى متسع البحر شيئاً فشيئاً . وكانت جثة جوبن الهائلة التى ذهب لونها تشغل نصف هذا الخليج . وكانت أزميت الى هذا الخريف الواقع فى سنة ١٩١٩ لاتزال تفتخر بأنها بمنجاة من الكارثة العامه .

وأخـذ الخط الحديدي يبتعد عن الشاطىء مخترقاً السهول والوديان ومارا بغابات من الاشجار الجمة ذوات الاثمار التى تتعانق فوقه لتخفيه تحت ظلالها الوريقة . ثم تراءت لنا عن بعد صحيفة فضية بيضاء منبسطة على الثرى ، فلما وصـل القطار اليها اذا بهالجة من الماء يخترقها الخط الحديدى وما هى الا بحيرة سبنجه الممتدة من خليج أزميت . وهنا ابتـدأ الجو يترطب وانبعثت الروائح الزكيه من الاشجار والادغال وأخذت الشمس الجانحة الى الغروب ترسل أشعتها الذهبية على صحيفة الماء الفضى .

وأقبل الليل مسدلا خماره الاسود فتعالت جلبات العربات التي تجرها العجول تحت جنح الظلماء وهي موسقة بالفواكه المتنوعة قاصدة المحطة ولها أريج عطري شديد يملأ الجو . وكانت محطة سبنجه هي محطة الحدود الوطنيه . وقد أرادت الرقابة الانجليزية أن تبذل جهدها فى حجز الركاب هنا الا ان العناصر المقاتلة فرت ثم عادت مسرعة الى القطار ومكنت الركاب من البقاء فى أماكنهم

وهنا اشار ناظر المحطة الى القطر اشارة المسير فانطلق لاول مرة فى منطقة الخطر التى لا ينقطع القتال منها ما بين الانجليز والوطنيين العثمانيين ساعة واحدة . وأخذ الركاب يتسأولون فيما بينهم هل قناطر وطرق وجسور مضائق قره صوه لا تزال صالحة للسير فيها ؟ ولكن من ذا الذى يستطيع أن يجيء بالجواب الشافي ؟

على اننا عندما وصلنا الى هذا النهر وجدناه حافلا بالجنود التى تحتشد على جانبيه ومعابره لا تزال قابلة للمرور فوقها وهنا فتح باب مركبتي ودخل منه ثلاثة رجل يحملون مصابيح فى احزمتهم وتقدموا الى وطلبوا منى بصوت خشن كالعادة المألوفة لدى الانجليز أن ابرز لهم جواز سفري وبعد أن اطلعوا عليه غادروني وانطلقوا فى سبيلهم

اسكي شهر

لقد كانت مدينة اسكى شهر هي نهاية هـذه المرحلة وعندها تكررت تلك المأساة الانجليزية المضحكة نخف الينا اولئك الانجليز المتوحشون يطلبون مني ابراز جواز السفر مرة اخرى واذ ذاك اشتد اللجاج وتعالت اصوات المهاجرين مابين جنود وجندرمه وبوليس ومدنيين نساء ورجالا كبارا وصغارا ولم يبد من الانجليز مايدل على انهم راغبين فى المحافظة على النظام والامن العام

وبدت ساحة اسكى شهر خالية من كل ذى حياة وقد أخـذ ضوء القمر يشق ظلام الليل فيجعل منظر هذه الساحة مستوجباً للوحشة والكآبة وأية ليلة هذه! ان جمالها كان عظيما اذ كانت السماء مرصعة بالكواكب والنجوم التي تتلألأ فى قبتها حول القمر الزاهر . ولكن كل هذا الجمال الطبعي لم يكن ليزيل الوحشة التي تتملك النفوس بل كان يزيدها ! وأخذت ابحث عن الرسل الذين ينتظرونني ولكن على غير جدوى. فاين هم وكيف الوصول اليهم؟ لاادرى

واقبل الحمالون الى القطار فحملوا اثقال الركب وانطلقوا بها الى الفنادق الموجودة فى هذه المدينة وسواء أكانت هذه الفنادق يصح ان يطلق عليها هـذا الاسم حقيقة أو هي اماكن بسيطة

حقيرة يأوى اليها المضطر للضرورة القصوى فقد كانت كافية على كل حال لايواء من يأمها مثلى بعد نصف الليـل . وعلى ذلك فاني لم اختر فنـدقا منها بل قصدت اولهـا الذى كان يديره اناس من الاروام العثمانيين

امامدينةاسكى شهر فمنذ ان احتلهاالوطنيو ن العثمانيون تخلى عنها الانجليز واقتصروا على احتلال محطتها اما ساحة المدينة وشوارعها فلم يعودوا يجرأون على السـير فيها وكان المتأمل يرى المعسكرات الانجليزية ممتدةعلى بعدثلاث كيلومترات ، وهنالك تسمع طلقات البنادق وجلبات المعارك

الضيق فى الاناضول

استيقظت اسكى شهر صباحا فى صفاء الخريف ولـكنها كانت لا تزال خالية من السكان فاين يختبئ اصحابي الفـدائيون ؟ وطال الضحى فداخلني شئ من السأم وأخذت اسائل نفسى اذا كانت سياحتي لاتقف بى عند هذا الحد ؟

وفى السـاعة الثالثة ، كأننا فى ملعب تياتري قد تغيرمنظره فجأة أو كـأننا نستعرض امام انظارنا صفحة من حوادث الف ليلة وليلة ، اذا بكل ماحولى قد تغير فالفندق الذى نزلت به انقلب الى مكان

فخم مؤثث بالبسط والطنافس والمقاعد الوثيرة والكراسي الكبيرة التي أحضرها الحمالون على ظهورهم . وهكذا أظهرت البلدية عنايتها بي واحتفاءها بمقدمي . واقبل رسول خاص من قبل الوالى يعلن قرب زيارته لى وأنه قادم مزوّد بمخابرة مهمة . فلما علم صاحب الفندق بهذا النبأ غمره السرور وافتر ثغره عن ابتسامة .

وبعد قليل سمع صوت حوذي في الطريق ورنة سوطه وهو يلهب جواديه . ثم وقفت مركبة امام باب الفندق وتلتها مركبات اخرى آتية من خلفها واتحد رجال السلطة الوطنية من هذه المركبات ودخلوا بأبهة الفندق . وكان هؤلاء الرجال هم الوالى ورئيس البلدية وكاتما اسرارهما وبعض الاعيان ومعهم بالسماء ! صحافي . وهكذا سيتردد صوتى فى الاستانة ناقلا كل الكلمات التى سأفوه بها .

وكان رئيس البلدية كهلا وقورا تلوح عليه سيما المهابة والقوة وأخذ يقول لى :

« ما هى عواطف فرنسا نحو الامة العثمانية الحقيقية ؟ وبأية طريقة سيبحثون عندكم فى الاتفاق الذي يراد ابرامه بين الامتين ؟ وماذا يقول رئيس حكومتكم ؟ انه متقدم فى السن وهو بالطبع رزين حكيم أليس كذلك ؟ »

وما كان هذا الكهل المحافظ أي ذو المبدأ القديم الذى استجرته الوطنية العثمانيـة الي اعتناق مذهبها ليرضيه الجواب المستفيض وعلى ذلك عاد الى وصل حديثه من غير أن ينتظر اجابتي فقال :

« اننا لانطلب اكثر من أن نعيش وان نستنشق الهواء وان نعمل بحرية فهل هذا الطلب شيء خارق للعادة ؟ »

ثم أخذ الوالى يتكلم بينما ذلك الشخيخ يجرى حبات سبحته بين أصابعه . وأشار الى اسكي شهر مظهرا انها اصبحت عرضة للدمار مابين المدافع الانجليزية والقوى الوطنية بسبب العمل السيء الذى يقدم به اولئك العمال الانجليز اليونانيون ، ثم وصف فظاعة الضباط الانجليز المتحكمين فى المحطة .

وبعد ذلك أخذ الصحافي يتكلم فى دوره فاظهر استخفاف الانجليز بالمصائب والآلام التى يعانيها العثمانيون الوطنيون قائلا : وماذا يهم الانجليز من الضيق العظيم الذى يرهق الاناضول ؟

ثم قام الزائرون واستأذنوا فى الانصراف واتباعا للعادة العثمانيه استبقوا الى نهاية الحديث أهم مالديهم من الموضوعات التي جاءوا لتبليغها الي أذ قدموا لى خطابا من على فؤاد باشا كان قد وصل حديثا بواسطة فارس قدم به من قبل الباشا

وهذا الجواب يتضمن أن الباشا المذكور وهو قائد الفليق العشرين المعسكر فى انقره قادم فى الطريق لاجل مقابلتى . وانه سيصير غداة الغد فى ضواحى اسكى شهر ويرجو منى أن اتفضل بمقابلته فى قرية لا يريد أن يصرح باسمها . وأن كوكبة من الفرسان ستحرسنى فى اثناء انتقالى الى تلك القرية

وبعد أن أتم رجال السلطة فى أسكى شهر عملهم الذى عهد اليهم القيام به لدي اختفوا من امامى كاشباح تحت جنح الظلام . وقد دعيت الى قصر الحكومة فى تلك الليلة نفسها

فى قصر الحكومه

لقد تواجد فى هذا القصر كل من يعتد به فى أسكى شهر . ففضلا عن حضور كبار الرجال الرسميين وأعيان التجار حضر بالمثل الاطباء والمحامون وأساتذة المدارس وزهرة الشبيبة المفكرة. وكذلك أقبل عدد كبير من الضباط .

وافتتح الوالى الحفلة ففاه بالفاظ تحية الاستقبال التى نقلها الي المترجم ثم شرح بالتدقيق حالة الخصومة القائمة ما بين الانجليز والوطنيين ولكن الرئيس الكهل كان الشغف يلهب جوانحه لان يقول كلمته اذ لم يستطع السكوت ودخل فى ميدان الحديث

عنوة واقتدارا . فأشار اشارة واسعة النطاق الى المجتمعين الغاص بهم المكان مظهرا أن كل هؤلاء الرجال انما اقبلوا من كل حدب وصوب ليعرفوا ماذا تريد فرنسا أن تصنع وهم ينتظرون تداخلها .

وهنا انحنت الرؤوس المعممة حول المائدة وتزاحمت لتتمكن من حسن الاصغاء ثم قال :

« أستبرك فرنسا شعور الرجال الاوفياء الشجعان الموجودين فى هذا المكان ؟ وهل ستدرى لماذا ارتبطوا بالوطنية العثمانية على ماهم متصفون به باعتبارهم تجاراً متقدمين فى السن من التؤدة والحكمة والوقار ؟ ذلك لان انجلترا لم تظهر لهم الا أدلة حقدها عليهم واحتقارها أياهم ! حقيقة أن زعماءنا العسكريين يطالبون بمطالب فادحة ولكنهم هم الذين يستطيعون وحدهم انقاذنا من الاستعباد واننا لن نرضى بأن نكون عبيداً . فاذا كنتم تمنحوننا مطالبنا العادلة فأننا نتعهد بان نجعل ابطالنا الشجعان يلتزمون خطة الاعتدال »

وهنا بدت على الضباط علامات الامتعاض الا انهم لم يجرأوا على الاحتجاج وما ذلك الا لان هذا الشيخ الوقور كان ذا نفوذ عظيم فيهم

ثم حانت ساعة تجلى الافكار فقال ذلك الرئيس : « أن القائمقام خليل بك الذى كان موجودا فى المعسكر العثماني بأزمير

عند ما دخلته الجنود الرومية حاضر هنا وهو يريد أن يقص عليكم بنفسه ما حدث له . وسيقول لكم ماذا رأى وماذا اضطر الى تحمله من الارزاء »

فساد السكوت العميق على الموجودين وشرع القائمقام يسرد سيرته آونة باللغة التركية وتارة باللغة الفرنسوية وهو يتحرى في سرده مجرد الحق فلا يتعدى وصف ما مر ازاء بصره من الحوادث كما هي . وما شاب حديثه بشيء من المغالاة ولا تعمد التأثير في عواطف سامعيه بل اقتصر على استعراض ما في ذاكرته والذاكرات الشرقية ذات وعي لا علم لنا بمثله لان ذاكراتنا مفعمة بالتأثيرات وبخلاصات المطالعات

واخذ صوته يرتفع بالتدريج ولهجته تزداد حماسة ازاء التأثر الذي اظهره السامعون الذين كانوا ينصتون الى القائه بميل قوي مع انهم سمعوا منه ومن غيره انباء تلك الحوادث مئات من المرار

وتضمن مقاله ماحدث من اطلاق البنادق على الرجال العزل من السلاح واخراجهم من الثكنة لتسفيرهم مشيعين باللطم والضرب والتهديد واصفا حالة الطريق الملوث بالدم من المعسكر الى الميناء وما صدر من الاهالي الاروام من ضروب السباب وفحش الكلام وما توالى من القذف والاهانة في حق الاسلام . فأدى كلامه هذا

الى اهتزاز رجال الحكومة من الغضب . ثم أظهر الخطيب آثار جراح تغطي جبينه وقال :

« لقد أصبت بغير هذه الجراح من قبل وأما هذه فأن اصابتها قد انطبعت على اظهر مكان من جسدي فلن أنسى ما لحقني من عارها أبد الدهر . »

وهنا اعترض أحد المعممين قائلا : « اجل اننا لننساها على شرط أن تحررنا أوربا من هذا الذل »

واذ كان من خليقة المحامي الليان والمصابرة والعمل على التوفيق ما بين المتخاصمين فقد انبرى احد المحامين من ذوى الذكاء المتوقد لعرض ما يمكنني أن أتخذ منه مادة صالحة للدفاع عن الوطنية العثمانية امام الرأى العام الفرنسوي فقال :

« سنريك مدارسنا ومتحفنا الصغير ومكتبتنا وستخاطبين اساتذتنا وموظفى مكتبتنا وممرضاتنا . كما انك ستقضين بيننا عدة أيام ترين فيها بعينيك حياتنا الاعتيادية وتتعهدين أعمالنا ومجهوداتنا التي نبذلها في تنظيم وترقية سائر شئون هذه الحياة . وبعد أن تحصلي على المعلومات الكافية عنا يمكنك أن تقولى لمعشرك اننا لسنا من الهمج المتوحشين »

هذه هي الاقوال التى سمعتها من هذه النفوس المتلهبة

غيرة وطالما سمعت امثالها من آخرين سواهم !

فى وسط الحكم العسكري

انتظرتنى كوكبة الحرس فى صباح اليوم الثانى فى الساحة الكبرى وكانت الخيول المسرجة تنتظرنا ما بين كل مكان وآخر لنمتطيها بدلا من الاخرى لنتمكن من الوصول بسرعة شديدة وكانت مركبتان تذهبان وتجيئان من باب المحافظة زيادة فى الاحتياط ومن باب المبالغة فى المحافظة اتخذت اجراءات تشغل الضباط الانجليز الموجودين فى المحطة عن الوقوف على سر مسألتنا فلا يعلمون حقيقة هذا الاجتماع ومكانه

وقدمت الي مركبة يقودها حوذي مرهب المنظر قوي العضل مفتول الساعدين تنزل عمامته البيضاء الموشاة بالقصب الى اذنيه فركبت وساط جواديه فانطلقا بالمركبة يطويان الطريق نهبا . وقد اتخذت هيأة الحرس من ضروب التحوط كل مايخطر على البال وان كان المثل الشرقي يذهب الى ان الحذر لاينجى من القدر

وكان الجو رطبا منعشاً ، وعلى حين فجأة لوى الفرسان أعنة جيادهم فانطلقت خبباً فى وسط الحقول ، فتراءى عن بعد فى وسط الجبال خط من الخضرة المتماوجة وما هو الا مزارع القرية المعينة

مكاناً للاجتماع . وبعد قليل مرت المركبة من معبر ضيق محصور بين جدارين مشيدين من الصخور وخلف هذا المعبر تنبسط اقطاعيات الحكم العسكري وهى أرض مكسوة بالاعشاب الغضة التى ترعاها قطعان عظيمة من الانعام .

وبعد هنيهة وجيزة وصل على فؤاد باشا ودخل فى البيت المشيد من الخشب والمخصص لهذا اللقاء . وكان قد قطع المرحلة الاخيرة من سفره عدوا بالجياد وحوله حراسه الشراكسة . وبالتقائى معه أكون قد قابلت لأول مرة الضابط الوطني الصميم العظيم . وهو جندي وسياسي فى آن واحد مدرب على استعمال كل أنواع الاسلحة وعلى الخوض فى كل ضروب المناقشات السياسية .

وأخذ هذا القائد العظيم يطرح علي الاسئلة تباعا فى النقط الآتية : ماذا يريدون في باريس فيما يختص بالمؤتمر الدولي ؟ وما الذى ينوونه للامة العثمانية ؟ أتقسيما ؟ أو اشرافا ؟ أو مراقبة ؟ او وضعها تحت حماية سائر الدول ؟

وما كان ينتظر الاجوبة التى كنت أحاول أن أجيب بها على اسئلته المنحدرة كالسيل من أعالى الجبال ؛ وذلك لانه لم يكن قد قضى اثنتي عشرة ساعة فى طي الطرق وعرها وممهدها ركضا بالجياد الصافنات ليسمع مني أجوبة أو ليدخل معى فى مناقشات وتفاصيل

هو فى غنى عنها وانما أقبل من ذلك المكان القصي ليوضح لى وجهة النظر العثماني الوطني فى الاحوال الحاضرة .

واقبل بعض اخصائه محاولا ان يجلس بجواره فتلطف فى ابعاده عن المجلس . وكان اركان حربه جلوسا فى الغرفة المجاورة للتى نحن جالسان فيها

وابتدأ على فؤاد يتكلم فقال : « اننا لن نقبل الرقابة الانجليزية الفرنسوية أبداً وأما الرقابة الفرنسوية فربما . أفلا ترين كيف تتلاعب انجلترا بكم ؟

وهنا انفجر بركان حقده ضد المؤامرات البريطانية وضد الطرق التى ينتهجها الضباط الانجليز المجتذبين من الجيش الهندي. ثم أشار الى النقائص الصادرة منهم وبدأ عليه الغضب لمحافظتنا على تحالفنا معهم . وكان مركزه يمكنه من معرفة الطرق التى يتبعها الانجليز فى تداخلهم فى شئون البلاد حق المعرفة فأخذ يشرح أمثلة من تلك الطرق ذاكراً ان أحد الضباط الانجليز سار من محطة أسكى شهر مسافة ثمانية كيلو مترات وهو يركض بجواده وخلفه جندي من خيرة الاجناد ممسك بذنب جواده وهو يتبع الراكب فى سيره ، وكذلك قتل أحد كبار الضباط لانه لم يجب نداء أحد الحراس الهنود عن بعد ثم وعد الباشا بأن يقوم بالاحتجاج

اللازم على أمثال هذه الاعمال التى لاتسمح بها التعليمات العسكرية ولا الحقوق الانسانية . وقال بعد ذلك : « لقد اتبعنا حتى الآن فى مقاتلتنا الانجليز الطرق الحربية النظامية ولكن خصومنا يحرجوننا الى درجة تجعلنا نقتدى بهم فى أعمالهم . »

ثم تكلم عن البولشفيك الذين يتاخمون الولايات العثمانية الشرقية وما يقال عنهم من الاقوال المتناقضة التى تارة ترميهم بمخاشنة العثمانيين وطورا تجعلهم احلافا لهم يمدونهم بكل مافى وسعهم من مال وذخائر وكذلك تكلم عما ينسب الى المانيا من أعمال المساعدة . وبما انه كان قادما من جهة القوقاز فقد كانت معلوماته فى هذا الصدد بالطبع محل الثقة والاعتبار ولهذا فقد كان يتكلم بقوة جنان وحدة ويدفع التهم وينفى الاكاذيب وقد اشتد الجدال بيننا وتمسك كلانا بوجهة نظره واخذنا نختلف ثم نتحد مرارا . ولكن من ذا الذى يستطيع ان يثبت على حالة الانفعال والهياج امام هذه المناظر الطبيعية المنتشرة امام الانظار بأشكالها الفاتنة وجوها الحلوي الريفي النقي ؟ لقد ارتاحت نفوسنا وعاد الانشراح الينا وأخذ الباشا يتبسم ويتلطف فى حديثه ويعتذر عما بدر منه من الاندفاع الصادر عن قلب غيور ملتهب بأشرف العواطف الوطنية . ثم كيف يمكن البقاء على التقطيب والتجهم ازاء أطايب المآكل وملاذ

المشارب التى تهش لها النفوس وتتفتح لها الشهيات بمجرد نظرها ، على اننا لم نزد على جلوسنا حول المائدة الممدودة على النسق العثماني فوق بساط بديع الصنع حتى كانت كل عوامل التأثر والحدة والاشتطاط فى الجدال قد زالت باسرها وأخذ الباشا يعتذر عن عدم الاستعداد وبساطة الاطعمة .

وكان الاعيان قداحضروا المآكل الفاخرة من أوز مسلوق وأرز وعسل وزبيب ومختلف الالبان وأخذت هذه الاطعمة تستجرنا بمناسبتها الى موضوعات شتى فانتقلنا من حديث الارز الى اصدقائنا فى باريس الذين كنا قدتناولنا لديهم هذا الطعام الشرقي الشهي . وأدى سياق الحديث وذكرى متارف باريس وعيشتها الهنية الى ان تبدو على وجه على فؤاد باشا مسحة من الكآبة وجالت فى عينيه الزرقاوين آثار التأثر العميق وقال :

« أجل تلك حياة اللذة والتنعم وأما نحن هنا ففى حياة ما أشقاها وأقساها ! نحن هنا نكابد آلام الشظف والتعرض لأشد الاخطار ولا ننفك ساهرين ملتزمين طوال الايام حالة الدفاع عن النفس والوطن . . . »

وأخذ الضباط الذين شاركونا فى هذه الوليمة البسيطة اللطيفة يوافقون على فؤاد باشا على قوله الاخير فقال الباشا وقد انبسطت

نفسه فى هذه المرة ولم تعد تبدو عليه علائم الغم والغضب :

« نعم أنه ليسهل على أولئك الذين يعيشون فى الامان والطمأنينة ورغد العيش وفى وسط معالم المدنية الجذابة الشائقة وهم مرتاحو الضمائر المتيسرة لهم كل مطالبهم ان يلوموناعلى جفوتنا وخشونتنا . »

ويظهر أن الباشا لم يشأ أن يختم حفلة هذا الاجتماع بما يدعو الى السأم والامتعاض ويترك أثرا سيئا فى النفس فأخذ يوفر اسباب الابتهاج والانشراح فانقلب هذا المسكن الى جنة حافلة بكل بواعث السرور وحمل الينا الاعيان أباريق المرطبات التى تنبعث منها الروائح الذكية وتقدمت الينا فناجين القهوة التركية كما بطست امامنا الصحف الفضية الملأى بالسجاير العثمانية الشهيرة . فطاب مجلسنا وأقبلت النسمات الخفيفة من الخارج تحمل على أجنحتها الرقيقة اريج الحقول الحافلة بمختلف الازاهير .

وتبادلنا جمل الوداع المستفاضة فى الفاظ الود والاخلاص ويمكن التأكيد بأن على فؤاد باشا ليس من المتطرفين فى كراهة الانجليز ويستطيع الاجنبي أن يجد من القول فى هذا الصدد ما يقنع به الاذهان التى قد تكون متشبعة بالافكار السيئة عن هذا القائد الحازم

وخرجنا من البيت فوقف على فؤاد باشا بجانبي واصطف الموجودون حول مركبتي يؤدون آخر واجبات التحية والاحترام الشرقي الذي يملأ النفوس ارتياحا ثم وجه الىّ على فؤاد باشا هذه الالفاظ الاخيرة ومركبتي تتأهب للانطلاق بي :

« ان الانسان فى الساعة التي يرى نفسه فى حالة يأس وألم عظيمين ويضطر الى التشدد فى المجادلة والاقناع قد يتوصل الى احداث حسن التفاهم الذى يسود بينه وبين من يحادثه والالفاظ الصادرة من قلوب فائضة بالاخلاص لا يمكن أن تذهب عبثا . »

مدينة تحولت الى الطراز الحديث

لقد اخذت السلطة الوطنية تحول كل مايقع تحت اشرافها الى طراز حديث يساعد على القيام بمقتضيات حاجيات البلاد فمن ذلك انها قد اصلحت حالة الزراعة والشئون الاقتصادية الريفية فى مدينة اسكي شهروضواحيها . وفى الواقع ان خلفاء الاتحاديين أرادوا ان يتمموا بنشاطهم المعهود وغيرتهم الوطنية المضروبة بها الامثال ما كانت جمعية الاتحاد والترقى قد شرعت فى اجرائه قبل الحرب الكبرى بل وفى اثنائها . ولقد زرت معاهد الترقى فى هذه المدينة فوجدت مدارسها ومجتمعاتها غاية فى الابداع وقد أكملوا تنظيم

مكتبتهم ووضعوا أساس مرصد فلكي على احدث طراز . ولقد يبتسم البعض عند سرد هذه الاشياء لاعتقادهم ان الوطنيين لم يتعدوا دائرة التقليد ولكني اتطلب من ذلك البعض ان يمسك عن ابتسامه فليست هذه الاشياء تقليدية وانما هي مبتكرة ابتكارا لأنها منشأة على طراز يتفق مع حاجة ابناء البلاد

اول مسجد عثماني

وكان قد جاء في العشية الماضية من اسلامبول نفر من خيرة فتيان العثمانيين المتوقدين ذكاء وغيرة والمتجملين بفنون الآداب والعلوم وهم مابين شاعر وسياسي وفيلسوف وقصدهم الشخوص الى سيواس . فالتقوا بي وقالوا لي :

« أما الآن وقد طفت معاهدنا ورأيت بعيني رأسك ما احدثناه في الايام القلائل التي نهضنا فيها في وجه التحكم والاستعمار من اسباب الرقي والنظام واجبت على كل الخطب التي القيت بين يديك بما استدعاه المقام فأننا نطلب منك ان تزوري مالا نسمح باطلاع أي اجنبي عليه وهو المسجد الذي عند ماوصل أول عثماني الى هذه البقاع الاسلامية اعلن فيه انضمامها الى السلطنة العثمانية . »

وكان في جملة القادمين بالأمس من الاستانة الدكتور س ...

فانضم الينا وأخذ يلطف من غلواء رفاقه المتحمسين عند ما كانوا يندفعون فى التغنى باناشيد الانتصار ذاكرا لهم بما يمهدفيه من الروية والحزم ان الحرب انما بدأت الآن فقط تحتدم ما بين الطرفين فليس ثمت ما يستوجب الافتخار وذكر الانتصار .

وكانت الجياد قد اعدت لنا فامتطينا صهواتها وذهبت بنا خببا الى أجمة ملتفة من الاشجار الكثيفة تكاد تشعر بوجود قرية كبيرة . ولكننا ما كدنا نبلغها حتى بصرنا ببيتين أو ثلاثة بيوت ومسجد صغير وعين تتفجر منها المياه الملتمعه ذات الخرير اللطيف وحوله طيور غردة تملأ الجو بأصواتها العذبة اللذيذه . وعلى عتبة المسجد واقف سليل عثمان ومعه ابنه الذى يمثله تمام التمثيل وقد لبس تلك الثياب الاثرية التى كانت شعار العثمانيين الاول وكان لهذا المنظر بهجة فى العيون وانشراح فى الصدور . فقال لى هؤلاء الصحاب : « الا ترين هـذا الفتى الصغير بملبسه الوطني الاصيل آية فى الجمال ؟ انه يمثل بتقاطيعه وثوبه جده الاعلى تمام التمثيل . »

ولقد استقبلنا هذا الاناضولي الحسيب فى بيته استقبالا يليق بكرامة عنصره النبيل وكان داخل البيت قد اكتسي حديثا بحلة زاهية من الألوان وقد جملته الصناعة العربية والنقوش الشرقية بأبدع الاشكال فجعلته تحفة مع انه مكان قروي خلوي

وجلس كل منا وفق هواه وراحته فاقترب رفاقى فى الطريق من نيران المدفأة . وكانت النوافذ المفتحة تسمح للنسمات الرطبة التى تسبق عادة سقوط الامطار بالدخول فتشعرنا بقرب تغير الطقس . وقد أثر منظر هذه الجهة الوطنية البحتة فى نفوس الشاعر والسياسي والفيلسوف بل لقد حرك هـذا المنظر فى نفس الدكتور نفسه ذكرى الماضى الذى لا تزال صورته مخطوطة بيد الطبيعة فى لوحة هذا المكان وهى سالمة من تصرفات الحدثان

ثم قالوا لذلك العثماني : « غنّ لنا لحنا من ضروب الالحان القديمة وليكن ذا نغمة غرامية مطربة شجية »

فأخذ هذا الاناضولي يبعث بصوته العـذب الرنان منشدا قطعا غنائية على طريقة ترتيل سور القرآن . وترجم الشاعر ما كان يترنم به المنشد واذا به نشيد قديم من عهـد الفتح يتضمن مجيء الفارس الاول الى هذه الاراضى الخصبة . وكانت هذه الانشودة تتضمن معنى الحياة الاولى تلك الحياة الفطرية الخالية من شوائب التكلف والصناعة فأثرت معانيها فى نفوس السامعين الذين غابوا عن عالم الحس امام هذا التجلى العظيم ولم يعودوا يشعرون بالمكان والزمان بل انتقل بهم التصور فى عالم الخيال الى ذلك العهد الجليل الذى كان يرتسم فى تلك الالفاظ المرفرفة من فم ذلك المتغني

وأخذ السيل ينحدر من الجبل الهوينا واقبل الليل فوجب الارتحال ومغادرة هذا المعقل الاسود

وكأنما تأثير الحقيقة الملموسة قد جعل هذا الاناضولي يتفطن هو كذلك الى نصيبه من الواجب ازاء الحالة الراهنة فأعد خطبته التي القاها بلغته القومية وفيها يوجه الى اوربا مر العتاب وكانت بسمات الملاطفة العثمانية المعهودة تلطف تأثير الشدة المنطوية عليها عبارات هذا الخطاب غير ان الجملة كانت على كل حال هائلة فقد جاء فيها :

« لماذا تعاملنا اوربا مثل هذه المعاملة المجردة من روح العدل دون أن تسمع منا كلمة واحدة ؟ بل لماذا تحرمنا من حق الحياة ؟ وهل انتم اصدقاؤنا ام انتم اعداؤنا ؛ ولماذا منيتمونا بالصلح في حين انكم لاتريدون الا محاربتنا ؟ »

وكانت الفاظه تخرج من فمه واضحة رنانة كما انه أشار بيده الى المنبسط الذى امامه مظهراً تلك الارض الخصبة التي يجب على كل عثماني أن يدافع عنها الى آخر قطرة من دمائه

قونيه

كان لفيف من الضباط العثمانيين على رصيف محطة قونيه

فانفصل منهم حاجب رأفت باشا وكان اذ ذاك قائمقاما واقبل مسرعا لملاقاتى . وأنى هنا امام مجتمع عثماني بحت اعرق من مجتمع اسكى شهر فأننا اصبحنا فى صميم آسيا

ووجدت نفسى لأمام حكومة بديعة فخمة ذات جلال وعظمة كما يجب أن تكون الدعوة التى تنتشر لاجل مصلحة الحركة الوطنية العثمانية بل امام هيئة وان كانت حافظة للترتيب الضروري الا انها فى منتهى مايكون من البساطة ، هيأة مؤلفة من افراد يتحملون اشق الصعاب ويعانون اعظم الآلام فى سبيل تحقيق اسمى امانيهم القومية غير متململين ولا متذمرين من فداحة الاعباء الملقاة على كواهلهم لانهم قد قبلوا هذه الحياة القاسية التى تكاد تعتبر من ضروب الفاقة والشظف وهم شامخو الانوف كبار النفوس مستعدون لتحمل كل تضحية ليحققوا المبدأ الذى تشبعت به قلوبهم .

ولقد التقيت بهؤلاء القوم فى هذه الآونة الوحيدة التى تغلبت فيها شدة القتال وحماسة النفوس من جراء الانتصارات الاولى على كل شاغل آخر

على انه لابد من تولد عواطف اكثر تضاربا فيما بعد من استطالة الزمن وتعدد المجهودات اذ يتغلب التشاؤم المؤلم واليأس

المضعف على روح الحماسة الخالبة . أما اليوم فلا يزال فجر البعث أي التولد الجديد مشرقا بالآمال والتصورات المذبة السامية

لقد احتل الوطنيون مدينة قونية منذ بضعة أسابيع فقط وكانت جمعية الائتلاف والحرية قد حسبت انها تستطيع الاستيلاء على هذه المدينة اذ كانت تعتمد فيها على عدد كبير من الانصار والمشايعين غير ان رأفت باشا دخلها فاتحا بدون مقاومة تذكر.

وبعد ساعة من وصولى الى الفندق وصل اليه هذا القائد ودخل بهوه . وكان بالتأكيد احد الرجال الوطنيين العظماء الذين شتهروا بشدة الجاذبية النظرية والتأثير وشدة التعقد والغموض . وكان مرتديا الثوب الرسمي للجندي البسيط ومشيته هي التي كانت تنم بمفردها على مرتبته الرفيعة . وكانت نظرته المنبعثة من بصره الحاد تحت قلنسوته الاستراخانية تشبه نظرة النسر الكاسر وتتصوب الى محدثه كالسهم النافذ ، الا ان صوته المتناهى فى الرقة واللطافة يتلافى وقع تلك النظرة . وعدا مشيته كانت كلمته الا مرة القوية التي تنفذ الى اعماق القلوب وتشمل مجموع الشخص الذى يحدثه بطريقة لا يمكن ايضاحها تنم أيضا على زعامته وقدرته .

ومع ذلك فأن وطنية رأفت ذات معنى خاص بها ككل ما يتعلق بشخصه فهو يشترك مع زملائه فى قوة الارادة وفى حدة

العصبية المتغلبة على امزجة اولئك الذين يكافحون ليل نهار والمعتادين على التزام الصمت الدائم والذين لهم ثقة تامة فى انفسهم ولا ينكفون عن التأمل والملاحظة ، غير ان ابتسامة رأفت لم تكن ترتسم الا على شفتيه فقط فلا يماثله فيها سواه ، وهى بسمة ذات معنى رقيق محدود يتلاعب بالنفوس وذات تهكم لايماثل بسمة رجال ضليع من الآداب والعلوم ، رحل واقف على كل شيء مستخف بكل انسان حتى بنفسه ولكنه عند اول اصطدام جدلي مع محدثه تتبين فيه طفرة ، قوة ارادته التي لاتغالب . وفى الحال يرتسم على جبينه خط عميق لايمكن محوه مادام هذا الرجل الحربى لم يفز على خصمه بقوة البرهان الذى يدلى به .

وقد افتتح رأفت حديثه بعرض مسألة ازمير فى اجلى مظاهرها وكان فى هذه الاثناء هو الذى يقوم بادارة كل الحركات الموجهة ضد اليونانيين

وقد تدلى من التكلم على ازمير الى التكلم على اطنه ولقد كان لهذا الموضوع دهشة هائلة اذ انه لم يبد مقدمات بل هجم على الموضوع مباشرة .

فى اكتوبر عام ١٩١٩ لم يكن احد فى فرنسا سوى الدوائر الوسمية يعلم بعد بقرب انسحاب الجنود الانجليزية من عينتاب

واورفه ومرعش وحلول جنودنا الفرنسوية محلها . الا أن رأفت كان قد علم بهده المسألة فلما اجتمعنا اخذ حينئذ يخوض فى هـذا الموضوع وهو منفعل هائج النفس محتدم غيظا ضـد مشروعنـا المدائي الذى سنحتل بموجبه كليـكيا ثم التفت الىّ وقال :

« تذكرى هذه الـكلمة : أطنه . وأعيديها مرارا وتـكرارا فى بلادك وقولى لمشركـ اننا لن نتنازل عن اطنه ، عن تلك الولاية العثمانية على الاطلاق . ان هـذه هى العقدة "عسير حلها فى كل المسائل التى بينكم وبيننا »

وكانت أمثال تلك الـكلمات حينداك تكاد لاتـكون ذات معنى مفهوم . ومن ذا الذى كان يحسب فى معسكرنا اننا سندخل فى نزاع فرنسوي عثماني لاجل كليـكيا ؟ أن رأفت هو الشخص الوحيد الذى كان على علم تام بتفاصيل هذه المسألة .

وقد عرض علي بمنتهى التلطف والوداعـة أن يمكننى من التخابر مباشرة بواسطة التلغراف السلـكي مع مصطفى كمال ومن تبادل المناقشة والادلة المختلفة . ولـكن علام تحمل هـذا العناء ؟ انى أعلم ان كل كلماتى ستنقل اليه حرفيا فى هذه الليلة على ان ما احمله هنا هو شيء قليل من باريس عن موجبات دهشتها ومما تنتقده على الوطنية العثمانية . ومع ذلك فان هؤلاء المحصورين المنعزلين فى جانب

من بلادهم لم يتعضوا من الانتقادات ومن الدهشة التي أحدثها عملهم الجرىء . وكل لوم او ثناء لايحدث لديهم الا عكس ماينتظر فى الحال . ومع ذلك فأنهم يتحملون الاحكام المقرونة بشيء من القسوة عليهم : أن هؤلاء الذين يحيط بهم الخطر من كل جانب يقدرون الصدق والاخلاص حق قدرها ولقد عدنا مرارا الى المناقشة والمجادلة

اواحة ام سراب ؟

قونية وهي أيكونيوم القديمة أوبالاحرى الصورة الخيالية التي كانت القوافل تلمحها فيما سبق عن بعد سحيق، فتتراءى لها بعد عناء اجتياز وعور الكردستان وسلاسل جبالها الواحة التى تشتاقها النفوس بعد كل ذلك الوقت العسير . وكان يتراءى حول هذه المدينة التى كانت عاصمة السلجوقيين الباهرة سراب ، ولا يزال هذا السراب يلوح حتى اليوم .

ان قونية تظهر من اعالى الهضاب الرملية المشرفة عليها ذات سعة لاحدلها حافلة بالحدائق الغناء المحدقة بها والمآذن البيضاء المشرأبة منها . وكلما حاول المسافر اقترابا منها ازدادت تراميا فى البعد عنه . وما هو الاخيال لايمكن التعبير عنه تحار في كنهه المخيلات . ان

قونية لمن يتأملها من قمة الربوة التى وضع عليها الفاتح أول مسجد هى دائما العاصمة العظيمة التى قصدتها القبائل الرحل فى كل ادوار انتصاراتها .

ومن اراد أن يرى قونية فى ابدع مظاهرها فليتأملها من أعلى مكان ليمتع نظره بما تحتويه من التناسق اذ يرى ذلك الخط الاخضر الرجراج المتألف من حدائقها الفيحاء . وهذا المنظر هو الذي يتمثل من بعيد للفارس المجد فى البطحاء على بعد اربعين أو خمسين كيلو مترا من حدودها . فيخيل اليه انه يكاد يمس بيديه أبوابها فيحث جواده على الاسراع فى الركض وغالبا ان ذلك الحيوان المسكين يسقط من الاعياء قبل ان يصل الى ذلك الغرض المنشود .

ان هذه المدينة التى تفر من البصر كلما حاول ان ينعم التأمل فيها عن قرب منها ، والتى تجتذب البصر اليها لاتلبث أن تصير مادة السأم والقنوط اذ تصبح سرابا لامعا مما تعتاد العين على مشاهدة امثاله فى الشرق . ولا يوجد بلد آخر سوى قونية يمتاز بهذا المنظر العجيب فهي من بعيد بهجة للناظرين أو هي قصر سحري وحدائق آخذة بمجامع الالباب ومياه جارية ومناظر كطيف الحلم وهي اذا ماقربت منها ليست سوى الشقاء والحقارة والد من العافية اللهم الا بعض مساجد بالغة فى البهاء أعظم مبلغ

ولم يبق من آثار السلجوقيين فى هذه المدينـة سوى صخر هائل اتقنته يد الحفر والصناعة ثم آثار علاء الدين الفاخرة وأهمها تلك التكية الخشبية الذى ابدعت فى صنعها ونقشها المخيلات حتى أصبحت آية في دقة الفن وهى الموضع الذى يجتمع فيه الدراويش. وكذلك يوجد في هذه المدينة المساجد السبعة ذات الشهرة الذائعة . وحول هذه الآثار الفخمة الباهرة لايجد العابر سوى ارض متربة وجدر متداعية وسبل حقيرة وحفر متسلسلة !

المنبع الفياض للرجال

ان الضربة الجريئة التى تعجل بها رأفت تمت بلا جلبة كاذبة كـدأب الوطنيين ، اذ باغت بها الخصم ولم يدع له مجالا للعمل . واذا كانت الفتن لا تزال تعمل فى الظلام فان عملها لن يؤدي الى نتيجة ناجحة .لقد نثرت جمعية الائتلاف والحرية الغاصة خزائنها بالأموال الانجليزية المرتبات والاجور الضخمة على عمـالها واتباعهم فلم يجـد كل ذلك شيئا لأن قوى رأفت كانت على تمام الاستعداد وقد تجمعت وترتبت بلا جلبة ومن غير استئجار وأخذت تزداد زيادة مضطردة ولم يعلم احد كيف كانت هذه الزيادة وانمـا

كان المقترعون كأنهم يتساقطون من السماء . وفى الحقيقة ان هذا الينبوع المتدفق بازدياد كان سنساله مستخدم بمهارة فائقة فقد كان الميدان العام الكبير يغص فى المشية بجموع عظيم من الاسرى العائدين من مصر أو من الهند ثم لا يلبث ان يصبح خلوا منهم فى الغد . وما الذى كان يحدث لهؤلاء الرجال ؛ لا يعلم أحد ، غير ان المدينة كانت ترى حافلة ببضع مئات من الجنود المدججين بالاسلحة وهم ذوو وعزائم ثابتة وعيونهم ملأى بأشعة القوة والنشاط . أما اليوم فيدخل المدينة فلاحون وديعو الاخلاق راكبون عرباتهم الريفية التي تجرها العجول وبعد قليل يلبسون ثياب الجندرمه ثم يمتطون الخيول

ليالى قونيه

فى ليلة من الليالي القمراء الشرقية تمتزج فيها اضواء البدر البيضاء الشاحبة بهمة الليل فتكسبها جمالا خاصا لا يعهد الا فى الشرق ظهر سواد رجال قصر الحكومة فى مجموعهم الكثيف اذ خرج من تحت جلباب الظلام ضباط رأفت باشا وانتظم موكب منهم يحف بهذه الاجنبية ويدفع فى طريقه رجال الجندرمة الذين يحاولون ان يفهموا سبب احتشاد الموكب. ومرت هذه الكوكبة

فى طرق السوق العامة رافعة ما أمامها من السلاسل والعوائق التى تمنع الناس غالبا من المرور فى امثال هذه الاوقات المتأخرة من الليل . وكان الخفراء يطوفون فى كل مكان حاملين مصابيحهم فى ايديهم رافعيها الى رءوسهم عند مرور فئة الضباط وقدنطقوا بكلمة المرور منتظرين الجواب عليها ثم ابتعدوا . وكانت فى بعض الاحيان تظهر صورة غير واضحة الشكل فى تلك الظلمة المستنيرة بالأنوار الهابطة اليها من السماء ثم تختفي تلك الصورة فى تعاريج الطرق خلف الجدر الناهضة فتقف الكوكبة فى الحال لتتأكد من عدم وجود ما يحول دون استمرارها فى السير لانها كانت على تمام اليقظة والاحتياط .

وكان هذا السوق مجلببا بسكون مهيب لاتشوبه أدنى شائبة وله تأثير فى النفوس . وكانت الاسلاك الفضية الدقيقة المسترسلة من الكوكب الوضاح ومن النجوم الزهر والجو البارد الى الدرجة القصوى تذكرنا بالجهات الشمالية التى تتراكم فيها الثلوج . وتراءى مسجد يخترق القبة السماوية الزرقاء ذات الزرقة المشوبة بالسواد والتى لايعلم مقدار امتدادها الذى لانهاية له وانتثرت فى الافق آلاف من العوالم الخفية التى لا يلوح لها أثر فى أشعة النهار الضاحى ثم نتأمن الظلام شىء يسمع له صوت عذب خفيف كساه شحوب الليل

منظراً خاصا ولم يكن ذلك الشيء سوى عين متفجرة يتحدر منها سلسال مائها النمير الى بئر عتيقة على مقربة منها فيحدث خريراً لطيفا. وعلى مقربة من هذه العين ينهض باب عظيم من النحاس الاحمر ثم تنبعث نفحة زكية تحملها زفرات النسائم من حديقة مجاورة، وتهبط من القبة السماوية بعض أشعة مشبهة لبريق الفخار العجمي فتكسو كل الاشياء العتيقة حلة جديدة من الرواء والبهاء

رأفت هو الرئيس والأب والخليفه

وفى الصباح تحت أشعة الشمس الملتهبة اتضحت معالم قونيه فى أجلى مظاهرها وأمكننا أن نصعد الى القمم المحدقة بها فى غبار ذهبي تبلغ كثافته ستة أقدام، حتى اذا ما ارتقينا الى قممها صفا الافق أمامنا ورأينا منظراً بديعا فوق النجود الزاهية البديعة . وكنا نرى فوق كل قمة منظراً للمدينة مخالفا لمنظرها من فوق القمة الاخرى ، وماهي الامناظر الشرق الزاهية الفاتنة فمن أشجار باسقة وريقة الى أرض صفراء تحاكى الذهب الى وهاد عليها مسحة سنجابية فصخور من المرمر الوردي .

وأخذ شبان الضباط الطيارين يتجمعون حولنا ويمطروننا بالاسئلة المختلفة وهم شديدو الشغف باستطلاع الآراء الاوربية

منا ولا سيما ما نفكر فيه نحن الباريسيين من جهة الحركة الوطنية . وهم لايقبلون الاعتقاد بأن هذه الحركة ليست شغلنا الشاغل وهمنا الاكبر . وهم يمقتون انجلترا التى يقاتلونها كل يوم تقريبا ولكنهم، لايمسكون عن الخوض فى مظالمنا نحن أيضاً فيقولون :

« ان جور فرنسا أعظم الف مرة من كل ظلم آخر . »

وفى اعتقادهم ان العالم بأسره يجتمع فى شخص رأفت فهو عندهم فى آن واحد الزعيم والاب ويكاد يكون الخليفة المبجل .

وأخذت المساجد تفتح أبوابها واحداً بعد الآخر ، وطفق العلماء يخطبون فيها مظهرين انتشار النصر والفتح بسرعة ومثيرين الحميات بسرد تواريخ العهود الاولى الحافلة بالمجد والسمو والظفر .

وهذه المساجد أصبحت اليوم حافلة بأنواع الادوات العسكرية وقد وقف على باب كل منها حارس يحافظ على أنواع الاسلحة الموجودة بها . وكان يجىء ما بين آونة واخرى شاب من المشتغلين بالعلوم الدينية فيمتزج بهذه الكوكبة الصغيرة الحافة بن ويسال هو أيضا عما يريد العلم به ثم لا يتحاشى توجيه تهمة الى أوربا . فما أعجب ما أحدثه القتال الذى أنشبته انجلترا فى البلاد العثمانية ، وما أغرب التأثير الذى نجم عن الاصوات التى ارتفعت من قبل لجنة كرزن ورجالها ! وقد أخذت أفكار الاناضوليين تتضارب فى أعمال

الاوربيين ضدهم تلك الاعمال التى تنطوى تحت الفظاعة والقسوة وعدم الاهتمام بما تنطوى عليه القلوب من الحقد والاستخفاف المتناهى بالنوع الانساني وتلك الادارة الهائلة التى لاتخشى صعوبة الوقت ولا صعوبة المكان .

وفى الساعة الرابعة من نفس ذلك اليوم أخذ رأفت يتجول فى معسكر الطيران الكبير طولا فعرضا ، وهـذا المعسكر يحدق بسكة حديد بغداد . وكان يقضى أهم اوقات فراغه هنالك كما انه كان يرى نفسه وهو بين ضباطه وجنوده فى ذلك المعسكر كانه فى بيته الخاص فيقول : هنا أجـد نفسى مابين اسرتى الحقيقية .

وذكرنا هذا المنظر بتلك المحلقات الضخمة الهائلة التى كانت تحلق فوق باريس فقد رأيت هنا من أمثال تلك الطيارات عـدة ذات منظر مخيف اذ تشبه وحوشا فى منتهى البشاعة ولكنها كانت حسنة التركيب والقائمون بادارة حركاتها ذوو جرأة نادرة المثـال وهي تحلق فى أعالى الجو كضخام الطيور الجارحه وهى ثابتة ثبات تلك الطيور فوق متون الرياح .

وقد جمع تناول الشاي فى أكبر مضارب المعسكر كل ضباط أركان الحرب . وكان رأفت يبتسم وهو مصغ الى تلاميذه مقوما اعوجاج السنتهم فى اللغة الفرنسوية ومصححا مايرتكبونه من

الاغلاط اللغوية فى ذلك اللسان

ثم انه عمد الى التكلم معربا عن ذكرياته الحديثة فى حوادث فلسطين . وهل يمكن القول بأن هذا القائد العظيم استفاد هذا العلم الواسع وهذا الاستخفاف الذى لا يمكن انتقاده وهذا الاهتمام العجيب بكل شئ وهذه الدقة الغريبة من هذه الوحدة الطويلة والعزلة التامة ؟ ثم اندفعت من فمه ألفاظه الجارحة ضد الحلفاء اندفاع السهام الدامية فقال : « ما الذى فعلوه هنا منذ ابرام الهدنة ؟ ولماذا كل هذه الاضطرابات والقلاقل والشكوك والاعمال المبهمة ؟ »

ولكن من ذا الذى يستطيع أن يوضح تأثير بعض الالفاظ التى تلقى وتسمم فى نفس الوسط الذى تنشا فيه الحركات والحوادث التى تسببها ؟ قد تبدو نظرة ذات معى خاص فى عين ما فيجد الانسان من الافكار العديدة ما يعبر بها عن هذه النظرة . ان ما تبرمه أوروبا فى جوها الساكن بواسطة وزاراتها المتحكمة ينقلب تاثيره هنا الى حوادث مزعجة تنتج اضطراب الحياة العامة وتدعو الى الهياج المقرون باليأس لاجل الدفاع عن النفس والوطن

وأخذ الضباط الشبان يزدادون التفافا وانضماما حول رئيسهم وعلى وجوههم من التأثير مايلوح على وجهه وكذلك يظهر فى عيونهم البريق الذي يلتمع في عينيه .

وبعد سكوت قليل قال رأفت : « نحن هنا لسنا وطنيين ولا اتحاديين ولا ائتلافيين بل نحن لا نريد ان تكون لنا شيع وفرق متضاربة ذوات صبغات خاصة وانما نحن عثمانيون نحب وطننا حبا لا حد له ولنا رغبة عظيمة فى الحصول على حقنا فى الحياة . »

ثم اشار الى تجرد الضباط من الاوسمة ومن شارات المراتب والى ما يقتنع به الجنود من أقل مطالب الحياة . وأخذ يصف ببراعة وتأثير هذه الحياة الحربية وما يتخللها من كمين الى جانب كمين آخر ومن عصابة تلو عصابة أخرى وهى حياة لا تنكف عن امتثال هذه الحركات المتوالية على نسق واحد .

ثم قال : « لقد مضت على الحرب مدة تربى على خمسة وعشرين عاما وأوروبا تسوقنا اليها قهرا ، وانما كل مرة بعلة خاصة وشكل معين ونحن رجال الماضي نعرف ما تتقاضاه الحرب من التكاليف الكبرى سواء أمن جهة الارواح ام من جهة الاموال فهي على كل حال تستنزف كل موارد البلاد . »

وساد السكون فجأة فلم تعد تسمع سوى جمل وجيزة تنم عن الملاطفة والرعاية التى بالطبع لا يمكن صدورها من رأفت .

ولم يكن فى كل أقوالهم شئ من التهديد ولا من الشطط .

فقلت لهم « ولماذا لا تخاطبونهم بمثل هذه اللهجة ؟ »

فاجاب رأفت بما يلي : « ولماذا ؟ ذلك لانهم لا يصغون الينا. ألسنا فى نظرهم أشباه متوحشين ؟ وهل يتحملون يوما ما عناء التفاهم معنا ؟ ان كل ما يهمهم ويرضيهم هو تأليف العصابات ونشرها فى كل صقع وحملها على أنشاب القتال . والقتال هو أحب شيء اليهم، أما البحث فى حالة أي شعب ومقدار رقيه واستطلاع فكره فهذه أمور لا يمكن أن تخطر لهم على بال . »

فتطلعت الى اليوز باشي د . . . وهو ضابط فرنسوى، وكان هذا الضابط يصغى الى مايقال باهتمام وشغف شديدين وقد جنح بكل عواطفه الى هذه الوطنية المتلهبة التى تحرك فى نفسه عاطفته الوطنية . وقد اصبح معجبا بصفاتهم الحسنة وفضائلهم كما صار متجاوزاً مغضياً عن اغلاطهم بل راضيا عنها .

وعدنا ركوبا فى الاتوموبيل وقد هبط ستار الليل فحرك فى نفوسنا التأثير المعهود عن جمال الليالى الشرقية . وقد أخذنا نتبادل الاراء ويظهر بعضنا لبعض الشعور والعواطف التي انطبعت فى نفسه من هذه الجهة

. . . حلقة ذكر الدراويش . . .

ذهب بنا الاتوموبيل الى تكية الدراويش الذا كرين، ووقف

امام الباب الخارجى فنزلنا منه ودخلنا التكنة التى تولانا الدهش عند مارأيناها تجمع ضروب الفنون الشرقية الغريبة مع كل المناظر الريفية البسيطة . وقد بصرنا بأحواض من المرمر بديعة النقوش ملأى بالورد وبمختلف الازهار ورأينا المسجد الموجود داخل هذه التكية وهو فى منتهى الابداع

واجتمع الدراويش تحت زعامة رئيسهم الذى يطلق عليه اسم شلبي،وكانوا يكسون رؤوسهم بقلانس طوال محددة اطرافها وبعد ان اجتمعوا أصدر لهم رئيسهم أمره بأن يشرعوا فى حركاتهم فرفعوا سواعدهم وابتدأوا يدورون حول انفسهم بخفة مدهشة وهم يقطعون دائرة بيضاوية فى استدارتهم ثم اسرعوا فى حركاتهم بدرجة شديدة فكانوا اشبه بالطيور فى الخفة وقد تملكهم ذهول الذكر فمالت رؤوسهم على اكتافهم وشخصت ابصارهم الى السماء وخفت ارجلهم على توقيع الاناشيد العربية التى كانت تنشد لهم باصوات عذبة ونغمات فاتنة فكان لهذه الحفلة الراقصة تأثير عظيم فى النفس

وبينما كان الدراويش غارقين فى تيار رقصهم كان الجمهور الذى اختلط فيه الجندي بالمدنى والغنى بالفقير والمتحضر بالقروي والكبير بالصغير يتزاحم بالمناكب ويتدافع ليصل الى سياج التكية ويشاهد عن قرب هذه الحركات المدهشة

وطرأ على هذه الحفلة طاريء فجأني اطفأ بهجتها وذلك ان زعيمهم الشلبي اصدر امره بالكف عن الاستدارة لسر غير معلوم الا انه يدرك مما كان يبديه شبان الضباط من الامتعاض من هذه المظاهر التى تحط من قدر الدين والتى تعزى ظلما اليه

ولا بد من التنبيه هنا الى أن هذه الفئة الشلبية لم تكن منضمة الى الحركة الوطنية بل كانت مستقلة بنفسها ومع ان موارد البلاد فى هذه الا ونة لم تكن تسمح بامداد هذه الطائفة بما يلزمها من النفقات فانها كانت لا تزال مستمرة على الانفاق كعهدها الاول وهذا ما يدل على أن لها مصدراً آخر خفيا

وعلى أثر ذلك ذهبنا الى معسكر الطيران حيث كان رأفت هنالك كدأبه مهتما بشئون تلاميذه وجنوده . وعاد الحديث بيننا الى ما كان دائراً فى صدده بالامس ولم يعزب عن بال هذا الرجل العظيم الذى كان يعتبر اذ ذاك رجل الوقت أن يعود الى تنبيهى مرة أخري الى ما قاله وكرره لى فيما سلف قائلا :

« لا تنسي ماذكرته لك وهو الشيء الذى يهمنا قبل كل شيء آخر أي كليكيا »

ثم أنه أشار الى تعلق فرنسا بحلفائها قائلا كيف يمكن تبرير المشروع الانجليزى الفرنسوي المدبر ضد تركيا ؟

لسنا متوحشين

حانت ساعة الرحيل فأقبل على رصيف المحطة كل الاصدقاء المشيعين وكذلك جاء الاعداء الحانقون ناظرين متأملين .

وتزاحم ضباط رأفت حول مركبتي فى القطار مظهرين شدة تعلقهم بي واستيحاشهم من سفرى وليقدموا الي فى آخر لحظة رسوم التحية والاكرام قبيل اختفائى عن انظارهم . وكذلك خفت الى المحطة زمرة الفتيات العثمانيات ووقفن يرعينني بأبصارهن من بعيد متحاشيات الاختلاط مع الرجال وهن مفضلات أن يبقين حتى اختفاء القطار عن العيون تحت حرارة الشمس ونقع الغبار آبيات أن يبتعدن عن المحطة

وكان مراسلة اليوزباشى الفرنسوي المختص بالاستعلامات قد سافر مساء الامس الى افيون قره حصار ناهبا الارض عدوا حاملا رسالة خاصة الى ربوته الوطنية — ربوة مونمارتر بباريس — التى كان يحلم بها ليل نهار وهو يلعن قونيه ومتاربها

وأخذت تمتد الي من كل جوانب الاكف حاملة باقات الازهار وصرر الملبس . واخيرا حلت ساعة الوداع الحقيقي وهي ساعة مؤثرة فى النفوس لان العواطف الشرقية تفيض رقة ولطافة

تحدثان اهتزازاً فى جميع الاعضاء . وتقدمت الي الفتاة الصغيرة باكيزه ذات المرأى البديع والجمال الفتان الساحر الذى لم تقع العين على مثله فى الوجود وألقت على مسمعى بصوتها الرخيم الالفاظ الآتية : « ألست أيتها السيدة ذاهبة لتقولى لهم فى باريس اننا لسنا متوحشين ؟ »

ولقد أقبل ممثلون من سائر انحاء الاناضول وأخذ كل واحد منهم يجهد نفسه فى اللحظة الاخيرة فى أن يعبر عن أفكاره أمامى رجاء أن يحصل منى على كلمة الرجاء فى قلبه ولكن ناظر المحطة لم يلبث أن أعطى اشارة السفر للقطار فتحرك بين الايدى المرفوعة والاصوات الهاتفة واختفى فى غاسق المساء وشملته سكينة الفضاء المترامى الاطراف فلم يسمع فيهما الاصوات . وأخذت قوافيه تتراءى من بعد كذلك السراب الذى تراه العين فى [illegible] السهول والصحاري . . .

احـ[illegible] الوحيد

لم يكن ما هو أحسن وأنسب من هذا السكون الشامل للتفرغ الى ترتيب الافكار المتراكمة فى الحافظة والذكريات الممتلئة بها الذاكرة .

لقد كانت قونيه هي المادة الوافية المشاهدات و لملاحظات الاولى فى الاناضول اذ كل حركة الولايات الشرقية تجئ لتندفع نحو هذه الولاية وكذلك الدعوة الموالية للانجليز وأعمال أشياعهم تبتدىء فى الانتشار من هـذه الولايه . وقد ترامت التصريحات التى أعلنتها الحكومة الانجليزية المتوطنة فى حلب بشأن الامة الكردية الى هـذه الولاية فحركت سواكن الوطنيين العثمانيين وهاجت سخطهم وغضبهم كما هاجتهم العصابات الكردية المأجورة التى نظمها القائد شريف خائن الامة العثمانية المشهور وصنيعة الانجليز بل مخلوقهم

وكان احتلال كيليكيا الحافلة بأغلبية عظمى من الاهالى المسلمين أتراكا وأكرادا معتبراً لدى هؤلاء الوطنيين كشرك مده الانجليز لفرنسا ليشغلوها بينما يكونون هم أحراراً فيما يريدون فعله فى الكردستان . فان مطامع الانجليز هنالك وجشعهم الذى يجعلهم ينسعرون فى محاولة الاستيلاء على سوريا العربية كانت على الدوام المسألتين اللتين تبذل لاجلهما انجلترا مجهوداً عظيما لتدخل هذه البقاع برمتها فى جملة الاقطار المترامية على جوانب طرقها الهندية الساعية فى ضمها اليها نهائيا

ولقد قال فى ذاك الوقت القومندان ل . . . : « ان الشرق

بلاد العجائب والمدهشات التى لا يجب التطلع الى محاسنها عن قرب جداً »

وهذا القومندان هو الذى قال فيما سبق : « ان عدم وجود الطرق الكافية فى البلاد العثمانية كان العامل الجوهري فى الكارثة التى حلت بالجيش العثماني فى الحرب الكبرى سواء أفى العراق أم فى القوقاز »

فكان يجب عليه أن يضيف على ذلك القول ان هذه العلة هى التى ستكون سببا فى الهزائم الجديدة التى سيصاب بها المتقاتلون فى البلاد العثمانية . وكذلك هو الذى أعلن رأيه فيما سيصاب به زعماء الوطنيين العثمانيين من المشاكل الفظيعة والحملات الرائمة عند محاولتهم جعل المسلمين يقبلون ادخال تعديلات جديدة فى عوائدهم ومألوفاتهم التى لا غنى لهم عنها .

ولقد كان وطنيو سيواس شديدى القلق من هذه الوجهة لانهم فى الحقيقة يعتبرون اقرب الى أن يكونوا أوروبيين من كونهم اسيويين ولهذا فقد سعوا فى التماس تعضيد فرنسا وكانوا يقولون انهم مستعدون لان يقبلوا استشارة احدى الدول وكان رأيهم الذى ينشرونه إذ ذاك أن لا توجد مسائل تركية وأرمنية وكردية وسورية وعربية ولكن توجد مسألة وحيدة وهي التى يتوقف عليها حل المشكلة الشرقية ألا وهى جعل الشرق كتلة واحدة

الفصل الثالث

الوطنيات الاسيويات

(ما كانت تتناقله القوافل)

لقد حضر لينين الى مؤتمر باكو الثانى الذى عقد فى شهري اغسطس وسبتمبر سنة ١٩٢٠ مزودا بمشروع مصوغ فى قالب دهاني محكم أتم الاحكام مراعيا فيه مناسبات الاحوال الحاضرة التى كانت تقتضى حلا دقيقا بمهارة فائقة . وهذا المشروع لا يتضمن المبادىء المشاعية لان مسلمى القوقاز قاموا بثورة حادة على المذهب المشاعي المتمسكة به مجالس السوفييت الروسية وهذه المجالس لما رأت نفسها مهددة مباشرة بقوى مصطفى كمال خضعت ولم تعد تتكلم الا فى صدد الوطنية فمنحت استقلالا واسما للولايات القوقازية وهذه أول ثغرة فى بناء المشاعية القائم على مبادئها المشهورة غير ان حرج الحال هو الذى أجبر السوفييت على هذا التصرف المنافى لمبادئها.

أما بالنسبة للغرب فان الصفقة كانت خاسرة لان رجال موسكو الذين لم يكونوا يجهلون ذلك وجهوا أبصارهم الى الشرق فوجدوه كله متداعى الاركان من جراء ثورته الهائلة على السير

البريطاني ، فالعنصريات التي كانت قد اختفت متمزقة فوق الاشواك القائمة في عمود آسيا الفقري قد أخذت تتجمع وتتحد ثانية مشتركة في عاطفة شديدة تمنعها من التفكير في الاختلافات والمنازعات الوحشية التي كانت تمزقها فيما مضى وتلك العاطفة هي بغض انجلترا

لقد انتشرت الكلمة المتفق عليها بين شعوب الشرق قاطبة من مصر الى الهند ومن القسطنطينية الى بمباي ومن جنوب الفرات الى فارس فسائر البلاد الاخرى وهذه الكلمة هي : محق انجلترا عدوة كل حرية في العالم .

وقد أصبحت الدولة العثمانيـة التي اعتدت عليهـا انجلترا واخذت تجد بكل ما في وسعها في تمزيق جسمها الامل المرجى للاسلام

أن ادلاء القوافل التي تذهب بغير انقطاع مابين فارس والهند والصين ثم تنحدر ثانيـة الى الاناضول كلهم عثمانيون فهم في عبورهم كل جهة يتركون فيها الانباء الجديدة التي يكون أهالى الجهة في تشوف اليها — وهكذا تتكون فكرة واحدة في كل البلاد التي تمتد من القسطنطينية الى شمال آسيا الاقصى —

وبهذه الطريقة عادت النظامات القديمـة التركية المنغوليـة التي كانت شائعة في القرن الثالث عشر الى الظهور ثانية وتقوت

بينها الروابط . وأصبحت خانات الزمن السابق هي النقط المركزية لحركات الاتصال وهـذه الخانات تنتشر فى اقدم طرق العالم . وعلى ذلك بدأ عمر جنكيس خان يعود الى الظهور من جديد ولم تبق المسألة مقصورة على الاخاء الاسلامي فقط الذى يسود جميع الارجاء فى هذه الايام ، كما يوضح ذلك كيبلنج الشاعر الانجليزي المشهور بل أصبحت قوة اجتماعية حديثة النشأة والانتشار

فكل هذه الوطنيات الاسلامية التى حركتها وانهضتها انجلترا ترمي الى جعل القوة العثمانية مادة تعضيدها وتأييدها وأخذ الضباط العثمانيون يديرون هذه الحركات ويقودون رجالها

فمن سالونيك الى قشغر بل الى أبعد منها فى وسط الصين حيث توجد قبائل كيدتشاك التركية التى وان كانت قد اصبحت مسيحية الا أنها لا تزال تستعمل اللسان التركي ومن جبال الاورل الى خليج الاسكندرونة أي فى كل آسيا الوسطى من الصين الى البحر الابيض المتوسط يشترك من ٤٥ الى ٥٠ مليونا من الرجال فى التكلم بلهجات تركية ويستطيعون ان يتفاهموا ويتكاتبوا فيما بينهم . وهم يتعارفون كأنهم من فصيلة واحدة

ومن هذا العنصر التركي المنغولي الذي يتكلم باللسان التركي تشتق تسعة اعشار الاسرات الملكية التى لا تزال تدير حتى اليوم

شئون العالم الاسلامي . وهذه الاسرات مع تفرقها فى انحاء مترامية فى البعد تشعر بعاطفة واحدة وهي ان انجلترا عدوتهـا اللدودة

لقد اصيب الانجليز فى القوقاس بفشل ادبي في سياستهم وفى الافغانستان انتصرت السوفييت . وفي الافغانستان مهد فكرة الجامعة الاسلامية التى كان اول من تكلم بها ودعا اليها ونشرها فى جميع الاصقاع السيد جمال الدين الافغانى بدأت فكرة فتاح الهند تختمر بل تبرز الى حيز العمل . وفى العراق عمد الضباط العثمانيون الى اصلاء القوى الانجليزية حربا عوانا انزلت بها اشد الكوارث .

موتمر باكو فى الشرق

ان الاسباب المهمة لهـذه النهضة التى نهضتها جماهير آسيا موجودة لدى الامة العثمانيـة ومرجعها الى عهد ابرام الهدنة . وهذا مافهمته السوفييت حق الفهم عندماخفضت من تصعيرخدها فى مؤتمر باكو الذى انعقد فى صيف ١٩٢٠ أزاء امتعاض الوطنية العثمانية واضطرت الى ممالأتها وتسكين غضبها . وبهذه الطريقة اختفى سخط العالم الاسلامى على تطرف الروسيا واشتطاطها وكان الروسيون اذ ذاك يقولون للعثمانيين : « ألسنا نحن كذلك أسيويين مثلكم ؟ »

وقد أعدت من ذلك العهد ادارة مركزية للدعوة الطوائفة التى يجب ان تنتشر فى جميع انحاء الشرق ومن جملتها شمال افريقيا

وقد نظم زعماء الاشتراكية الدولية الثالثة بموسكو مؤتمر باكو لا ليحرروا الشعوب الاسيوية بل ليرضوا رغبتهم العظيمة فى نهوضهم بالاجماع ضد الدول الكبرى الغربيـة . إن رجال موسكو ارادوا أن يلعبوا بمهارة فائقة دورا مهما مداره على عاطفة توجد لهم جيشا عرمرما جرارا من الطبقة الثانية يسمح لهم بأطالة الصراع القائم بينهم وبين الاستعمار الاوربي .

وقد حملت وفود آسيا الى المؤتمر افكارا وآمالا ومطالب متنوعـة عديدة فبعضهم كمبعوثى الاناضول كانوا يتطلبون على الاخص مساعدة مادية وسواهم كانوا يطلبون توطيد دعائم العظمة الاسلامية والهنود ارادوا اسقاط وطرد سادتهم والصينيون لم يرغبوا الا فى اقصاء المستغلين الاوربيين واليابانيين من بلادهم وازاحة نير المندارين عن اعناقهم (والمنداريون هم رجال الحكومة الصينية)

وقد أجاب الروسيون على كل هذه المطالب اجابة على شيء من الابهام مع محاولتهم بقدر مافى وسعهم أن يوفقوا مابين الجميع ولـكن النتيجة العملية كانت عدم تنفيذ شيء ما .

ومع ذلك فقد كان من اهم ماتوصل اليه المؤتمر اطلاع جميع

الوفود الشرقية على حقائق الحالة الحاضرة وتمكينهم من تبادل الآراء فيما بينهم . وكان لهذا المؤتمر أيضا فضل عظيم فى تعارف ممثلى شعوب الشرق بعضهم ببعض وتباحثهم بأمعان فى علل انحطاطهم وسقوطهم تحت النير الاجنبي والاغلاط التى ارتكبتها شعوبهم فى العصور الاخيرة . وكذلك بحثت هذه الوفود فى الطرق التى تتخلص بها من الاحوال السيئة وعوامل الضعف والتمزق والانحطاط التى تكتنفها من كل جانب . وحينما عرضت مطالبها تبسطت فى شرحها واظهار مايترتب عليها من الفوائد الجمة بتفاصيل ضافية .

وتضمن الاتفاق الذى ابرم بين ممثلى موسكو وزعماء الحركات الاسيوية وضع عمل البلشفيك المباشر فى الشرق فى دائرة محدودة وترك مجال عظيم لظهور الوطنيات الشرقية وشروعها فى الاعمال المبتكرة التى تراها موافقة لمصالحها الخاصة . وبهذه الطريقة أفلحت مسكو بعد اغلاط عديدة من ان توفق مابين المذهب المشاعي والمبادئ الاسلامية الصحيحة وان تزيل كل ماكان من الممكن ان يحدث هوة بينهما .

وقد احسن زعماء السياسية الاسيوية فى مسكو الحاضرون فى المؤتمر فى الامتناع عن اظهار انفسهم فى مظهر الزعماء كما احسنوا

فى اسكات عمال المجالس المحلية السوفييتية الذين ارادوا ان يندفعوا الى الكلام باعتبارهم فاتحين .

وقد وضعت قاعدة جديدة للاشتراك فى العمل والتعاون مابين الروسيين والعالم الاسلامي وهذه القاعدة تزيد قوة انتشار الوطنيات الاسلامية ورغبة هذه الوطنيات فى مقاومة الوصاية الاجنبية ومحو آثارها من البلاد الاسلامية

وقد عرض الروسيون قواعد حياة مشتركة مابين الروسيين البلشفيين والوطنيين المسلمين الا ان مديرو الشئون العثمانية وفى مقدمتهم الزعيم مصطفى كمال كانوا لايزالون مترددين فى الاقتناع بفائدة مثل هذه الحياة المشتركة مابين الفريقين . وكان لابد من حدوث اغلاط انجليزية لإتمام اتحاد الفريقين فى كل وسائل الحياة بأن تعمد انجلترا الى اقتراف اعتداءات اخرى وهجمات جديدة من امثال سلسلة الاغارات الرومية التي شجعتها وقوتها المدفعيات البريطانية وهي تلك الاغارات التى تعتبر الخنجر المغمد فى عنق الاناضول .

اتحاد الحكومات الاسلاميه

منذ عام ١٩٢٠ اصبحت قاعدة العمل فى الشرق بأسره قائمة

على الاصول الآتيــة : وطنية خاليــة من كل الشوائب ومكافحــة الظلمة المضطهدين ونشر الدعوة الطوافة فى سائر البــلاد الآتية : كورياوسيبريا والتركستان العسينية والتركستان الروسية والافغستان وحكومتي خاني بخاري وخيوه ، وفارس والقوقاز والسلطنة العثمانية وبلغاريا ومصر وطرابلس الغرب وتونس والجزائر ومراكش.

وكان مركز العمل لتحقيق هذا الغرض العظيم فى تشقند فى التركستان حيث كان يعمل أنور مع مندوبى السوفييت القادمين من موسكو

وكان الغرض الظاهر من ايجاد هــذا النظام المركزى العــام انشاء اتحاد وثيق العرى بين الحكومات الاسلاميه .

وكانت الحركة الوطنية العثمانية قد وجدت فى بادئ الأمر لاجل العمل ضد ايجاد ارمينيا الكبرى والمملكة اليونانية العظمى ثم انها امتزجت فى سنة ١٩٢٠ بنظــام الدفاع عن حقوق المسلمين فى أزمير ضد الاروام ثم اختلطت بجمعية الدفاع عن تراقيا . وأخير اتصلت فى مؤتمر باكو الثانى على أثر الاغارة الانجليزية اليونانية على قلب الاناضول بالانظمة السوفييتيه القوقازية وبثغور الروسيا الواقعة على البحر الاسود

البلاد العثمانية المركز الادبي للاسلام

ان انجلترا بتشددها فى السعي لتمزيق السلطنة العثمانية جعلت هذه السلطنة المركز الادبي الذى تلتف حوله أفكار العالم الاسلامي. فالوطنية العثمانية وعلى رأسها زعيمها مصطفى كمال تدير اليوم العالم الاسلامي وتملي عليه مودّاتها وحزازاتها وبفضل هجوم انجلترا على هذه السلطنة استقبلت الدعوة العثمانية أعظم استقبال من نهر الجانج الى نهر النيل ومن فدافد اليمن الى مجاهل سيبريا. وأصبحت كلماته تتلقفها الاسماع وتعيها الاذهان وترتسم فى صفحات القلوب

وهكذا أصبحت الوطنية العثمانيه كما قال عنها الزعيم الطرابلسي سليمان الباروني فى خطاب وجهه به الى الصحف العثمانية فى سنة ١٩٢٠ : « ان السلطنة العثمانية المستقلة كانت عامل الطمأنينة والسلام فى العالم الاسلامي. وبمحاولة السياسة الانجليزية أن تستأصل شأفة هذا العامل صارت سببا لان تصبح الوطنية العثمانية ممثلة قوة ارادة العالم الاسلامي المنتشرة فى جميع البقاع الحافلة بالشعوب الاسلامية. »

ان هذه الكلمات التى صار التفكير فيها وتحريرها من قبل أعظم المفكرين تبصرا وبعد نظر والتى تعتبر فى أول مكانة من

الملاحظة والاختبار تلخص حقيقة الحالة الحاضره

ان الأصدقاء في البلاد الاسلامية على جانب عظيم من الوفاء والاخلاص ولنا بينهم عدد عظيم جدا وهم يتطلعون الينا ولا يزالون يريدون اقصاءنا عن دائرة الحركات الموجهة ضد الاجنبي ولكن هذا الأمر اصبح منظورا اليه بعين الاستياء وقد انضمت مشاكلنا الى العوامل التي جعلت مركز العالم الاسلامي مهددا بالخطر

وبفضل هؤلاء الاصدقاء الاوفياء المخلصين لمن يعطف عليهم سيصير مصطفى كمال مضطرا الى تولي زعامة سائر هذه الوطنيات التي تستنجد به . وأهم هذه الوطنيات : أثا واعظمها تأثيرا وعملا وطنية مصر الحديثة أي الوطنية المصرية التي ارتبطت من عهد بعيد بالحكومة الوطنية في سيواس وبحكومة الاستانة . وهؤلاء مسلمو الهنود قدموا مساعدتهم للوطنيين بالفعل وضغطوا على حكومتي لندره وباريس في كل ساعة اشتد فيها حرج الموقف . فالوطنية المصرية واللجان الاسلامية الهندية أخذت تهدد السلطان كلما حاول أن ينفذ مقاصد المندوب البريطاني العالى .

واشتد في العراق الكفاح ضد الانجليز للفوز بالاستقلال تحت اشراف الامة العثمانية

وأبت انجلترا بمقتضى عنادها المشهور عنها أن تميل الى التفاهم

ودفعها تهورها وجموحها الغريبان الى أن تلجىء مصطفى كمال الى وضع كل مالديه من الوسائل المتناهية فى التطرف ضد عناد انجلترا واستخدام هذه الوسائل بأحسن مايمكن أن يستخدمها انسان وهو يقرأ كل وجوه العواقب

اليقظة الأسيويه

أن الاستسلام الاعمى الى الحركات الوطنية الاسيوية يعتبر خضوعاً تدريجياً الى المشروعات السوفيتية مع أن كل سياسة مصطفى كمال قائمة الى ... ى استقلال الوطنية عثمانية . ولهذا فأنه اجتهد ... ان لايتطرف الى النهاية فى مصارعة انجلترا ، الى اللحظة الاخيرة سيظل رافضاً مساعدة الجنود المسلمين الذين يوجهم أنوراليه . وهو يخشى تلك البلاد التركستانية التى تعتبر الباب الذى يصير الدخول بواسطته من آسيا الى اوربا وبواسطته تصل القبائل الا رية وكذلك تجتاز الجماهير المنغولية حدود آسيا بالمثل . وفي تخومها الشرقية توجد قبائل منغوالية على اتم الاتصال والاحتكاك باخواتها من القبائل الصينية . وفى الجنوب تتاخم الافغانستان وتمس العجم التى تعتبر من ألد اعداء انجلترا حيث يعمل هنالك مصطفى صبحى أحد أعاظم الدعاة العثمانيين الفارسيين الذى

استفاد منه لينين في دعوته المنتشرة فى تلك الارجاء التى تعتبر فتحا فكريا

الحلفاء يجهلون قوة النهضة الاسيويه

لقد امتنع مصطفى كمال مدة طويلة عن تشجيع وتحريض الاضطرابات والقلاقل الاسيوية والى ١٦ مارس سنة ١٩٢٠ كان لايزال آملا أن يقنع الحلفاء وهو معتمد فى أمله هذا على وساطة فرنسا . وقد كان يرى بوضوح تام كل مايمكن أن تستفيده فرنسا اذا مامثلت الدور الاول فى الشرق الذى لايداخله ادنى شك فى أنها راغبة فى تمثيل هذا الدور . ان فرنسا هى رمز الحرية وهى المدافعة عن حق الشعوب فى أن ينالوا حظهم من الحياة : وماخطأها فى مسألة كليكيا بوجه الاجمال الاخطأ محلى يمكن أن ينتهى بسهولة وهذا هو السبب فى ان مصطفى كمال حاول الدخول فى المخابرات التى كانت دائما سيئة العواقب ولم تؤد الى النتائج المنشودة بينه وبيننا . وهذه المفاوضات التى لم تؤد الى نتيجة مرضية ستزعزع الثقة به لدى اخصائه وتثير ثائرة الجامعة الاسيوية ولابد من كل ضروب المهارة والدقة السياسيتين اللتين يمتاز بهما ابرع العسكريين السياسيين لتلافى هذه الاخطار ، بل كثيرا ما يضطر الى مقاومة المتطرفين

من رجاله بكل قواه مع اقتناعه بانهم على حق فى اعتقادهم بخيانة الحلفاء وغشهم وقد ايمنتهم الحوادث مائة مرة فى افكارهم الصائبه

الا ان أوربا لا تريد ان تفقه شيئا من ذلك فهى لا تصدق بقوة الاناضول الحيوية ولا بعظم شأن النهضة الاسوية وماهذان الامران لدى الحلفاء الا كلمتين خاليتين من كل معنى

وتلقى انجلترا علينا بتوحش تبعة فظاعة بعض الوسائل التى تتخذها مثل المدافع المعطاة الى الاروام والقبول الخفى لكل مايقدم عليه هؤلاء من اعمال الاعتداء والاجرام . وفى كل مرة نريد ان ننفض عنا نير العمل المشترك تهددنا المانيا من قبيل المصادفة فنضطر الى ان نهتم بمسألة تقوية مركزنا على نهر الرين ولا نتذكر الا الاخطار التى تفتحت ابوابها فى وجوهنا فى تلك الآونة .

من ذا الذى سيتوفق يوما ما الى حقيقة تاريخ الحرب التي ساعدت انجلترا على اشهارها ضدنا فى سوريا وكيلكيا من سنة ١٩١٩ الى ١٩٢١ ، ان هذا التاريخ سيكون صحيفة فى منتهى الغرابة وذات فوائد ومعلومات جمة . ومن ذا الذى أمد جنود الامير فيصل بالاسلحة اللازمة لها ؟

لقد كنت فى دمشق فى فبراير سنة ١٩٢٠ حينما كان ضابط الاستعلامات الانجليزى يفرق على زعماء مرجعيون ودير خالد

الذخائر التي تمكنهم من مهاجمتنا وهذا مالم يتنبه اليه أحد .

ولمعرفة مجموع اغلاط السياسة الانجليزية لايوجد ماهو احسن من تلاوة البحث الضافى المتين الذى كتبه الكولونيل ت ا ى لورانس عن الشرق الادنى ونشره في جريدة السندى تيمس الصادرة في ٣٠ مايوسنة ١٩٢٠ فان قائمة الاعمال التي تكاد تدخل في عداد المستحيلات طويلة وقد زادتها الايام حوادث اخرى .

فرنسا والاسلام

ان الشعوب الاسلامية تقول عن نفسها أنها الآلات التى تتلاعب بها أوربا غير مفرقة مابين المانيين أو انجليز أو نمسويين . وقد كانت وظلت كذلك تستثنى فرنسا الا ان مسألة كليليكيا جعلتنا لدى هذه الشعوب في مستوى الدول الاخرى .

لقد حدث ما يأتي في دمشق في بهو فندق على الطراز الشرقي الا انه يتحول عدة مرار في اليوم الى ناد متطرف وينقلب من الساعة ٢ صباحا ملجأ لافظع المطالب وشر الاماني . ولم تكن الساعة اذ ذاك الا ٥ وهي ساعة تناول الشاي والآونة التى يصير تبادل المحادثات فيها على الطريقة الاوروبية اذ اقبل عبد الرحمن شبندر

الدكتور فى الحقوق وهو مسلم متخرج من الجامعة الازهرية وهو أشد من فى دمشق تطرفا واكثرهم حدة وانفعالا ألي واخذ يوضح لى بمنتهى الصراحة بلغة انجليزية خالية من الخطأ وبصوت عليه مسحة من التلطف اسباب كراهتهم جميعا الاشراف الانجليزى علي سوريا وكذلك أخذ يشرح قضية احتلالنا العسكرى وكان شبندر هذا قد وصل حديثا من مصر .

ثم اخذ يتكلم بلهجة تعادل ما عنده من القلق المستور تحت شف من اللطافة معددا الادلة التى يريد ان يعزز بها آراءه واثقا من قوة ارادته فيما صحت عليه عزيمته وما يراه منطقيا وموافقا للصواب فى أقواله . وبعد ان انتهى من القاء التهم على السياسة الانجليزية وسياستنا أصدر انذاره النهائي حسبما تعود . اما الاستقلال التام واما الكفاح الى النهايه . على ان تهديده لم يكن آخذاً شكلا معينا ولكنه يستخلص بوضوح من الفاظه الصادرة بدقة وانعام والتى كان يفوه بها بتؤدة . وقد أخذ كلانا ينظر الى الآخر فى تلك الغرفة التى بدأت طلائع الظلام تتمشى فيها ليتبين من نظره حقيقة ما يجول فى خاطره

وهذه اهم التهم الموجهة بطريقة منظمة الى انجلترا : ان انجلترا تشغل مكان المانيا فى الحلم بالاستيلاء على العالم . وهي وحدها

ذات سياسة معروفة اما فرنسا فليس لها سوى سياسة التقلبات تلك السياسة التي تتغير كلما تغير الرجل الذي يشغل السلطة العليا. ان سياسة انجلترا سياسية بعيدة المدى فهي تنسج غزلها وتعمل للمستقبل وهذا النسيج يغطي العالم اجمع وكلما تحرك أحد خيوط تلك الشبكة عمدت انجلترا الى النظر في اسباب تحركه وتلافيها بحسب ما كانت تعده لها من قبل . ومع ذلك فعلى الرغم من مهارتها التي لا تنكر فانها لم تتوصل الى معرفة حقيقة الحركة التي تدخل الاسلام في طور جديد وتسوقه الى الميول الحديثة اي الى المباديء الوطنية ، بل صممت على التمسك بمبدأها القديم مبدأ الافساد والتفكيك عاملة بذلك على اثارة غضب الشعوب الاسيوية عليها . أما فرنسا فقد توفقت الى ادراك هذه الفكرة التي تنعش هذه الشعوب وتجعلها على اتصال بعضها ببعض ولكنها كانت مترددة فتارة تمتزج بها وطورا تستثير غضبها بزلة تقع عفوا . فهي تعد ثم تعدل عن وعودها ، وتحتج على خطة حلفائها العدائية ثم انها تسير للاخذ بناصرهم مسمعة بصوت حائر أنها لا توافق على استبداد حليفاتها في اعمالها . وأخيرا يعتريها ضيق وحرج ويساورها غضب من جراء ضعفها وعدم استقرارها على امر واحد .

وفي اليوم التالي اجتمعت في المكان نفسه برجل من زعماء العرب

لايزال يتكلم بلهجة قبيلته ويمشي مشيتها وان كان قد تزيي بشيء من الازياء الانجليزية وقد دار الحديث بيننا في هـذا الصدد على مسمع من مجتمع مؤلف من خيرة أهالى السواحل السورية ومن مسيحي لبنان وكان الرجـل يتكلم بأدب عظيم يكاد لايتفق مع قبيلته المتنقله وكان يبسط رأيه واحـد الحاضرين ينقله الي باللغة الفرنسوية مهذبا مصقولا وفاقا للصيغة الفرنسويه . وقد بدأ حديثه بالانحاء على سياسة دول الاتفاق فوافقه على ذلك الحاضرون الذين كانوا على اختلاف مللهم ونحلهم يؤيدون مسعى الشاطىء وزعماء العصابات التي تناجزنا القتال فمسيحيوهم وابنـانيوهم وفلسطينيوهم الذين يعارضون الصهيونية والعراقيون أقبـلوا جميعهم الى هنـا ليتفاوضوا مع فيصل أو ليقنعوه بأشهار الحرب وهم جميعا تختلف أعمارهم بين الثلاثين والخمسة والثلاثين عاما وهي سن زعماء الوطنيين. وبعـد أن وافقوا ذلك العربي فى رأيه أخذ كل واحد منهم يقول كلمـته ويدافع عن قومه ولكنهم مجمعون على مقاومة الاشراف الاوربى

وعلى الرغم من اختلاف الآراء فان النقط الاساسيه كانت تستخلص بوضوح من المناقشات الطويلة المتناقضة : وتلك النقط هي الرغبة المطلقة فى الاستقلال والاعتقاد بالحصول عليه بغير عناء

كبير بفضل القوى العسكرية القائمة على قدم الاستعداد للتداخل عند اللزوم ، والثناء على البلشفية التى لولا عنايتها لكان الكفاح أشد هولا مما هو حادث بل ربما كان مستحيلا، والرغبة فى الاعتماد على مساعدتها بدون الاستسلام الى استعبادها أيام وأخيرا الاعتقاد العظيم بانهم من غير الاتحاد المقدس الواجب حدوثه سياسيا ودينيا ما بين سائر الشعوب الاسلامية لا يمكن أن يسود السلام وأن يطمئن الاسلام على استقلاله من التحكم الاوربي وبالاخص من التحكم الانجليزى .

وبعد بضعة أيام سمعت هذه الالفاظ نفسها تتردد على السنة وجهاء دمشق فى مجتمع ضم العلماء والادباء الذين يقضون معظم أوقاتهم فى البحث والمطالعه . وكانت أقوالهم متشبعة بروح الشدة المتسترة بمسحة من الادب الشرقى وعلى الرغم من هدوء أنفسهم الطبعى ومن لطف نظراتهم فقد كانت مطالبهم بالمثل موافقة لمطالب اقرانهم التى سبق التكلم عنها وما يشعرون به نحو اعمال انجلترا وما يعترض اعمالنا من الابهام لا يختلف عما يشعر به زملاؤهم . وقد قالوا لى فى هذا الصدد :

« نحن نعرف دائما ما الذى تشعر به باريس ونفكر فيه فهل يداخلها الشك فى شعورنا وفى فكرنا »

لقد فقد الغرب مكانته الرفيعة . فالآن يعامله الشرق معاملة

"الند للند بل ربما لم يكن من المستغرب أن يتصور الشرقي أنه اسمى من الغربي بكثير . وأخذوا يقولون :

« البلشفية ، نعم من الواضح انها قوة مرعبة ولكننا توصلنا الى اكسابها روح الانسانية ، فانظرى كيف صارت بمجرد احتكاكها بنا وتأملي فى مقدار ماخف من تطرفها وغلوائها . . . »

« لقد كان يوجد من قبل الف مسجد فى دمشق وثلثمائة وخمسون مدرسة وقصور لاعدد لها . وكنا عقل المدنية العربية وسنصير عقل المدنية الشرقية الجديدة . تأملي جيدا فيما حولك وانت ترين هنا تقريبا كل ممثلي الشعوب الاسلامية القادمين من ابعد الولايات . »

هذا ماقاله رئيس المجمع العربي الادبي فى دمشق ثم زاد عليه مسيحي لبنانى كان على تمام الاتفاق مع زملائه المسلمين :

« أيجب أن نصير مسلمين وأبالسة وبلشفيين وان نصاب بالتيفوس وبالوباء وان نتحمل كل المصائب والاهوال فى سبيل الاستقلال ؟ نعم هذا مايجب اذ نتحمله وفيما بعد عندما نصير احرارا نبرأ من كل هذه العلل والآلام . »

الخطر الأسيوى

أن آسيا لم تعد تعتقد مطلقا فى قوة اوربا التى لاتغالب بل صارت تناقش بخشونة فيما كانت تعتقد من قبل انه امر لاسبيل الى المناقشة فيه وذلك هو تفوق المدنيات الغربية . لقد حلت حالة جديدة بين الشرق والغرب فغالبا ماتسمع هنالك لهجة واضحة تشوبها الجفوة وتسمع هنا الفاظا مقتضبة يمازجها التهكم وهنالك رأيا صريحا فى الغرض الذى يراد ادراكه وهنا ترددا وشكوكا

ليس ماهو اسرع فى العدوى من سريان الآراء والافكار ومن هذا القبيل أن البلشفية الروسية نفسها تصطبغ بالصبغة الوطنية واصبحت انتهازية عندما تمثلت أمامها المسألة الاسيوية . فالقاعدة الجديدة والفكرة التى سرت فى كل صقع وواد هي آسيا للاسيويين

من المتعذر إيضاح كل هذا بطريقة فى منتهى البيان لانه من جملة الامور التى لايدركها غير المسلم الا اذا نظرها نظرة سطحية من قبيل المصادفة وذلك لان السلك الذى يسري فيه التيار خفى بدقة ومهارة عن الانظار

ان أهم خصائص الانظمة الاسيوية هو بقاؤها فى حيز الكتمان حتى ان الشعوب الاسيوية تتبادل الآراء وتتفاوض فى

الاتفاقات التي تريد ابرامها فيما بينها تحت ذيال الخفاء . فالاوروبي كائنا من كان وكيفما كانت مقدرته لا يمكنه الا ان يقف على بعض النقط العامة من الخطة الاساسية . وعلى هذا فلا ينبغي ان نستفيض في القول لاظهار مقدار الخطر الاسيوى العظيم .

ولا يمكن ان يصد الموجة الاسيوية العظيمة التي تمتد على آسيا الوسطى الا سد واحد وهو السلطنة العثمانية التي يجب ان يحتفظ بها العثمانيون وهي قوة سليمة . تلك السلطنة التي يريد الهجوم الانجليزى الرومي ان يمزقها

ولقد صرح اعيان مدينة فاس في ديسمبر سنة ١٩٢٠ برأيهم الآتي : « نحن نريد ان تظل السلطنة العثمانية سليمة قوية »

القسم الثالث

انقره

الفصل الاول

القسطنطينية تحت الحذاء الانجليزى

فبراير ١٩٢١ — أزمير رومية

شبح مدينه

يالها من مدينة غريبه ! ماالذى أصاب لطافتها وجمالها ؟ لقد أخذ الاتراك يمرون فى هذه المدينة خائفين صامتين وكأنما ماكان كامنا فيهم من قوة ارادة ومضاء عزيمة قد أتت عليه تصاريف الايام بالمحو ولم يعد يتصرف فيها سوى سيد واحد مطلق الكلمة عظيم الصولة محتقراً كل ماحوله جالداً الارض بسوطه صارفا نظره عن ابن البلد وهو العثماني مستخفا بالفرنسوى والايطالى . تلك هى القسطنطينية التى بوقوعها تحت الحذاء الانجليزى الثقيل قد

تغيرت معالمها وأصبحت فى حالة احتضار محزن . وبعد أن كانت ملجأ القصاد ومزار السائحين أصبحت محصورة بدرجة لاتطاق وأحاطت بها حركات السلب والنهب فكادت تنتزع منها حتى نسمات الحياه . وانقطعت الصلات التى كانت تربطها بالنواحى التى كانت تمدها بمطالبها الحيوية فاضطرت الى أن تزرع بنفسها ماتسد به رمق الحياة . تلك هي حالة الاستانة درة الشرق بعد سقوطها تحت النير البريطاني !

مستودع المصائب

ان الجمهور الروسى هو الوحيد المتمتع بالرخاء فى هذه المدينة العظيمة التى انغرست فيها اصول سائر العناصر الاسيوية مابين بولشفيين ومنشفيين وقيصريين وقوزاق ورنجليين الذين يتقابلون ويتصافحون ويتصالحون فيها راجعين كلهم الى الوطنية التي تجمع كل هذه النحل . وكذلك يهرع الى هذه المدينة دعاة الجامعة السلافية والجامعة الاسلامية والجامعة العثمانيـة فيتقابلون فيها بالمثل وقد تجردت قلوبهم من شوائب الاضغان وجمعتهم عاطفة واحدة وهى اشتراكهم فى الحقد الموجه الى دولة واحدة . وان انجلترا التى اختصت بهذا الحقد الاجماعى هي التي الفت مابين هـذه القلوب

ان يبنى عليه حكم صحيح .

ولقد وجدت المبادئ البولشفية التى تسعى للانتشار هنا كأنها فى أحد مآويها الخاصة بها ارضاً صالحة لها بالنظر لما أصاب هذه المدينة العظيمة من الاحقاد والآلام التي كادت تمزقها شر ممزق فبثت فيها ضروب الدسائس والمكائد . والقوزاق الذين كانوا يقاتلون ضد البلشفيين اضطروا بتأثير الدعوة المنتشرة بينهم والعوز المتغلب عليهم ان يقبلوا الاندماج فى الجيش الاحمر بميزات مرغبة جدا وبهذا صاروا من اخصاء البولشفية . واحتكر الروسيون المتاجر الصغيرة فرأى العثمانيون المسلمون ان يحتفظوا باموالهم ازاء هذا الاحتكار لانهم لم يعودوا يتلقون الاطعمة كما جرى الروسيين ولا تمتد الايدى للاشتراك فى الاكتتابات التى تفتح لمعونتهم . ولبث الانجليز غير متأثرين بهذه المناظر المؤلمة وهم يرونها كل يوم وقد حاول الفرنسويون ان يخففوا وطأتها الا انها كانت فوق ماتتحمله مواردهم الخاصة .

الفاقة والاستقلال

لقد اخلف الانجليز مااعتادوا عليه من قبل فسلكوا في هذه المدينة مسلكاً قائماً على اضطهاد واستثمار كل ماهو عثمانى فالتاجر

الصغير اصبح عالماً حق العلم بانه ملزم بدفع مبلغ يومي معين ليتمكن من الاستمرار على مزاولة عمله الذي يجني منه عيشه ، وأما التاجر الكبير فكثيرا مايدفع ضعف ربحه وثلاثة امثاله بل اربعة امثاله فاكثر ليستبقي رأس ماله . بل صارت الوظائف والاعمال لايتيسر الحصول عليها الا بدفع مبالغ من الاموال تعادل مايرجى من الانتفاع منها ، وهكذا صار كل من لم يندمج اسمه فى قوائم جمعية « اصدقاء انجلترا » معرضاً لكل وسائل الارهاق . فالسمعة التي كانت للموظفين الانجليز عسكريين او مدنيين الى سنة ١٩١٤ قد زالت فى الاستانة تماما . نعم أن الموظف الانجليزى كان عرضة للخطأ فى بعض الاحيان الا انه كان حسن السمعة ولم يكن يستطيع أحد أن يجادل فى ترفعه عما يمس كرامته .

العشيره

هنالك سبب آخر للضعف الذى تسلط على مركز انجلترا فى الاستانة خاصة وفى البلاد العثمانية بوجه عام . ذلك انه لم تعد للانجليز جالية بريطانية فى الاستانة تشتغل بالشئون الاقتصادية الا أولئك الذين ينتسبون اليها زورا وبهتانا وهم من مرتزقة الاروام المتنجلزين ومن بعض الملطيين وهؤلاء ينتحلون هذه الصبغة إما

لاقامتهم فى لندره مدة من الزمن وأما لذهابهم اليها وعودتهم منها وهم يبتاعون السلع والبضائع التى يريدون نقلها الى الاستانة للاتجار بها . وهؤلاء المتطفلون على الجنسية الانجليزية مع ذهابهم الى لندره لايعرفون منها الا القسم المركزى منها . وعلى ذلك يكون الانجليز فى هذه العاصمة الشرقيه غرباء بالفعل لانهم يقتصرون سواء أكانوا عسكريين أم مدنيين على الاجتماع بعضهم ببعض فى معسكرهم أو فى دار المندوب العالى البريطانى . وكل مايقومون به فى المدينة مما يجعل لهم صفة الانتشار فيها هو الحراسه . فيمكن القول اذن بأنهم يكونون عشيرة خاصة بهم .

لقد كان لانجلترا على عهد عبدالحميد فى الاستانة رجال يشتغلون بالتجارة وبالشؤون الاقتصادية الاخرى، فكان الانسان حيثما ذهب فى انحاء المدينة وجدهم منتشرين فيها او ممتزجين بالناس ولهم آراء خاصة ذات نظر بعيد فهم لايعملون للوقت الحاضر بل يريدون خيراً منه وهم متأكدون بان مصلحتهم مرتبطة بموالاة العالم الاسلامي. فأين ذهب هؤلاء الحكماء البصيرون وهل اقفرت منهم البلاد الانجليزية فى هذه الايام ، ان الانجليز الموجودين الآن فى الاستانة لايريدون أن يتنازلوا عن أنفتهم وكبريائهم ويمتزجوا بالاهالى ويعرفوا أسباب آلامهم وحقائق شكاواهم فيجتذبوا اليهم قلوبهم ويكتسبوا

بذلك عطف الاسلام وحبه

لقد أصبحت اليوم قاعدة الاعمال فى المعسكر الانجليزى الاختلاق والافساد اللذين يقترفهما اصاغر العمال الذين افسدتهم الخليقة البيزانطيه

أما الفرنسويون فعلى الرغم من الظروف المحيطة بهم توجد لديهم جالية كبيرة من العنصر الفرنسوى البحت تجتهد فى نشر الاعمال الفرنسوية . والعثمانيون لاينخدعون من جهة هذه الجالية ولا يداخلهم الريب فى أمرها ولهذا فهم يجيئون اليها ليستضيئوا بآرائها . وفى السفارة الفرنسوية زعيم ذو قيمة وهو الجنرال بيليه الذى يلتف حوله الفرنسويون التفافا متينا ، اذ كل فرنسوى يعلم الحالة الحاضرة . وفى المعسكر الفرنسوى لايوجد اختلاق ولا كل عمله قائم على التجرد من الغاية وعلى كثير من حسن العمل ومن الروية والتعقل وهو يبذل مجهودا عظيما لصرف العاصمة التى يعمل لاجتذابها المعسكر المضاد له

وهكذا رأيت القسطنطينية المرة الثانية فى أوصابها وهمومها الاولى غارقة تحت لجج المكايد والدسائس ، والحرب ناشبة هنالك فى بقاع الاناضول وقد مضى عليها ثمانية عشر شهرا لاتنطفىء جذوتها ولكن العالم الغربى بل سكان الاستانه نفسها لايبصرون

من نيرانها بارقة يتعرفون بها حقيقة مايقع هنالك . لقد فارقت الاناضول منذ عام ونصف ولم يعد لى علم بما يحدث هنالك وحاولت أن اعرف شيئا عن الحركة الوطنية فلم أظفر بأمينتي فما الذى يجب علي فعله اذن لادراك هذا المطلب ؟ أمر واحد بلا شك وهو الذهاب الى الاناضول .

السفر الى البلاد العثمانيه

في ١٥ مارس سنة ١٩٢١

تمكنت من النزول فى الباخرة الايطالية الكبيرة التى كانت مزمعة على الابحار ومع ذلك فمن ذا الذى يعرف مايمكن ان ينجم عن امر هذا السفر من جراء ماقد تحدثه دوائر الاستعلامات الاجنبية العديدة التى تعتبره أمرا ذا أهمية جوهرية وهل من السهل السفر الى انقره فى رابعة النهار وعلى مرأى من جميع الانظار على الرغم من الفروض والظنون التى تدور حول هذا السفر ؟ ومع ذلك فقد اقدمت عليه ولم احاول اخفاءه . وفى ساعة التأشير على جواز السفر كانت السلطة الانجليزية تريد بلا شك ان تحتج على هذا العمل الا انها لم تتعد التبرم والاستياء اللذين لا اهمية لهما فى مثل هذا المقام وعلى ذلك بقيت فوق ظهر الباخرة سيسايا التى عندما حانت

ساعة ابحارها مخرت فى عرض البحر .

وكان جمهور من الوطنيين محتشدا على الرصيف متأثراً اشد تأثر وهو ينظر الى تلك السائحة وهى مسافرة الى كعبة آمالهم فما هو الشعور الذى كانت تحمله هذه السائحة من تلك العاصمة القصية ؟ اما الذين كانوا يرون هذا العمل مخالفا لمصلحتهم وهذه السائحة خصيمتهم فانهم كانوا يعتقدون أن الشعور الذى جاءت به ذو اهمية عظيمة وهو خطر عظيم عليهم

لقد كانت انباء المؤتمر الاوربى المعقود بشأن المسألة العثمانية تتوالى منذ اربع وعشرين ساعة بحالة سيئة فان الموقف قد اصبح مظلما وهو يزداد بالتدريج ظلاما والانباء الواردة بواسطة التلغراف الجوي تفيد ان مسالة ازمير سيبت فيها نهائيا . فقد وضع حل ثنائي لا يرضى أحد على الاطلاق . ولم يكن من المنتظر أن ينتج هذا الحل سوى ابتعاد زمن السلم الذى كان يرجى اقترابه . ولم تقتصر مباحث المؤتمر على الاقوال بل ارادت أن يحدث تحقيق فقبلت الامة العثمانية وأما اليونان فقد رفضت قبول هذا التحقيق وكان هذا الرفض غير قائم على سبب معقول ولهذا فقد كانت نتيجته المنطقية استمرار الحرب

ازمير فى ١٦ مارس سنة ١٩٢١

إن ازمير تتلألأ تحت السماء الصافية المنيرة وتهب عليها نسمة لطيفة من الشمال وترسل اليها شمس الصباح اشعتها الذهبية فمنظرها باجمعه آخذ بمجامع الابصار . غير أنه لا يوجد فى الميناء الا بعض بواخر ليس فيها عمل لان الارصفة خالية قحلاء . فلا ترى العين مركبة ولا جواداً ولا حمارا بل لايكاد يوجد انسان . ولقد يحسب المرء ان كارثة حلت بالمدينة فأخلتها من السكان فحيثما استدار البصر ألفى عنوانات باللغة الرومية ولكنه لم يلف أحداً فى المخازن والحوانيت ولقد كاد بنك روما يصاب بالخراب كما يقرأ على وجهته . هل اصابت ازمير مصيبة هائلة فغيرت معالمها فجأة وضربتها ضربة الموت ؟ أن الجواب لن يكون الا ان الحرب هى التي احدثت هذا الخراب . اتمد ساق الاروام كل ما فى المدينة الى ميدان القتال من رجال وحيوانات ومنقولات كما انهم فتشوا سائر البيوت وطاردوا جميع الاهالى المسلمين فوقف دولاب الاعمال لانه لا توجد يد عاملة تفرغ البضائع الموجودة فى البواخر فهذه البواخر تعود اذن محملة ببضائعها كما جاءت وبهذه الطريقة تعطلت حركة التجارة وحركة النقل واخذ كل انسان يلعن هذا القتال الذى لا ينتهى .

وصار من المستحيل المخاطرة بالخروج الى بعد ثلاثة كيلومترات عن المدينة بدون استصحاب حرس قوى جدا . فالفلاحون يحرسون كرومهم ومزارعهم وبنادقهم فى ايديهم ، والجبال المجاورة للمدينة استولى عليها العصاة والهاربون . فأدى هذا الامر الى مجيء الربيع بدون أن يكون مصحوبا بالمحاصيل وبالحصاد فصارت هذه الولاية الغنية فى منتهى الفقر . وما أزمير وهى منفصلة عن ولايتها الا جسد مجرد من الروح

لقد كان القادم الى ازمير فيما سلف يتلذذ بالمناظر البديعة والسماء الزرقاء ذات النور الدائم والجو الرطب المنعش والحدائق الغناء وأماكن الانس والطرب العديدة . وكانت العيشة فيها رخية الى منتهى ما يمكن تصوره . أما الحالة الآن فعلى عكس ما كانت عليه من قبل . فالمدينة مقفرة والسلطة الرومية ساقت الى ميدان القتال حتى آخر جمل وحتى العربة الاخيرة . ولم تر العين فى طول الميناء وعرضها الا رجلا من الجندرمه واقفا صامتا يرسل نظره الى آخر امتداد الفضاء وهو بالطبع يتأمل فى هذه الحالة المحزنة . ولم يبق من هم لسائر الناس الا انتظار نهاية هذه الحرب حتى الاروام انفسهم اصبحوا ينتظرونها بنافذ الصبر بعد ان كان حب الفتح والتوسع يكاد يلتهم عقولهم وقلوبهم . أما الافراد القلائل من الفرنسويين

والانجليز الذين كانوا يدبرون اعمال بعض الشركات الاقتصادية من قبل فقد أصبحوا يندبون حظهم وحظ شركاتهم ويقولون ان هذه الحرب ستخرب الولاية وثغرها بلا شك فى اقرب وقت ان لم تعجل اوربا بأنهائها وهم يرون أن مثل هذه الحالة الجنونية لا يصح أن تدوم طويلا .

ولما القت الباخرة سيلسيا مراسيها فى الميناء ولم تجد من يساعدها على افراغ حمولتها انزلت برجالها الخصوصيين بضعة أطنان من البضائع

رودس في ١٩ مارس

واحة نضرة وحياة هادئة تكاد تكون نائمة فى جفن الدهر وربيع مزهر وحدائق حافلة بأشجار البرتقال وزفرات النسيم تنحدر من أعالى الجبال الى سفوحها وإيراق كل شجرة وتألق كل صخرة فى جو متناهى الصفاء . هذه بعض المناظر التى تتمثل لعين المتفرج على جزيرة رودس وهو فوق ظهر الباخرة

وهنالك على الشواطىء شبان من الطليانيين يحملون بنادقهم وهم جلوس تحت اشعة الشمس يرسلون انظارهم فى الفضاء حتى اذا ما اقتربت الباخرة سيلسيا منهم وجهوا انظارهم الى ركابها الذين

كادوا يجنون من الفرح وتراموا على المركبات وهم يرتجفون مخافة أن تبحر الباخرة قبل عودتهم اليها لانها كانت واقفة فى عرض المياه
ورأينا الطواحين الهوائية ترفرف اجنحتها فى أعلى الجو والحصون الجميلة تحيط بها خنادقها

وكانت المدينة الصغيرة ذات رواء فاتن وبهاء جاذب وهى تدل على ما اختصت به من حسن العناية وكمال النظام . وسوقها جميلة النسق غاصة بكل مايراد والمخازن ملأى بالفواكه والحلويات وسائر المواد الغذائية . فالاناضول كلها تستمد مطالبها من هذه المدينة . والمراكب الشراعية لاتنقطع عن السير مابين رودس واضاليا .

وقد تقبل حاكم رودس السعيد بشوش بكل ترحاب ورزانة جمال التهانئ الموجهة اليه على حسن ادارته وزيادة اهتمامه بشئون هذه الجزيرة . وحديقة قصره تكاد تعتبر جنة الخلد ورجال ادارته عرفوا كيف يستفيدون من مزاياه ويرقون الشئون الاقتصادية فى جزيرتهم وكذلك الاهالى استفادوا من حسن حظ هذا الحاكم الذى جيء اليهم ليكون سعيدا بينهم ويكونوا سعداء به

اضاليا في ٢٠ مارس

هذا هو المنفذ البحري للوطنية العثمانية والايطاليون بوابوه المتساهلون ولكنك لن تستطيع المرور منه بدون السماح لك من انقرة مباشرة . ويرى الداخل صفوفا من الحجارة الحمراء نائئة فى البحر وحصونا عتيقة كأنها العالم فى قدمه تنحدر الى البحر وهى مكونة بابا ذامصراعين الا انها لا تزال ثابتة الدعائم قوية الاركان وتوجد صخور هائلة تحمى المدخل .

وقفت الباخرة سيسليا باحترام على بعد من المدخل فأسرع كل الركاب الى مقدمها ليتمكنوا من النظر بانعام الى أرض الاسرار والعجائب التى لايستطيعون ان يخطوا خطوة واحدة فيها . وانها لأرض صامتة بعيدة جذابة بسرجة مدهشة . وفى الحال اقبلت من داخل المنفذ بضعة زوارق تتلاعب بها الامواج تلاعبا خطرا حتى اقتربت من الباخرة ومستها بسكون فوثب من الزوارق عدة ضباط عثمانيين الى سلم الباخرة وصعدوا مسرعين ثم أخذوا يفحصون الجوازات وتبادلوا عدة كلمات بصوت خافت مع الرباز الايطالى . وعلم على اثر ذلك ان احدى الراكبات هى التى سيسمح لها بالنزول الى الشاطئ وحينئذ أخذ كل من فى الباخرة ينظرون الى هذه الراكبة بدهشة وحسد

الفصل الثاني

فى البلاد العثمانية الوطنية

اضاليا

لا يكاد المرء يخطو الخطوات الاولى فى أضاليا حتى يشعر بأنه قد وجود حقيقة فى حياة جديدة وهى حياة الحركة الوطنية التي تعرف بصفاتها الخاصة بها وهى : السرعة واصدار الاوامر بمجرد القاء نظرة واحدة . وما اعظم الفرق ما بين هذا النشاط وذلك الجمود المستولى على المنطقة الرومية فأنه مدهش . فأن صفوف الجمال القادمة من داخل الاناضول والتى بالطبع سأقابلها فى طريقى تذهب الى الميناء وتحمل البضائع المختلفة . والجمرك غاص بالاسلحة والمهمات الحربية والذى يقوم بأدارته رئيس شاب يشغل وظيفتين فى آن واحد أى أنه عسكري ومدني ، وهو لا يفارق تليفونه مع مراعاته بنظره الداخلين والخارجين ومع اجابته على كل من يوجه اليه سؤالا . وبدأت اسمع هذين اللفظين اللذين تلهج بهما الالسنة فى سائر الاناضول وهما انقره ومصطفى كمال باشا

ولم تطل مدة الاجراءات الرسمية المتبعة اذ وصلت الاوامر اللازمة

من انقرة فى الوقت المطلوب فاستطعت حينئذ أن أدخل البلد . بين الجمرك والمدينة تمتد طريق تشغلها القوافل الذاهبة الآتية . وفى الحقيقة ان كل شىء هنا يلفت النظر فالجمهور هنا مكتس بثياب زاهية الالوان والانظار مكتحلة بالضياء والاهالى مختلفو الاجناس والعناصر وكل فرد منهم يرفع رأسه شمما وكلهم يشتغل ويسرع فى مشيه والملتجئون قادمون من بورصة أو من أيدين وهم يختلطون بأهالى اضاليا مابين مسيحيين ومسلمين . ويظهر ان نفحة من الحياة المنعشة اخذت تهب علينا ، وتراءى الربيع فى حلة فاتنة يزهو بازهاره ونفحاته الذكية ومر أمامى نهر حر فى جريانه مخترقا اضاليا ومجتازاً الطرق الكبرى ومحاذيا الازقة والشوارع ومالئا بخريره المدينة وعلى جوانبه شجيرات السوسن واشجار البرتقال تعطر بشذاها الجو الصافى .

كانت الحركة فى قصر الحكومة على أعظم مايتصوره العقل فالضباط والموظفون الملكيون يجيئون ويذهبون متزاحمين بالمناكب سراعاً حتى لكانهم يركضون وهذا القصر هو نقطة اتصال سائر الاعمال فى هذه الجهة . فكلما حدث أى أشكال أواختلاف يطلب الفصل فيه من انقره فى الحال فيصدر الأمر الحاسم . وكان جمهور عظيم جداً والقسم الاعظم منه من المسلمين يسرعون الى تلغرافات

اليوم ليطلعوا عليها . فأن الهجوم اليونانى ابتدأ والشعب يريد أن يقف على أنبـائه الاولى . وكانت مقابلة الوالى حسنة وعسكرية جداً وفى دائرة النظام وفى بضع دقائق ازيلت كل العوائق وتقرر السفر غداً وصدرت الاوامر بذلك . ماأسهل كل شئ هنا ! فالامر مقصور على أن يدع المرء نفسه تنقاد بالقوة الخفية التى تدبر الامور من بعيد وتسهر من بعيد على كل شئ . حقيقة ان هذا عالم جديد مدار بقوة ارادة مفردة تنحنى أمامها كل الرءوس .

وفي المساء حـدثت مناقشة طويلة في بيت الدكتور جميل سليمان وصار ايضاح كل شيء وكان السخط على اوروبا المتحالفة عظيما جداً وقد أوضح الدكتور شعور الوطنيين فى قوله الآتى :

« اهجوما يونانيا جديدا أيضا ! وهل هو الا نتيجة دائمة لكل مؤتمر يعقد ، وهل رؤيت تعامل بلا شفقة ولا رحمة كهذه البلاد ؟ »

ثم أخـذ الدكتور يشرح لى مجهوده الخاص الذى بذله في الترتيب الذى قام به فذكر انه شيد مستشفى جديدا وهذا المستشفى يقوم بأداء مهمته على أتم نظام ويوجه السرعة المتناهية ورجاله لا يقر لهم قرار ولا يعرفون للراحة اسما ولماذا هذا ، للتمكن من الدفاع ضد اغارة لا مبرر لها مطلقا ولا عمل لها الا أن تحدث تدميرا فوق ما دمرته من قبل ثم قال :

« ان فرنسا تريد أن تبرم اتفاقا فلماذا لاتبرمه ؟ فهل تكون الحياة ممكنة مع هذه المكافحة الدائمة ضد ارادة دول الاتفاق السيئة؟ ان انجلترا لاتريد الا خرابنا فنحن مضطرون بحكم ارادتها الى مغادرة الجهات الخصبة ملتجئين الى سهول آسيا فى المراحل العسيرة وهذا ما يسمي تهدئة الحالة بالسلاح . »

« وليحدث كل شر وأذى اذا ما الجأتنا الحالة الى أن نصير فى آخر الامر آفاقيين وآثمين معتدين مستعدين لان نقترف كل كبيرة كما يتهموننا بذلك . »

وفى خلال هذه المناقشات كان على الرغم من غضبه المعقول يوالى عمله الخير معتنيا بمعالجة مرضاه ومهتما بترتيب معمله الكيماوى . وقد زرع حديقته وربى فيها طواويس بديعة وفى أوقات فراغه كان يهرع الى المكتبة التي كانت تشغل أوقات فراغه النادرة فى التلاوة والاستفادة بالكتب العلمية التي لم يكن لديه منها القدر الذى يكفى لمطالبه . آه من هذا الحرمان الذى آلمت اذنى فى كل مكان الشكوى منه !

وصرنا نخترق السوق فوجدنا كل شىء موجودا فيها بكثرة فائقة وذلك لان أراضى أضاليا ذات خصب لم يسمع بمثله وكان الضباط الايطاليون يسيرون متنزهين فى الشوارع الكبرى التى تحاذى الاسوار القديمة وهم فى منتهى الوداعة والبشاشة حتى اذا

ما ابتعدوا عن هذه الشوارع اختفوا فى حدائقهم التى تحيط بالبيوت القديمة التى لاتزال حافظة شكلها العثمانى الاول وهى مكتنفة بسياج خشبي ضيق مصنوع بالطريقة التى توافق الحياة الهادئة السعيدة فى هذه الارض الحافلة بالخيرات

بوردور

لقد تقضت الاسابيع فى قطع المراحل ، اذ كان علينا أن نسير الف كيلو متر فى المركبة . وقضى الطريق أن اتاخم ميدان الهجوم اليوناني فاستطعت أن أدرس تأثيرات مثل هذه الاغارة فى الاماكن التى حدثت فيها وهي فى ابانها .

فأول ما انبسط أمام نظرى الوديان البديعة الحافلة بالمزارع المختلفة والفلاحون الذين يبذلون مجهوداتهم العظيمة فى الحرث والزرع ؛ وعلى الجبال تبدو حياة الرعاة فى صفائها الدائم فالقطعان العديدة المنتشرة على القمم والسفوح ترعى الاعشاب والحشائش بطريقة قلما ترى العين مثلها فى سوى الاناضول . وكنا نقضى المساء فى المدن أو فى القرى وقد ساد عليها الهدوء التام وسكانها متمتعون بالحياة الرغدة وصدورهم منشرحه . وكان الاعيان يجيئون الى ويلتفون حولى فيخاطبوني فى الشئون الاوربية المرتبطة

بيلادهم فكنا نتحادث بهدوء وانشراح . وعلى هذه الوتيرة اجتزت منطقة المزارع والمراعي البديعة قاضية معظم شطر من الربيع الضاحك الزاهر ، غير ان الافق اكفهر بسرعة وأصبح الجو متلبداً بالغيوم اذ بلغ الهجوم اليونانى أشده فى الاندفاع على افيون قره حصار وأخذت الجماهير تهرع من أمام هذه المباغتة العظيمة ، وكان الناس يتناقلون الانباء ويتناقشون فيها مساء فى دينار وصندوقلى وفى سائر المدن المنتشرة على امتداد الطريق وكان الرجال المجندون يحتشدون فى كل مكان وقد استولى الغم الشديد على سائر البلاد وانتشرت تفاصيل المعارك الاولى واقبل اللائذون باذيال الفرار جماهير وهم يقصون مختلف الانباء على المسامع ذاكرين ان الاروام يحرقون وينهبون ويقتلون وينتهكون الحرمات وقد حكموا سلفا على النساء والاولاد والشيوخ من المسلمين فعم الغضب والهياج المظلمان كل جهة من جراء هذا الظلم الفادح وأخذ الناس يتساءلون فيما بينهم : « ماذا جرى منا ومذا يريدون بنا ؟ »

وأصبحنا وقد خلت الطرق في وجوهنا من تلك القوافل الطويلة التى كانت تسير فى مقدمتها الحمير الصغيرة الهادئة بل صارت ازاء أبصارنا كوكبات تحمل الجرحى وشرازم تحمل الذخائر فما ترى العين حيثما ترامى شعاعها الا جنودا ماثجه . وعلى بضعة كيلو

مترات من افيون قره حصار اضطررنا الى الانثناء الى الخلف تفاديا من سقوط قنابل المدافع التي كانت تقصف على قرب عظيم منا . وفي بضع ساعات حدث تناقض عظيم ! فقدأصبحت الحقول خالية والطرق يسودها سكون الموت واختفت قطعان الانعام ولم تعد ترى مركبة في الطريق بل تغيرت بالمرة معالم كل تلك الحياة الفياضة التي كانت منتشرة بالامس في كل مكان . ولم يكد الحوذيون يقبلون اخراج مركباتهم من مدينة صند وقلي الا بالجهد الشديد بعد صدور الاوامر الصارمة من كبار موظفي البلدية. وسرنا في وسط آلاف من المخاطر والاهوال قاصدين بوزدور .

واستقبلتنا البعثة الخامسة من الهلال الاحمر بالترحاب العظيم والعناية الفائقة وكانت قد وصلت حديثا الى هذا الوسط الغاص باللاجئين . وأخيرا تحولت الانباء من سيئة الى حسنة فاستبشر الناس وحل الفرح محل الترح . وذلك أن الوطنيين العثمانيين قد بدأوا بالكرة على اليونانيين وتتوجت حركتهم الكبرى بالنجاح الباهر فظهر في الميدان كبار رجال العسكرية الوطنية : وتولي مصطفى كمال باشا القائد العام الاشراف على مجموع الاعمال الحربية وتولى القيادة في اسكي شهر عصمت باشا وقاد بقية المواقع الاخرى الممتدة على جبهة القتال رأفت باشا وفيضي باشا واندمجوا جميعا في

وسط جنودهم ليكونوا مشرفين على سائر الحركات الكبيرة والصغيرة بأنفسهم .

وخبت نيران الدهشة الاولى اذ تمزقت الهجمة الرومية الاولى التي كانت قد ابتدأت من بورصة بقصد الاستيلاء على اسكي شهر فلم تلبث أن تلاشت امام أين اونو كما ان هجمة عشاق التي كان يراد بها الاستيلاء على افيون قره حصار اخفقت امام نفس المدينة التى بدأت منها .

وكان الانسان يرى مساء فى مستشفي الهلال الاحمر ما يسره ويشرح صدره ، وذلك ان الشبان الذين كانوا يجيئون الى هذا المستشفى بقصد اجراء عمليات جراحية لهم او لاجل ضمد جراحهم او لتغيير اربطها او لعرض امراضهم وآلامهم لايلبثون بعد قضاء خمس عشرة ساعة فى الراحة ان يعاودهم النشاط وتتجدد قواهم ويطلبون السماح لهم بالعودة سريعاً الى صفوفهم لمعاودة القتال دفاعاً عن وطنهم ضد المغيرين المعتدين .

وكانت الانباء كلما جاءت مبشرة بنجاح جديد تناول اصغر الفتيان آلة طربه وأخذ يوقع عليها نغمات بديعة تصحبها أغان صادرة من اعماق قلبه وما هي الا اناشيد عثمانية قديمة دائرة حول محوري الحب والحرب وكانت الآلة والانشودة تكتسبان نغمة الشكوى

والانين ولكن الانظار لا تلبث ان تنتعش ويحل الامل من نفوس الشبان محل الهم واليأس .

وقال الدكتور لطفى الطبيب فى مستشفى الهلال الاحمر لى : « أي شىء لا يمكننا ان نفعله لاجل وطننا المسكين الجميل ؟ »

وكانت بوردور وبحيراتها ذات الماء الملحى المعدنى واللون اللازوردي تحيط بها الورود وازهار الخشخاش وعلى الرغم من الحياة العادية العسكرية فان النساء كن يتاهبن للحصاد والاطفال والكهول يتولون أمر قطعان الانعام . ولا يمكننى أن انسى أبد الحياة تلك الايام التى قضيتها فى هدوء متناه فى الغرابة فى بوردور التى يدور حولها القتال وانا مقيمة على ارتفاع الف متر . فجاءتنى رسائل من رأفت باشا تلتمس منى التدرع بالصبر وأقبل اليّ ذلك الشيخ الجليل رئيس البلدية يتبادل معى الآراء فى مجرى هذه الحوادث . وكان الجميع يتخيلون ان جزءا من فرنسا قد اقبل الى هنا ليشترك معهم فى المعترك الهائل وأنهم لابد من ادراكهم تموز من جراء هذا الاشتراك

افيون قره حصار

فى ١٦ ابريل ١٩٢١

لقد أسرع الاروام فى زحفهم طائرين على اجنحة العجلة

والتهور تاركين خلفهم اكواماً من الريش المتساقط منهم وهذه الاكوام تشبه ربوات صغيرة ، وما هذه الربوات سوى آثار الطيور التي ذبحت فى تلك الجهة ، وفى جانبها آكام اخرى من الصوف وهى أوبار الاغنام التى ذبحت . والى جانب هده المذبحة الهائلة التي ذهبت فيها تلك الحيوانات الداجنة سدى توجد فجوات احتفرتها القنابل وجبال من الورق ومن العلب المحفوظة فيها أنواع الاطعمه وجثث حيوانات . وكل هذه المناظر تكون ساحة حرب حقيقيه وسارى ساحات كثيرات من قبيلها كلما ازداد تراجع اليونانيين لانهم لا يرتكبون هذه الشرور الفظيعة الا عند ماتحملهم قوة السيف على ان يولوا الادبار . ولكن الوطنيين الذين صاروا خبيرين باعمال التخريب والتدمير التي يأتيها اعداؤهم اثناء انسحابهم اصبحوا احزم من أن يدعوا الوقت الكافي لان يرتكب فيه هؤلاء المفسدون اعمالهم الوحشية فهم اذا ما هاجموهم استمروا فى تعقبهم فلا يجد الاروام امامهم متسعا من الوقت ليحدثوا تخريبا عظيما فتكون اعمالهم مقصورة على احراق بضعة مساكن واتلاف محطة ونسف قنطرة . وكل هــذه المسائل التافهة يصلحها الوطنيون فى اسرع وقت فتعود الحياة فى الجهات التي كان العدو قد اكتسحها الى ما كانت عليه قبل مدة الاكتساح .

أن افيون قره حصار القلعة السوداء أو بمعنى أوضح قلعة الافيون هي ملتقى خطوط الاناضول الحديدية ولكن ماذا بقى اليوم من وسائل النقل فى خط سكة حديد بغداد المنتهية الى محطة حيدر باشا بالاستانة ؟ أن هذا الخط ليس سوى البقية الباقية من مجموع السكة الحديدية البغدادية التي أصبحت متفرقة متجزأة الى عدة مناطق ولم يبق له عمل مذكور بعد ان أصبحت مخازن افيون قره حصار الكبرى خاوية على عروشها . ومع ذلك فأنى اردد مرة اخرى اعجابى بالسرعة المتناهية التي يعيد بها الوطنيون تنظيم موارد الثروة ومصادرها فى البلاد التي تعود الى أيديهم بالاستفادة مما بقى فيها من وسائل الانتاج . لقد رأيت مفتش الخطوط التلغرافية فى بوردور وهو شاب نشط سريع الحركة قد خف الى افيون قره حصار على أثر رد العدو عنها ووصل سلوكها ببوردور فما لبثت المواصلات التلغرافية ان عادت الى ما كانت عليه فى اقصر وقت . وكل اعيان المسلمين الذين اقمت لديهم كانوا لايزالون فى اشد الروع والفزع من الارهاب الجديد الذى لم ينقذوا امتعتهم وبضائعهم منه الا بشق النفس

واقبل الي المندوب الخاص المعين من قبل عصمت باشا لاعمال النقل العسكرية فخصص لاقامتي مركبة فاخرة من مركبات السكة

الحديد. وأخذت الجماهير المتتابعة الى مدى بعيد تقف عند القنطرة التي كانت تصلح بمنتهى السرعة . ووقف الضباط على الشاطىء يشرفون على عبور جنودهم الى الضفة الاخرى وهم يصدرون اوامر موجزة بصوت منخفض رالجميع مزودون بالطاعة التامة وقوة الارادة العظيمة مسرعون الى التلبية عند كل اشارة وكانت اعمال الافراغ تتم بسرعة . وقد تمكنا من أن نصير في الطريق العامة المنتظمة بعد ان اجتزنا العقبات الاولى الجارية فيها الاعمال بأصلاح مفاتيح الخطوط المتقاطعة التي كانت قد اتلفتها المفرقعات . وقد أخذنا نشرف طول الليل على القطارات القادمة بالجرحى والقطارات الاخرى الذاهبة بالنجدات . وقد تواجدنا هـذه الدفعة في منطقة القتال نفسها .

اسكي شهر

دقت الساعة الثانية والنصف صباحا فوصلنا الى محطة اسكي شهر وهي المحطة التى غادرتها منذ ثمانية عشر شهرا على مرأى من الانجليز الذين التزموا جانب الصمت وهم متراجعون الى الخلف عند ما ودعني اذ ذاك الضباط العثمانيون .

فما أعجب هذا الانقلاب المدهش! ان الحركة العسكرية تذكرنا بما كان يرى من مثيلاتها على الجبهة الفرنسوية فى أحرج أوقات الهجوم. وقد كانت صناديق الاسلحة والذخائر والرجال وأدواتهم والفصائل التى تتألف حديثا منتشرة في كل مكان وما كدت انحدر من مركبتي حتي وجدت أمامي ضابط الطيران لدى عصمت باشا الذى عجل بأخذ أمتعتى حتي ردائى، وهو شاب سريع الحركة لم يدعنى أقضى أكثر من دقيقتين في المحطة وبعدها كنت فى المركبة التي تنتظرنى وابتعدت عن المحطة في الحال وأعطى هذا الضابط برنامجى في هذه المدينة وهو يتضمن اقامتي عند الدكتور فؤاد. أما عصمت باشا الذى لم يتمكن من الحضور الىّ بنفسه — وكان يرجو أن يتمكن من الحضور — فسيصير هنا في ظهر الغد. وعلى ذلك فسأتمكن قبل حضوره من زيارة المستشفيات العسكرية وأهم النظامات التي تكونت حديثا بوجه السرعة لاستقبال الجرحى الواصلين من ميدان القتال.

وفى الميل حاولت أن أتعرف أسكي شهر التي كانت لاتزال صورتها الاولى مرتسمة فى ذهنى الا انها كانت قد تغيرت تغيرا تاما فلا يكاد البصر يعرف منها شيئاً قديما: فالمضارب تشغل كل الساحات الخاليه وقد انشئت أحياء جديده. ثم استقرت المركبة

أمام منزل الدكتور فؤاد . والآن بعد أن قضيت أسابيع في عيشة المعسكرات ،سأتمتع مفاجأة بعيشة الحضر فأجلس بانشراح على مائدة فاخرة بديعة الاوانى والرياش فى قاعة الطعام التي ما كنت أحلم برؤية مثلها فى مثل هـذا الوقت ومثل هذه البقعة وزادنى ارتياحا انني صرت في قلب القلعة الشهيرة الي ما كنت اتصور الرجوع اليها .

وكانت الساعة الرابعة صباحا فأخذنا نتحادث بلا انقطاع الى الساعة التاسعة حيث كان لابدلنا من السير وقد قالوا لي لو شئت ان تستعملى حقنة تحت الجلد لما اصابك اقل خوف فأنك ستزورين طيارة يونانية وهى لاتحدث سوءاً شديدا .

وقد تفقدت الوسائل الصحية التي اتخذت فى اسكى شهر فرأيت الاماكن الغاصة بالجرحى المقبلين حديثا من ميدان القتال فى جهة جندزبك . وكان عمال الهلال الاحمر يشتغلون بلا انقطاع وقد سادت النظافة فى كل مكان . ومررت بقاعات العمليات الجراحية وقاعات التغيير والتنظيف واعجبت بشجاعة الجرحى فى تحملهم الاعمال الطبية وكذلك اعجبت بصبر الاطباء والممرضات على متابعة الاعمال بغير استراحـة . واشتد اعجابى برؤيتى الاغطية والملابس والمناشف البيضاء كلها ناصعة ليس فيها شائبة ما . وكانت

النوافذ توصل الهواء النقي الى حجر المرضى الذين يتمتعون بأتم الراحة وأوفر العناية كما يرى ذلك على وجوههم الهادئة

وكذلك كان النظام والهدوء شاملين قاعات الجراح الكبرى. ودخلت قاعة المحتضرين فراعني تحرك أحدهم للنهوض محاولا ان يخاطبني باسم الجميع . وقد بدت عليه علائم الاضمحلال ولكن وجهه لم يكن ينم على قرب احتضاره فحاولوا اعادته الى مرقده فأبعد الاطباء والممرضات بأشارة سامية ذات هيبة وجلال ثم وجه الي الخطاب قائلا :

« انى ساموت عن قريب وأنا سعيد بان أجود بحياتى لوطني وهذا الامر يكسبني الحق في أن اخاطبك بغير تكلف ولا مواراة : فسامحيني على هذه الصراحة ايتها السيدة . انك سترين اشياء مرعبة وما هي الا مظالم هائلة ، وهذه المظالم قد اقترفها حلفاؤكم وما سمعنا أن فرنسا احتجت باسم الانسانية على شيء منها . وسترين بعيني رأسك ما الذي انزله اولئك القساة بجارحنا وبشهدائنا ، كما انك سترين ما اصاب الاهالى المدنيين المساكين . فالنساء ستقص عليك انباء تلك المصائب كما سيقصها عليك اعيان البلاد . وستبصرين مساجدنا قد وطأتها النعال وأصيبت بسائر ضروب الامتهان وقبر ارطغرول الكائن على مقربة من صود . وكذلك سترين في نفس

اسكي شهر عمامات خلفائنا الاول وهي ملتقطة من الاطلال المتراكمة ومكانها غير بعيد من هنا وقد مزقتها مخالب الكلاب . فباسم رفاقى التمس منك ان تجيبي مطلبا واحدا ارفعه اليك وهو ان تعيدى فى بلادك ماترينه وما تسمعينه هنا . »

وقد رأيت أسكي شهر مضاعفة عما طرأ عليها من الجنود والمهاجرين ، وقد كفتني عدة ساعات قضيتها فى عاصمة عصمت باشا العسكرية لان أقف على كل ذلك المجهود الهائل الذى يبذل بهدوء وعزيمة ولم اترك فرصة تمر مني بدون الاستفادة منها ولا دليلا لم استجمعه فرأيت النظام التام فى كل شيء والخفة فى العمل والذكاء المتوقد فى الفهم والابتكار والخلق الكريم وهذه الصفات سأظل اشاهدها فى كل المنطقة التي ستمتد أمامي .

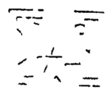
وزرت معسكر عصمت باشا العام ولاقته في مكتبه الكبير المتناهى في البساطة وأخذنا نتحادث وقد كان مستهل حديثنا الاتفاق على برنامج سفرى الذى يجب أن يبتدىء من الغد وكانت المعركة قد بلغت غاية شدتها . فأراد عصمت أن ينتهز هذه الفرصة الحاضرة فيقضيها في محادثتي فقال :

« لقد رأيت مجاريحى اليسوا جنود شجعانا ، واني لا أستطيع أن أتعزى بأى شيء عن فقدى مثل هذا العدد العظيم من أبنائى

ولكي انتقمت لهم »

ان ما امتاز به عصمت من الاقدام والبشاشة والمهارة والخلق الرضي والحديث العذب وتجنبه استماع كل مايلقى عليه من المديح جعلته محبوبا الى الدرجة القصوى في الاناضول . وهو يبلغ سبعة وثلاثين حولا ومهمته في الترتيبات العسكرية عظيمة جدا . ففي يناير سنة ١٩٢١ حسب الانجليز انهم تمكنوا من القضاء على الوطنيين اذ استطاعوا أن يحدثوا ثورة عظيمة في قونية فخف عصمت الى اعادة لم شمل الجيش وتنظيمه والقضاء على كل العصابات التي وقفت في وجه الحكومة الوطنيه .

وبالعناية التي عهد ان ينجز بها سائر أعماله رسم خطة سفرى : فسأخترق منطقة المعارك الحديثة . ومن كنت أشك فيما سأراه في هذه المنطقة . وهل يعرف الذين يتلقفون الاخبار عن بعد مقدار ماتتأثر به نفوس الذين يرون آثار الفظائع التي ترتكب في الشرق أثناء الهجوم أو الانسحاب ؟



على جبهة عصمت باشا
فى ابريل سنه ١٩٢١

أن ساحة قتال جندزبك تبتدىء من بضعة كيلو مترات من اسكي شهر وقد تمكن عصت باشا بمهارته الفائقة من استجرار خصمه على غير علم منه بما سيحدث له الى المكان الذى اعده هذا القائد لسحق ذلك العدو . وما كاد يصل العدو بالفعل الى ذلك المكان وهو يحسب انه فاز بالنصر المبين حتى فاجأه عصمت باشا باعظم ضربة اصيب بها الخصم العنيد فى كل تطورات هذه الحرب . واجتزت فى يوم با كمله كل مواقع القتال الهائلة ، وما رأيته لم يمض عليه اكثر من بضعة أيام فمعالم المعارك لم تتغير بعد . ويكفى للناظر ان يتلو ما هو مخطوط بالدم على صحيفة تلك الساحة حتى يعلم هول الوقائع التي حدثت فيها .

أن الروائح الذكية التى كانت تنبعث من أزهار الربيع المتفتحة تشوبها روائح تعفن الاشلاء المطروحة على الثرى فى كل مكان ومع ذلك فعلى الرغم من تعدد هذه المناظر البشعة فأن السماء متناهية فى الزرقة والضوء وضاح والنسيم عليل وصوت السيد الحوذي الذى يسوق جوادي مركبتنا بسوطه الرنان كان مع ضخامته

وغلظته لايتغلب على هذه المناظر المؤثرة فى النفس ويصرفها عن التفكر فيها .

وبدت حفائر القنابل فى شكل هائل والعواسج تشتبك فوق اشياء غريبة من صناديق مملاًى بذخائر المدافع الى اكوام من ذخائر البنادق وقد دمر بعضها ، فأدوات حربية من سائر الانواع وكذلك كان وجه الارض مغطى باكوام من الورق ومن صناديق المواد الغذائية المحفوظة . وابتدات المركبة تصطدم بما يعرض لها من العراقيل . وكان للديناميت مفعول فى هذه العوائق فأن الكبارى التي كنا سنمر فوقها متلفة ولم تصل اليها يد الاصلاح الوطني بعد فلابد لاجتياز هذه العقبات من مهارة الحوذيين الاناضوليين الذين يعرفون كيف يتخلصون منها بمهارة فائقه وكيف يعبرون الغدران من مخاضاتها .

وكان دليلى ومتولى حمايتى الذى لايزال فى شرخ الشباب والذى كانت تقع عليه كل تبعة سفرتنا هذه يبذل عناية مضاعفة فى سبيل راحتى والمحافظة على سلامتى . فكان يجتاز بقدميه مخاضات الانهر وهى فى جريانها الخطر ونحن نتبعه ثم يعود الينا فنتناقش بشئ من الحدة وبشيء من الرغبة فى المناقشة وكلانا يحتفظ برأيه الخاص . وكنا نتقاطع فى بعض الاحيان ونتصالح ونتفق دائما وكن

يجتهد فى تجنب التطرف فى الرأى بحزم مـدهش وان كان لهيب الحماسة الذى دائما يصحب الشباب الوطنى كما هو معهود عندنا أيضاً لايفارقه . وكان هـذا الدليل قد طاف كل انحاء هذه الجهة قبل عودته اليها معى فى هذه الدفعة فأخذ يشرح لى ماراه شرحاً دقيقا وافيا وأنا بين مستمعة اليه ومفكرة فى أنه يجب على كل من يريد أن يتأثر بمثل ما تأثرت به الحضور بنفسه الى هذه البقاع ليطوف بهـا ويتعهد آثارها المحزنة بنفسه فلا يكون حينئذ تأثره ناجما عن السمع فقط ويمكنه ان يصدر حكمه عن علم بحقيقة هـذه الحرب الشعواء وما جلبته من المصائب والارزاء . هنالك يتجلى له بأوضح بيان ما فى هذه الحرب من الغبن والافتئات على حقوق الناس والاضرار بالابرياء والاساءة الى الانسانية

واستمر منظر الطبيعة البديع ممتدا ازاء ابصارنا شيقا جذابا يرينا ما فى البلاد الاسيوية من جمال وسعادة ينبغى ان لاتشوههما التحكم والجشع والظلم وكانت الاشعة المتلألئة تكسو الجبال لونا بديعا فتلتمع قممها كأنها مكسوة بصفائح من الذهب .

وبدت لنا وهـدة فى قاعها بطارية من المدفعية منكشفة عن العمل للاستراحه . فخففت الى جنودها الابطال فرأيت عددا منهم يدخنون وبعضهم يأكلون وآخرين يتحدثون وسواهم يسبحون فى

بحار تخيلاتهم وفريقاً يملا جعبهم من العين المتفجرة .

ثم سرنا والتقينا فيما بعد بجنود أخر وبطاريات اخريات سائرة في نظام حسن وكلما التقت بنا احدى البطاريات وقفت وافسحت لنا الطريق لنمر ثم مرت فصائل من المشاة لتحل محل سواها وعلى اثرها اقبلت قافلة مؤن وذخائر . ثم عبرنا عدة مخاضات وانتهينا اخيرا الى القرى المدمرة وهنالك رأينا جنودا اخرى ومدافع ولحنا عن بعد آثار مدينة صود وهي المدينة الوحيدة التي تمكن الاروام القساة من تدميرها واهلاك اهلها

أن صود مدينة صغيرة في جنوب الاناضول وهي باتصالها بمدينة بورصه كانت اسعد وانضر مدن آسيا الصغرى . وكانت هذه المدينة الى بضعة ايام فقط محتوية على كل ضروب البهجة والانس والصفاء التي ترغد بها الحياة الانسانية ، الا ان الاروام مروا بها فمر بها الغم والاكتئاب . وهنا بلغ الهجوم الانجليزى اليونانى مبلغه الاقصى فلما آن زمن رحيلهم تخلف من بعدهم جنود التدمير الذين يتزيون بأزياء توافق ملابس هذه الجهات فيأتون على المدن والقرى بالمحو فان سقط احدهم في يد الجنود العثمانيـة ادعى انه من الاهالى المطمئنين الخاضعين وان لا يد له في تلك الاعمال الوحشيه . ولقد تشبه خراب صود شبها مدهشا خراب

روا ولا سيني لدينا حينما تقهقر الالمانيون لاول مرة . فقد استعملوا اذ ذاك الديناميت والقفاقيع الملتهبة والخرطوش المتفرقع .

ولقد سمعت فى كل مكان سواء أمن الضباط اليونانيين الاسرى ام من الاعيان ان الضباط الانجليز هم الذين كانوا يترأسون اعمال التدمير فشعرت حينئذ بضيق عظيم امام فظاعة مثل هذه الاعمال

وهذه الخرائب تغطى بانقاضها اشلاء القتلى فتنبعث منها روائح تثير النفوس الى اقصى درجة حتى ان ماينبعث من روائح ساحات القتال لايكاد يعتبر شيئاً مذكوراً بجانبها .

وحل الظلام بحلته السوداء فخف البوم الى الاطلال ينعق فيها ، واما فى الحدائق ذات الاعمدة المرمرية المختلفة الوانها والملتمعة حجارتها فان البلابل هي التى كانت تغرد بطريقة ساحرة . فخرجت بعض الخيالات من بين الاحجار واقتربت حتى اذا مادنت منا أخذت تقص علينا سيرتها وحقائق هذه الافعال التى تشيب لها الرؤوس والتى لايستطيع القلم أن يجري بوصفها .

وترى هنا وهناك آثار تدل على وجود مصنع أو بناء مجلس بلدي ، فالعدو اذن كان يوجه شره ضد كل مايختص بحياة المجموع . وكذلك لعب الخراب بالمساجد واستؤصلت جذور الكروم حتى لاتنبت مرة اخرى والاشجار الوريقة مطروحة على الثرى وهي

لم أطلع بعد أزاهيرها

ان الخسائر المادية عظيمة فقد حمل اليونانيون كل شيء ولكن يوجد ماهو أعظم من نهب الاسواق وسلب مافى البيوت وذلك هو الاعتداء على حرمة النساء وعلى ضعف الشيوخ والاطفال وما هذه الاعمال الا صدى الفظائع التى اقترفت فى أيدين وهى اعتداءات متكررة مرعبة على وتيرة واحده .

ويوجد على بعد كيلو متر واحد من صود قبر أرطغرول وهو معتبر أحد مزارات المسلمين المحترمة لديهم . وقد اسيء الى كرامة الضريح أفظع اساءة وشطر التركيب الصخرى الموضوع فوقه وكذلك المقبرة التى بجوار هذا الضريح اساء اليونانيون بها حيث جابوا اليها جرحاهم وموتاهم الذين لايزال المسلمون ينقلونهم منها . وقد أرانا الامام العجوز كل هذه المناظر المؤلمه . وربما كان الاروام وهم فى حالة هياجهم النفسى مما أصابهم من الفشل العظيم رأوا أن لايقتصروا على الانتقام بالاساءة الى الاحياء وتدمير الاماكن العامرة وسلب كل غال ورخيص بل رأوا أن يمدوا فى النكاية بكل ماهو وطنى اسلامى فاعتدوا كذلك على الاموات وعلى أماكن العبادات ، وهذا مارأيته متكررا فى المناظر التى وقعت تحت بصرى فيما بعد

وقد سئل الضباط اليونانيون الذين وقعوا فى الاسر حديثا :
« لماذا اقدمتم على ارتكاب هذه الفظائع ؟ »

فأجابوا بحكم الضرورة : لسنا نحن الذين كنا نريد أن نقترفها بل الضباط الانجليز هم الذين أصدروا أوامرهم بها .

وعلى ذلك يكون الضباط اليونانيون وأعيان المسلمين قد اتفقوا على اثبات وجود ضباط الاتصال الانجليز فى هذه الحوادث . ولا يوجد انسان واحد فى الاناضول غير مقتنع بأن انجلترا تجدّ فى محو تلك البلاد برمتها وما الرومي الا آلة مسخرة اى شخصا فى الدرجة الثالثة من الاهميه .

واستمرت مواكب المهاجرين تتابع . فالعربات الطويلة تمر مسحوبة بالثيران أو بالجاموس وهى مفعمة بالأدوات المنزلية . وكذلك فى سنة ١٩١٢ كانت الحال فكم من اسرات ومركبات كانت تترامي بها الطرق فتهيم فى كل صقع وواد ! الا أن تلك المناظر كانت فى تراقيا

وبعد صود أخذت آثار المعركة ترتسم فى القرى المحروقه التى اصبحت خاوية على عروشها فلا ترى العين فيها الاهرّا يتراءى كانه الحارس الوحيد لما تبقى من الحجارة المتبعثره . وفى قرى اخرى ترى أسرات مخيمة فوق الرماد . ثم مرت قنطرة كبيرة منسوفة

ومحطة مقلوب كيانها وهى محطة بيلجيك فنظرت بحزن واستياء الى أشلاء تلك المدينه النامتنة التى كنت قد ولعت بها عند مارأيتها منذ ثمانية عشر شهرا

وانضم الى ركبنا الصغير صديق آخر اسمه سعاد بك . وهو ذو علم وكياسة وبشاشة وبديهة ثاقبة بارعة وهى الخلائق العثمانية القديمة ويضم اليها النشاط وقوة الارادة وهما من الخلائق العثمانية الجديدة وتلك الثقة العظيمة التي تتستر بفلسفة الابتسام المنطوية تحت هذه الالفاظ : « يجب الابتسام فى بعض الاحيان تفاديا من البكاء . » وهى كلمات حقة امام هذه الدمن البالية .



البطل عصمت باشا



بيلجيك

أن بيلجيك مكان الاسى والالم الذى تنبعث منه رائحة لاتطاق وكم من جثة طواها الردى تحت انقاضه المتداعية التي لا يزال الدخان يتصاعد منها ! إن وطأة التدمير هنا بلغت منتهى الفظاعة ، فقد اصيبت بلدتي بيلجيك وكوبرولى بافحش المظالم ، والذين بقوا على قيد الحياة من سكانها تستثير حالتهم في النفس اقوى عوامل الغيظ فلا توجد شابة ولا فتاة لم تغد ضحية هذه الموبقات . فبيلجيك تعتبر بومبي اخرى حدثت كارثتها بالامس فقط ، فمن رماد الى نقع دخان الى ارض مدكوكة دكا فركم مما نسف الديناميت وفي جانب ذلك كله تراءت على حين فجأة بسمة فردة : ومبعثها طفلتان بهيتان تزهو في حدودهما ورود الصبى تغزلان الحرير وترمقان موكبنا الصغير ، واحداهما لعوب ما كادت ترانا حتى حجبت محياها النضير. ثم نهض ازاء ابصارنا على مقربة منهما قبر شيخ حاول الذود عن عرض حفيدته فكان جزاؤه أن اسكنه الفاسقون جوف الثرى .

وبقيت كل بلد او قرية حافظة آثاراً من ميزاتها بين معالم هذا التدمير العام . فمن حديقة الى شجرة مزهرة الى ساحة عامة فخنفية يستقى منها ابناء السبيل وماهي الا ادلة ناطقة بهول ماحدث .

وقضينا ساعات طويلة ونحن نحوس خلال هذه الانقاض ونصغى الى ما يلقى على اسماعنا .

واستمرت المركبة سائرة بنا بين عقبات وعراقيل حتى وصلت الى كوبرى ولو التي رأينا فيها مارأيناه فى بيلجيك ثم مضينا فى طريق منحدرة يكاد يكون انحدارها عموديا حتى وصلنا الى ركب حافل واذا به مؤلف من اهالى بنى شهر الذين غادروا مدينتهم طعمة للنيران وقد كانت الغرض من رحلتنا فى هذا اليوم

ومن هنا ابتدأنا ندخل فى منطقة القتال الحقيقى . وما كدت أبصر بالجثث المتناثرة واكوام الذخائر المتعاقبة حتى وضعت منديلى على انفي وما عدت الوي ببصرى على أي منظر من مناظر القتال . واجتزنا ببطاريات وبنقط استطلاع مختفية عن الانظار . وأخذت أرى الطرق المظللة بالاشجار والحقول الحافلة بالاشجار المزهرة والمثمرة وكان بعض الجنود يمرون ثم يختفون فجأة . وفى المساء اخذ سكان القرى يجتمع بعضهم ببعض ويتحادثون فى انباء الوقائع الجديدة وهم مجمعون على السخط الشديد على عدوهم الذى سبب لهم كل هذه الكوارث وهو العدو الذى ارتسم اسمه ورسمه فى سائر القلوب . فهذا ما اثمره مشروع تهدئة الاناضول الانجليزى اليوناني .

بازارجيك

كان بابولاس مستوليا على بازارجيك منذ ثمانية ايام فقط ولاتزال هذه القرية الكبيرة ترتجف رعباً من هذه الذكري . وظل تسعة ايام بلياليها منتظرا النهاية ، ومع خلو سوقها من المسلمين فان الاروام اضطروا الى الفرار قبل ان يتمكنوا من احراق القرية برمتها .

ولقد كان لابراهامي الوجيه المثري الذى اقمت في ضيافته بهذه القرية الشرف الذى كلفه غرماً عظيما بنزول القائد اليوناني واركان حربه في بيته . ولم يتعزب عن تلك الضيافة الفادحة . وقد احضر لى رزمة من الاوراق التي تركت عند الفرار ، وتصفحتها فوجدت بينها كتابا من الترجمان ساقا الملحق بالضابط الانجليزى ستوت وفيه يأمر باعداد قاعة حسنة متوفرة فيها شروط الراحة لاجل الضابط المذكور .

ومنذ يومين كان عصمت باشا ومصطفى كمال مقيمين هنا . فابراهامي رجل منظور اليه ولا يزال الطابق الاسفل من بيته غاصا بالمواد الغذائية .

وأقبل أعيان بازارجيك يقصون على مسمعي حوادثهم الجديدة

وهم يسألون بقلق واضطراب اذا كان العدو لا يزال على عزم القيام بهجوم جديد على هذه الانحاء فيتخذون العدة لاتقاء مصائبه وفظائعه .

وأقبل اركان الحرب يشاركوننا فى تناول الطعام الذى حمل الينا من مطابخهم . ولم يدر الكلام فى هذه السهرة الا على الحرب وعلى اشتراك الضباط الانجليز علنا فى سائر الاعمال العسكرية .

من ذا الذى يستطيع أن يصف بدقة الهدو الذى يسود قرية اناضولية فى أيام الحرب العسيرة أثناء ساعات الليل القصير فى هذا الفصل الربعى البديع ؟ ولكن الفجر أقبل مسرعا فسمت نقرة خفيفة على الباب ايقظتنى . وكانت المركبات قد تهيأت فارتديت ثيابى واصلحت من شأنى وحملت امتعتى ونزلت على الاثر

وسرنا فى الطريق تحيط بنا كوكبة فاخرة من الفرقة الاولى الخيالة وهي مظهرة من الجرأة مايكاد يعتبر ضربا من الجنون اذ يتساق فرسانها القمم الحادة التي تحيط بالطريق ثم ينحدرون منها بسرعة متناهية ونظام عجيب . وكانت البطريات تمر امامنا بسرعة شديدة مخترقة الحقول مارة فوق العراقيل والعوائق التى تعثر فيها غير مبالية بها وهي مع سرعتها المتناهية لا يكبو احد جيادها ولا تعثر قدم رجل من رجالها . وكانت المدافع الرشاشة تتقدم الى ساحة

القتال من كل جانب . وأخيرا اختفى الفوارس الذين يحيطون بنا فى منعرج من الطريق واقبل المشاة فطرحوا على الحشائش والاعشاب اغطيتهم وانحدرنا من مركبتنا فقدموا الينا الشاي الذى جلسنا حوله على الطريقة العثمانيـة . وقد كنا على ارتفاع الف متر وعلى قرب شديد من الخطوط اليونانيـة . ولقد تأثرت نفسى الطف تأثر من رعاية الضباط ورجالهم وما رأيت بـين الفريقـين آية سيادة ولا استعباد ولا خضوع ولا مذلة بل كان حب القيام بالواجب سائد على الجميع فالجنود يلبون النداء فى اسرع من لمح مبصر . ان الخطر الدائم جعل الصلات المستحكمة بين القلوب وثيقة الى النهاية القصوى. وما الفرقـة الاولى من الخيالة الا اسرة واحـدة يخيم على مجموعها الحب والولاء والاخلاص

وهذه الراحة الوجيزة لم تتقاض من وقتنا سوى بضع دقائق فما كدنا ننتهى من تناول الشاي حتى اختفت معالم تلك المائدة الخلوية فلم تبق اغطية فوق الخضرة المتماوجة ولا اكواب ولا نظارات . وألقينا آخر نظرة على ما يتراءى لنا عن بعد من منظر بورصة وعلى الثلوج الابدية التى تكلل هامات جبالها وعلى اينجول التى لا تزال تحترق . والتف الجنود حول مركبتى يقدمون لى واجب التحية والاحترام الاخيرين قبل ان افارق موقعهم .

الفصل الثالث

انقره

مكة الجديدة

وصلنا فجأة صباحاً ما الى محطة صغيرة هادئة مكتوب عليها تلك اللفظة التي ترددها آسيا برمتها وهي « انقره » فأحدث لنا مرآها تأثيرا شديدا . وبيت ناظر المحطة الذي هو يقيم فيه الباشا أي مصطفى كمال الحاكم الوحيد هنا . وهذا الرجل العظيم هو روح الحركة الكبرى التي لبثت شهرين اخترق بقاعها حتى وصلت الى هذه الجهة وهو يدير شئونها من الكبيرة الى الصغيرة فيها غير تارك شيئا يمر بدون ان يلم به ويكون له رأي خاص فيه .

وتظهر انقره عند اول نظرة تلقى عليها فى مظهرين : مدينة اسيوية بحتة محولة الى الطريقة الاوربية تحويلا متطرفا ومنظمة ابدع نظام ، وكعبة الوطنية التي تحج اليها قلوب المسلمين فى سائر الاقطار . وهذه المدينة التي صارت مكة الوطنية يتراءى القسم المهم منها فى طرازه الحديث القائم على شوارع واسعة محفوفة بالاشجار

المغروسة حديثا وقد اقيمت على جوانبها عمارات مشيدة بالحجارة البيضاء تشييداً تم بسرعة متناهية . والى جانب هذه المبانى تمتد الاحياء الواسعة التى تغطى بسفوح الجبال وكلها من الخيام المنصوبة

ورأيت رجال الوفود الاسيوية يسيرون فى طرق المدينة وهم يستنشقون نسيم الربيع العليل وبعضهم يلبس الثياب الشرقية الحريرية البديعة ذات الالوان الجذابة الزاهية وآخرون كالافغانيين يتزيون بأحدث الازياء الاوروبية . واغلب الوزراء والنواب يرتدون الشعار الوطني الذى نصفه مدني ونصفه عسكري ويضعون على رءوسهم الكلبك الاستراخانى . ويكاد يكون هذا هو الثوب الرسمي المختار فى انقره .

والمحلة نفسها فى مثل هذه البساطة التى لا يتململ منها الباشا ولا يمجها ذوقه . وامام المحطة طريق متسع مستقيم يمتد الى اكمة ذات سفوح صلبة مرعبة وقمة صخرية هائلة ، وما هى الا سلسلة الحصون الباقية من آثار الدولة السلجوقية . وهذه العاصمة القديمة جدا كانت واسعة النطاق الا ان ثلاثة ارباعها قد ذهب طعمة للنيران .

ومما ان هذه المدينة هى نقطة ملتقى طرق الاناضولية المتشعبة فقد كانت جميع السبل الواصلة اليها غاصة دائماً بالقوافل الواردة من سائر الانحاء بلا انقطاع وجمالها محملة بالاعباء الثقال وبالجنود

الآتية والذاهبة وبالفرسان الذين لم يقتصروا على امتطاء الجياد بل اعتلوا ظهور الابل كذلك وأخذوا يروضون الجياد الصغيرة التي لاتزال فى دور الهمجية فى المركبات والعربات العديدة . وكل فرد من رجال حكومة انقره ومن اعضاء برلمانها ومن رجال البعثات يسير فى الطرق وفق هواه أما ماشيا او راكبا والباشا هو الشخص الوحيد الذى يجوب الطرق عند الاقتضاء بأتوموبيله .

وجميع من فى هذه المدينة من ضباط الى نواب الى وزراء يتبعون مشية واحدة وهى سرعة الخطى ولهجتهم واحدة فى الخطاب وهم اذا تكلموا يصحبون خطابهم بالنظرات الاختيارية التى توافقها. ويكادون يكونون متقاربين كذلك فى السن اذ تتراوح اعمارهم فى الغالب ما بين الثلاثين والخامسة والثلاثين وهم جميعا ذوو ارادة قوية متساوية .

من المستحيل وصف الحالة الاجتماعية فى هذه العاصمة الجديدة العظيمة التى تجمع عالما لجبا حديداً مختلف الازياء والاشكال والعناصر متحد النزعة والمقصد لاهم له الا الكفاح الى النهاية حتى ينفض عنه غبار الذل والعار ويتخلص من كل شائبة تشوب حريته واستقلاله . فلا ترى ثمت الا وجوها تتدفق فيها تيارات الحماسة المكهربة وعيونا تنبعث منها شرارات كهرباء العزم . والذكرى

التي تتخلف في البال من ذلك العالم العجيب لا يمكن أن تمحوها يد الزمن . وكل معركة تحدث في أي مكان تجيء اخبارها في اليوم ساعة فساعة الى هذه العاصمة فكأنما القتال يتنقل مرحلة فأخرى هنا . ولهذا ترى المجادلات والآراء تتشعب وكلها مملوءة بالاحتمال والامل والانتصار والمستقبل العظيم . والى هذه المدينة الكبيرة تصل امواج الاماني الاسيوية المتفرقة في سائر الاصقاع فتمس أجراس القلوب وتجعلها ترن رنينا شديداً بقوة العزم وحينئذ يرتسم لغز المستقبل القريب في افقها بأحرف من النار المتوهجة

ان انقره هي المركز الذي تلتف حوله كل المطالب الاسيويه. والرجل الذي يتناول بين يديه روابط هذه الشعوب الاسيوية هو الباشا الذي يمثل قوة لم يسبق ان حصل على مثلها انسان من قبل . وقد بقي النظام الذي اتبعه حافظا الخط المبدأي الذي خرج منه أي انه بقي متشكلا بالشكل الديمقراطي الذي يطابق أتم مطابقة المبادىء الاسلاميه ويرتبط بطاعة محتمة لرأس هذا النظام وأن أشد خصومه وأعداءه ليعترفون له بالاعمال الجليلة التي قام بها والصفات العاليه التي تجملوهم يقولون : « سنظل اليوم والى الانتصار النهائي غير عاملين على مقاومته والانفصال عنه لانه مبتكر هذه الطريقة التي ينحصر فيها مجهودنا الاعظم لاجل تحرير واستقلال

وطننا المجيد وهو بلا شك روح هذا المجهود وحزازاتنا واختلافاتنا الشخصيه لايصح أن تدخل فى هذا الموضوع . »

ويكفى ذكر اسمه فى أى مكان أمام أى شخص حتى ترى أقسى الانظار تتلطف وأشدها بهمة بظلام اليأس تستنير . وكل تهكم قد تحمله رياح الاستخفاف الى انقره لايلبث أن يتلاشى أمام هذا الانسان العظيم وأمام وجهه الفاتن الابي . ولقد يغتفرون له كل بوادره حتى وثباته فى حالة غضبه وما يصدر منه أثناء انفعالات نفسه الفجائيه وذلك لانه الرئيس المكرم المهيب . فهو ذلك الذى يستطيع ويريد أن ينقذ البلاد ومن فيها برمتها .

ان حقده على الدسائس الانجليزيه ربما كان منشأه المجهود الدائم الذى تواصله لاجل الاعتداء على حياته ولكنه مجهود لم يتكلل بالنجاح على ، ان عناده أمام هذه الاعمال جعله يتجاوز حدود كل خوف ويأس ويتدرع بالصبر الذي لاحد له . ولا يوجد يوم لايكتشف فيه بعض عمال الانجليز فى نفس انقره على الرغم من نظام البوليس المحكم السائد فى سائر أطراف الاناضول . وقد رأيت ضباطا انجليز يتنزهون وقد قبض عليهم وهم تحت أثواب التخفى متجولين فى طرق المدينه وهم الآن يقضون أوقاتهم فى التنزه الى أن يجىء الوقت الذى يسافرون فيه الى الولايات الشرقيه .

حركة الجنود

ان البيت الصغير الذي أعدته لى الحكومة لاقيم فيه كائن فى أكبر أحياء المدينة الاصلية أى القسم القديم الذى لعبت به السنة النيران وبابه مشرف على الاتجاه الاسيوى اذ ينفتح على طريق عمومية كبيرة تذهب الى امتداد لاحد له وما هى الا الشريان الحى الذى يتصل بالولايات الشرقيه . فالجنود تمر بهذه الطريق ليل نهار والجنود الراكبه تطرق حوافر خيولها أرضها فى كل ساعه فينبعث صوتها الى اذنى . ونوافذ غرفى الثمانية الصغيرة تشرف على الفضاء الواسع الكبير فتجعلنى بهذه الصفة أعيش ما بين حركة الجنود والاسلحة كما كنت فى أسكى شهر .

فرأيت من الجنود مقادير هائلة جداً لم اكن أحسب انى سأرى مثلها فى الاناضول الذى توالت الاخبار عن قلة الرجال فيه ، ولهذا سالت .

« ما أكثر هذه الجنود المحتشده ! »

فأجابونى بما يلي . « نعم لقد احتشد لدينا عدد عظيم منها لان انجلترا تجهز قوى هائلة ضدنا فى الوقت الحاضر وستهاجمنا عن قريب جهرة ومن يعلم اذا كنت لاترين بعينيك الحرب المقبله .

فاستأت من هذا الظن واتهمت محاطبي بأنهم مصابون بهوس سوء الظن . فأجابونى باتمال وأرقام معينه . ومن ذلك ان كل هجوم من المهاجمات الاخيرة اليونانية كانت تؤيدها حملة سياسية من أعظم نسق فى انحاء ولاية قونيه . فى كل مرة تعزم القوى الانجليزية اليونانية على الهجوم فيها نسبق حركة الهجوم حركة اخرى يرأسها شخص مشهور بأنه من قطاع الطرق لاحرفة له سوى السلب والنهب اسمه ديلبياس بالاتفاق مع عمال الفتن والدسائس الانجليزية زين الدين شيخ قونيه وأخوه فينظمون الاضطراب مستعينين بعمال سريين آخرين وترد اليهم النفقات الخصوصية السرية على التوالى . وهذا العمل الهائل قد تكرر حدوثه فى ظروف متشابهة وبنفس الاشخاص الذين يقومون به فى كل مرة وأهم أنواع أسلحتهم الجنيهات الانجليزيه . وكذلك يعتمد المشروع السياسى الانجليزي على الرؤساء الدينيين المتولين أزمة شئون الطوائف الارثوذكسيه والارمنيه . وفى كل مرة يحدث الهجوم بشدة أعظم من المرة السابقة وبقوة اكثر منها . أما فى هذه الدفعة فأن الانجليز خسروا القناع ولم يتحملوا عناء اخفاء استعدادهم المباشر للاعتداء من الوجهتين النظامية والاغرائيه

مصطفي الصغير امام محكمة الاستقلال

أن انقرة اليوم فى هياج ومركبات الوزراء والنواب تقد من كل جانب والضباط يدخلون فى فناء البرلمان وهم ممتطون صهوات جيادهم ولا يزالون يتقدمون بها حتى يصلوا امام محكمة الاستقلال وقد احدق الشعب بمنافذ البرلمان وأخذ افرده يتزاحمون بالمناكب وهم جميعا ديمقراطيون ما بين صحفيين وضباط ووزراء ونواب فيتسابقون الى تسلق النوافذ

وفى الداخل على الرغم من الدوائر الكبيرة المتروكة خالية لاجتذاب الهواء فان الجو صار غير صالح للتنفس وقد نصبت سلالم فى كل مكان وامتلات الى درجة جعلتها قابلة للسقوط ولم يخل الامر من سقوط بعضها بالفعل . ومن وقت الى آخر يحدث تماوج ما بين هـذا الجمهور العظيم وذلك ان الاشاعات تتداول على الالسن بأن المجرم قد جاء محفوفا برجال الجندرمة غير أن روح الطاعة والنظام المنبث بين اهالى انقره يتغلب على اشد حركات الاندفاع بعامل التشوف الى الازدحام الذى يعقب عادة الاخلال بالنظام فلا يلبثون على اثر تدافعهم الى الامام ان يعودوا ثانيـة الى أماكنهم ويبطل التماوج الذى كان قد حدث بينهم .

بقي مصطفى الصغير الهندي المسلم بمفرده امام قصاته بعدان احضره الحرس واخذ الجمهور المحتشد الذى تتابع انفاسه ويشتد خفقان قلوبه يتلقف حوادثه بآذان صاغية ليستخلص منها الاسماء والارقام التى تدل على مقدار هول الدسائس الانجليزية فى سائر الاقطار الاسلامية ، ومنها ادرك الجمهور الطرق والحيل والافساد التى تستعملها انجلترا .

ما كان أعظم هذه الدروس العلمية السياسية وابلغها وقعاً فى نفوس الحضور المشغوفين بسماعها ووعيها ! لقد اخذوا يسمعون اعظم قضية استعمارية بريطانية لم يسمع ولم ير مثلها من قبل وهم يتلقون كل كلمة من كلماتها باهتمام عظيم . فالخطه التي كانت تدبرها وتريد تنفيذها الادارة السياسية المدنية شرحت امام الجمهور العثماني بوضوح تام فاصابته نوبات عصبية هزته هزات متوالية بسرعة ولكنه التزم الصمت والنظام .

وقد أخذ مصطفى الصغير يدافع عن حياته بذكاء ومهارة عجيبتين . وكان يجيب باللغة التركية على الاسئلة التي تلقى عليه وكان يعترف فى كل كلمة بامور كثيرة . ومن المستحيل فى مكان آخر ان يسود مثل هذا السكون العظيم علي جمع هائل جدا كالجمع المحتشد الآن مع انه كان فى منتهى القلق والاضطراب وكان

الكلبك الى جانب العمامة والثياب الاسيوية الى جانب الملابس الاوروبيـة وأصحابها جميعا وجوم والعرق يتصبب من جباههم على اصداغهم وهم ملتفتون لما يقال أشد الالتفات .

وكان القاضي الذي يتولى السؤال اليوم يباشر تحقيقه بمنتهى المجاملة والملاطفة فأخـذ يضيق الخناق شيئا فشيئا على المتهم وهو يبتسم له ويسرع في الكلام ويختصر في السؤال ويتمالك نفسه فلا يدع للتأثر وانفعال النفس سلطانا عليه ومع ترقيق صوته فقد كان يحسن الاشارة بيديه ، اما المتهم فقد كان يجيب بالمثل بصوت رقيق مقرون بالادب وعلى ثغره ابتسامة كذلك ، وعلى ذلك فلم تكن المصارعة ما بين القضاء والاتهام ذات تأثير مذكور .

ان مصطفى الصغير لا يزال في عنفوان الصبا وهو يتكلم كرجل متخرج من اكسفورد وكذلك كان يكتب بابداع كابداعه في حديثه والايضاح الذي كسا به اقواله يشرف قدر اساتذته . وقد تلوت اقواله فاذا بها مستندات هائلة مكتوبة اجمعها بخط يده ومصوغة في قالب انجليزي جدير بان ينسب الى كيبلنج وهذه بعض نقط النقدتها في يوم ٦ مايو سنة ١٩٢١ :

أن مصطفى الصغير هو اسم وضع في الحرب أراد المتهم المتسمى به ان يخفي حقيقته تحت صاحب هذا الاسم الذي هو في الحقيقة

فرد من اسرة عظيمة مسلمة في بيناريس . وفى العاشرة من عمره احدث تأثيرا فى نفوس كبار الموظفين الانجليز الموجودين فى جهته بما كان يظهر عليه من مخائل النجابة والذكاء المدهشة . وعلى ذلك فقد أخـذ الى انجلترا كما يحدث عادة مع امثاله الاذكياء ليتلقى التعليمات اللازمة لتكوينه تكوينـا خاصا بالاشخاص الذين يقع عليهم الاختيار .

وهـذا التكوين الخاص قائم على الدراسة اربع سنوات فى مدرسة مخصوصة بجهة بريتن المشهورة بمـا فيها من مظاهر الابهة والفخفة وحسن الرواء . ثم يؤخذ الى مدرسة اخرى فى ادنبورج وعلى أثر ذلك ينقل الى اكسفورد حيث يندمج فى كلية لنكولن حيث يعامل فيها معاملة أمير صغير ويحصل على شهادة درجة ب . ا أو شهادة الفرقة الثانية الشرفية فى التاريخ .

وقبل أن ينتهى من الدراسة فى اكسفورد أي قبل تخرجه بقليل يدعى الى لندره من قبل رئيس السكرتارية ويستحلف على القرآن امام اثنين من كبار الموظفين البريطانيين وأمام اثنين آخرين من رجال الشريعة الاسلامية « بالولاء التام المطلق لعرش انجلترا ولنائب الملك فى الهند وبتنفيذ كل ما يؤمر به بدون أي بحث أو مجادلة »

ثم يعود الى اكسفورد ويتمم دراسته وبعد ذلك يرسل الى القاهرة بمعرفة الحكومة البريطانية بحجة تعلم اللغة العربية فيها ولكنه فى الحقيقة يجىء اليها ليتتبع الحركة الوطنية المصرية .

ثم يذهب الى فارس ودائما لاغراض سياسية . واخيرا يعود الى لندره ليصير فيها ملحقا بالشعبة السياسية ويكون اختصاصه من هذا الوقت بالسياسة الخارجية العثمانية والفارسية والافغانية والهندية . ثم يذهب الى سويسرا .

كل هذا حدث لمصطفى الصغير فى نشأته الاولى وفى اغسطس عام ١٩١٤ ارسل الى الهند .

وقد وصف بوضوح تام حالة انجلترا عند امضاء اتفاق الهدنة والمشاكل التى كانت تحف بها من كل جانب وكيف اصبحت حالتها المهددة بالخطر وكيف وضع الحزب العسكري فيها على أثر انتهاء الحرب يده على كل شيء وقاد الامبراطورية الى تلك المشروعات الهائلة ذات المخاطرات الجسيمه

وسرد مصطفى هذا الجواب الآتى الذى رد به القوميسير البريطاني العالى فى الاستانه على وزارة الخارجية التى سألته أن يرفع اليها تقريرا عن حالة الاناضول السياسيه وهو : « بما ان الحياة والملكية لا امان عليهما فى الاناضول فانه مما يعتبر اكثر من مضر

بشرف انجلترا ان تبرم اتحاداً مع أولئك القتله . »

وهذه هى خطة وزارة الحربيه الانجليزية بعينها ولم تفلح صروف الزمان فى تحويلها عنها .

وقد أوضح مصطفى الصغير الاسباب التى دعت انجلترا الى أن تمثل فى بادىء الامر دور الانتظار التى كانت فى أثنائه تنكر الى آخر لحظة وجود الوطنية العثمانيه ثم انتقالها الى تمثيل دور الحرب اليونانية التى يديرها الضباط اليونانيون

وكذلك بسط خطة الدعوة لموالاة انجلترا التى قام بها السلطان ورجال حكومة الاستانه والحزب العسكري الانجليزي فيها المؤلف من الكولونيل نلس والماجور د. مونفورد واستون من الادارة المدنية السياسية والكبتين بينيت

وهذه الدعوة ترمى الى استئصال شأفة الحركة الوطنية ورئيسها وقد سرد مصطفى الصغير أسماء الجمعيه المكونه لاتمام خطة قتل مصطفى كمال وهم أولئك الرجال الذين تقدم ذكر اسمائهم مضاف اليهم الواعظ فرو .

وقد ردد المتهم كل هذه الاقوال بصوت عال مفهوم وكان القاضى الذى يتولى مناقشته يدقق معه فى كل نقطة ليستجره الى تعيين الاجوبة بالتدقيق .

واضطر على اثر ذلك الى أيضاح الاسباب التى اختير لاجلها منفذا للاعتداء عدة مرات فى جهات اخرى فقال :

« ذلك لانى منذ بضـعة اشهر مضت نفذت بنجاح فى بلاد الافغان بنفسى مهمة كانت فى منتهى الخطر وهي قتـل الامير . »

وفى هـذه المرة لم يطق الحاضرون السكوت فملت زمجرتهم بحالة تصم الآذان غير ان المحكمة اعادت النظام والسكينة بأشارة غير ظاهرة منها . وقد سمى مصطفى الصغير أولئك الاشخاص المشتركين فى هذه المؤامرة الاخـيرة باعتبارهم ساعـين لتسليم سائر المسلمين الى الاسـتعمار الانجليزي ، وبـين مقادير الاجور التى يتقاضونها وهنا اشـتد اضطراب السامعين فأن عـدد هؤلاء المماثلين اخـذ يتزايد وصارت الاسماء والارقام تردتباعاًبعضها أثر بعض فالسلطان فى مقدمتهم ثم الاسرة السلطانية فرجال القصر ويجئ بعدهم رجال آخرون . ولم يدع شيئا مماهو مدبر فى الاستانة بدون اذيكشف عنه الغطاء امام كل ممثلى الشعوب الاسلامية الحاضرين فى هذا المقام .

وتدرج مصطفى الصغير الى المقال الآتى :

« لو كانت انجلـترا واثقة من ان العثمانيـين وعلى الاخص الوطنيين منهم يعدلون عن مقاومتها فى الهند وفى الافغانستان وفى العراق وفى مصر لاتفقت معهم فى الحال ، ولـكـنها مادامت

لاتقتنع بعد ولهم عن هذه الخطة فأن الصراع بينها وبينهم سيدوم الى ابد طويل

« ان انجلترا تريد أن تضع الاناضول تحت الوصاية الانجليزيه وبهذه الطريقة تستطيع فقط أن تثق بمراقبتها الفعالة على السياسة العثمانية الاسلاميه . »

وخرج القضاة من مكان الجلسة ليتداولوا . وفى أثناء رفع الجلسة ظل الجمهور محتفظا بامكنته ، أما المتهم فقد خبت من وجهه تلك البسمة التى كانت مرتسمه على ثغره فى كل وقت .

وقد قال لى الباشا فيما بعد وهو يسألنى عن التأثيرات التى أحدثتها هذه المحاكمة فى نفسى : « انى أعلم حق العلم مايوجد من الفرق العظيم مابين انجلترا الحقيقية والحزب الاستماري الانجليزي الذى ينطوى على مثل هذه البغضاء الفظيعه لى . بل انى لاعلم ان قسما من الرأى العام الانجليزي ميال الينا ، وسوف يحدث تغير تام فى ذلك الرأى العام فى الوقت المناسب عندما نكافح بلاخوف ولا خطر الرجال القلائل الذين يسعون بكل ما فى وسعهم منذ عامين لاهلاكنا وتدمير بلادنا . وهذه هي النقطة التى تحل بموجبها المسألة . »

العمل الاداري الحربي

جمعية أنقره الوطنيه

ان الباشا يرى كأنه حاضر فى كل مكان من انقره . فالتلغراف ينقل اليه فى كل لحظه كل خطرة من النسيم وكل فكرة تعرض لاي انسان فى دائرة نظامه كما كان العهد كذلك منذ ثمانية عشر شهرا . فهو وانقره ليسا سوى شىء واحد .

وفى أثناء محادثاتى معه تولانى الدهش من تشبعه بالروح الاوربي واطلاعه الواسع ووقوفه على كل شىء يقال ويسمع فى لندره وباريس وروما وبرلين فما أعظم ما فى نظره من قوة العزم ومن البريق المنبعث منه وأية دقة ومهارة يتجمل بها هذا المتناهى فى التأدب والتمدين وأي تلطف يرضى به محادثه بتركه يكمل له مايجول فى ذهنه من الفكر ، وان قامته الناهضة الهيفاء ومشيته البديعة لتكادان تخونان الناظر اليه فى الاعتقاد بانه الزعيم المعتاد على الرئاسة العليا غير انه مع ملاحة اوصافه يعرف كيف يرضى ويحب ان يكون مرضيا عنه . وبالجملة فقد كانت كل سجاياه واعماله محمودة . والمجهود العظيم الذى يقوم به كل دقيقة هذا الرجل أسير

عمله لايمكن ان يبرح عن البال لحظة واحدة وهو يرى من هنا اعظم مما يرى فى أي مكان آخر . وكان يواصل على الدوام الاشراف علي عمله الادارى العسكري بدون ان يغفل عنه ساعة واحده

وبعد الاضطهاد الذى حاولت انجلترا ان تحدثه فى ١٦ مارس سنة ١٩٢٠ اجتمع النواب الذين فروا من الاستانة مع النواب الجدد الذين انتخبوا من مقاطعات الاناضول فى انقره يوم ٢٣ ابريل سنة ١٩٢٠

وكان مصطفى كمال بصفته رئيس الدفاع عن حقوق الاناضول والروملى قد اقنع الشعب العثماني بصواب فكرة الانتخابه الجديد الذى يجب ان يكون قائما على قواعد امتن وافسح من القواعد المتقدمة . فتم له مااراد واجتمع المجلس الوطني فى انقره معتبراً ان الخليفة فى أسر الانجليز ولهذا فهو يجيز لنفسه ان يحتفظ مؤقتا بكل حقوق السيادة على البلاد . وعلى ذلك أخذ يباشر مسألة تعيين الموظفين وتثبيت الباقين منهم سواء أفى الاعمال التنفيذية ام القضائية ام الادارية وتحويل جانب من سلطات هؤلاء الموظفين الى الادارات التى انشأها جديدا . واصبح لكل نائب مندوب او وكيل مكلف بتحقيق القيام بالاعمال التنفيذية والتشريعية . وفى

غياب أي فرد من هؤلاء المندوبين يتلافى المجلس الامر بانتداب احد اعضائه للحلول محل ذلك الغائب

وفى شهر يناير سنة ١٩٢١ صدر قانون باعتبار الشعب الممثل بنوابه المؤلفين دار ندوة انقره وعددهم ٣٥٠ نائبا صاحب السيادة المتناهية على البلاد

وسيظل المجلس الوطني منعقداً بالحالة التى هو عليها اليوم الى ان يكمل المهمة التى تعهد بها وهي استقلال الخليفة السلطان استقلالا تاما كاملا وسلامة الوطن العثماني من كل شائبة .

وعندما يتم هذا الغرض يتحتم انحلال المجالس وتحدث انتخابات جديدة لمدة سنتين بواسطة اعطاء الصوت العام . ويظل الرئيس الحالي مصطفى كمال باشا محتفظا بالسلطة الى ان يتاح النصر النهائى التام . وتشبه دار ندوة انقره البرلمان الانجليزي فى كثير من اوجه الشبه .

وتتألف المجالس المحلية على نسق امثالها فى فرنسا وتنتخب لها عمدة بمعرفتها . والمجالس المحلية فى كل مقاطعة تنتخب لها مجلس مقاطعة (شورى) يدير شئون املاك المقاطعة بواسطة خمسة من الاعيان . والمتصرف وهو حاكم المقاطعة يراقب تنفيذ القرارات الصادرة . ومديرو الاعمال الاخرى كالمعارف العمومية والاشغال

العمومية والصحة وسواها يعتبرون بمثابة اعضاء فنيين من مجلس المقاطعة . وبالجملة فأن هـذا العمل يعتبر عدم مركزية ادارية تامة تصير بموجبه كل مقاطعة حكومة وبهـذه الطريقة تصير البـلاد الاناضولية ولايات متحدة متمازجة .

والقوانين التى تحدد سلطات المندوبين ومسؤلياتهم وسلطات المجالس المحلية ومجالس الشورى لاتزال تحت المناقشة والبحث فى مجلس انقره الوطني . وتشتغل به لجان خاصة .

وتوجد فى الاقضية (تقابل المراكز فى القطر المصرى) نظامات ادارية وبوليسية ولـكن لاتوجد انظمة قضائية .

هـذا هو الغرض الذى اوجده ويسعي الى اكماله مصطفى كمال سياسيا واداريا : جعل البلاد الاناضولية منظمة ومستقلة وقوية وليس النظام العسكري الا آلة يريد التوصل بها الى هذا الغرض . وكان غرض مصطفى كمال منذ الايام الاولى التى شرع فيها فى القيام بأعماله أن يجعل نتائج هـذه الاعمال قائمة على امتن أساس ولهـذا اشرك الشعب معه فى ادارة شئون البلاد . وخطا به خطوات واسعة فأوجد له انظمة ديمقراطية واشركه اشراكا واسعا مع الحكومة فى سائر الاعمال المختلفة وأوجد صلة امتزاجية بين بعض المقاطعات وبعضها تحتفظ كل واحدة منها بموجبها بعوائدها ومألوفاتها الخاصة

كما انه منح هذا الشعب ماتتطلبه سائر الشعوب الشرقية أي ان يكون له رئيس حقيقي حازم غير مستبد يضحي نفسه تضحية كاملة لاجل رعيته ولا يسترسل وراء اهوائه الشخصية ولا يشرف الا على الشئون العامة المهمه ويكون حاصلا على الميزة اللازمة له والابهة اللائقة به

أن هـذه الاعمال الجليلة المفيدة قد قربت الى مصطفى كمال قلوب سائر العثمانيين الاذكياء وجعلت مكانته مكينة ازاء دسائس الاستعمار الانجليزي

وفى الحقيقة ان حركته ليست سهلة ولـكنه على كل حال يعمل كل ما فى وسعه وهو عارف بما امامه من الصعاب ولا ينتظر الحكم له أو عليه فى الوقت الحاضر بل يترك ذلك الى المستقبـل ويجتهد الآن فى أن يجتذب اليه قلوب مواطنيه ليجمع كلمتهم حوله ويتمكن بواسطتهم من القيام بمـا يتمناه ويبذل جهده فى تحقيقه

نظام قائم على العادة .

النصر محقق .

ماذا أرى حولى ؟ أرى مناظرة للنظام البولشفي ، نظاما قائما على العادة مستفيدا من كل القوى الموجودة فى البـلاد مستنداً على

الملكية وعلى رابطة الاسرة وعلى الوطنيه . فالنظام سائد فى كل مكان والاموال الرسمية مدفوعة والموظفون والجنود مدفوعة لهم مرتباتهم . وفى كل مكان تنتشر المواد الغذائية وتزرع الحقول ويبذل مجهود عظيم لاجل المحافظة على الحياة الاعتيادية . وكذلك لايرى فى كل مكان سوى عمل واحد وغاية واحده .

ورأيت على بضعة كيلومترات من الطلائع قرويين يزيلون الرماد المتخلف من أثر الحريق ويجمعون حجارة ما ويهم ليعيدوا تشييدها. فالهمة سائدة على سائر البقاع الاناضولية حتى القريبة من قصف المدافع ، وكانما عزيمة الزعيم العظيم فائضة على كل مكان؛ وفى الواقع ان هذا الرئيس الذكي يدرك بمنتهى السرعة مواطن الخطر ودلائل الفوز والنجاح فيتلافى الاولى وينتهز الاخيرة ، غير ان الذى يريد أن يتحقق من مقدار كفاءته يجب عليه أن يراه فى مكان عمله فيتاكد من مهارته التامة فى اصدار قراراته وعزيمته الماضية التى لاتتأثر من كثرة الاعمال وصعوبتها الهائلة واذ ذاك يعلم مقدار تبصر هذا الرئيس وعدم اهتمامه الا بالحقائق القابلة للتنفيذ .

وقاعدة أعماله الاساسية هى ان ايجاد التوازن بين القوى المتعارضة وعدم ترك احداها تتغلب على ماسواها الى الدرجة التى

تقضي فيها على بقيه القوى لا يمكن تنفيذه في كل وقت . ففي بعض الاوقات تهب العاصفة على انقره فتتهيج النفوس وتنبعث نفحة ماتهبة من الشر تمس الجميع فتبتدئ الوشايات والسمايات . وحينئذ يجتمع المجلس الوطني وتشتد شوكة المعارضة ويقال : « اين هو الباشا ؟ انه لم يتنازل للحضور . فهو يهزأ بنا ولا يحاول ان يخفي هذا الاستهزاء وتتتابع الخطب ويبلغ غليان النفوس منتهى شدته حتى ليقال ان هذا المجلس في الحقيقة برلمان أوربي . اذ ذاك يدخل الباشا وهو شاب مستخف بكل شيء مرتفع نوعا مايرتدي بالمعطف العسكري ارتداء محكما فيجلس في مكانه المعتاد ويرمق المجلس بنظراته الحادة الغريبة التي تترجم بصراحة لا مثيل لها عما في ضميره ، الا ان الجمهور يلبث قوي الارادة ويوجه اليه الاسئلة غير هياب مستمدا جرأته من التقاليد الاسلامية القديمة فيتمكن من التمادي في خطابته . وبصوته الهادئ المطبوع بطابعه الشخصي يعرض مايريد ان يعلم به المجلس وهو مستول على حواسه غير مستلم الى أية عاطفة تؤثر في نفسه فيستولى الحبور على الجمهور ويعظم الهتاف و تصفيق له بدرجة لا مثيل لها وترتفع الايدي علامة على التصديق على مايريده وحينئذ يكون قد فاز بالظفر في المعركة .

ثم يختفي من المجلس فتستمر الجلسة ويظل النظر في بقية

الاعمال المعروضة ولكن النواب لايصغون الى ما يقال الا بعض الاصغاء فيتولى عدنان بك نائب الرئيس سلطة الرياسة ويدير المناقشات فى دائرة النظام والسكينة ويرى جلال الدين عارف متحدثا فى جانب مع فريق من زملائه ويتداخل المشايخ فى المباحثات ويبدى ممثلو الجهات آراءهم ويتتبع رجال وزارة الخارجية باهتمام المناقشة الحادة فى السياسة الخارجية .

كل هذا يحدث فى داخل الاناضول والحملة الصليبية الانجليزية السكسونية جارية فى مجراها دائبة بغير انقطاع على دفع اليونانيين الى موالاة الهجوم . وقد غادرت انقره والحرب بالغة منتهى شدتها بدون ان اتمكن من استتباع الصحيفة التى رأيت مستهلها ولكنى عرفت مافيه الكفاية بالتيقن من ان مثل هذا النظام المحكم التام الذى اختارته البلاد الاناضولية وفاقا لمطالبها واحتياجاتها لايمكن ان يزول بسهولة . بل يمكن القول بأن من المستحيل الشك فى فوزه النهائي .

الخاتمة

غادرت انقره في يوم ١٠ مايو سنة ١٩٢١ ، وفي الآونة التي تتقدم فيها هذه المباحث الوجيزة عن الوطنية العثمانية الى الطباعة أي في أواخر اغسطس سنة ١٩٢١ كانت البلاد الاناضولية برمتها تجود بالنفس والنفيس في سبيل الدفاع عن كيانها وهي تبدي من العزم والقوة مالم يسمع بمثله من قبل .

وفي هذه المرة القى الاستعمار الانجليزي قناعه عن وجهه واخذ المستر لويد جورج واللورد كرزن وزعماء وزارة الحربية — وهم سادة انجلترا اليوم — يسنون الغارة الشعواء جهاراً ويجودون بهبة ليست فيها ادنى مواربه . فالجنود الانجليزية واركان الحرب الانجليز وفصائل البحارة الانكليزية يندمجون بين يونانيين فهل هذا ما كان قد جرى الوعد به ؟ فالاستانة وزميت وازمير وايدين وجهات قونيه وقونيه نفسها هي المكافأة العظيمة التي يجود بها الانجليز لليونانيون سادة البلاد العثمانية وانجلترا صاحبة السيادة على اليونان الجديدة وقسطنطين هو نائب الملك في هذه الامبراطوية الحديثة . هذ هو مايرمى اليه المجهود الاخير .

وقد صحبت هذه الحملة الهائلة بمقادير جسيمة من الادوات

الحربية وفى الحقيقة أن الانجليز لم يدخروا جهدا فى هذا السبيل ولم يبخلوا بأية مساعدة وقد حاولوا بهذه الطريقة أن ينقصوا من خسائرهم البشرية . فالهجوم واقع على التوالى من سائر الجهات وهو مدار من البقاع المشرفة على بحر مرمره ومن شواطىء البحر الاسود بقصد تطويق القوى العثمانية المحاربة ودفعها الى الخلف حتى يتم الاستيلاء على انقره وقد تم اكتساح اجمل واغنى منطقة فى الاناضول وأخذ سكانها المطرودون المسلوبة املاكهم يفرون شاردين فى الآفاق قاطعين المسافات الطويلة الى بلاد بعيدة ، واصبحت انقره مهددة فهل تقف الامواج المتلاطمة عند ابوابها ؟ من المستحيل ابداء رأي قاطع فى هذا الصدد أفيكون اذن كل شيء قد انتهى ؟

كلا . أن حكومة انقره لم تفقد صوابها ازاء هـذا الهجوم الهائل . ولم ترتكب خطأ لايمكن تلافيه بتكليفها زعماء الحركة الوطنية العثمانية الحربيين دفع مالا طاقة لهم على دفعه . فبقي كبار القواد مصطفى كمال باشا وعصمت باشا وفيضى باشا ورأفت باشا فى مراكزهم وظل ذو السلطة المطلقة الرئيس الاكبر مصطفى كمال محبوبا مبجلا كما كان من قبل يطيعه الجميع بغير استثناء وما دام الاناضول على مثل هذا الاتفاق وهذه المتانة فى مقاومة المجهودات المبذولة لاجل تجزئته وحل عرى وحدته فالامل لا يزال وطيدا فى

فوزه النهائي وما هذا الهجوم العظيم الذى رزيء به الاحالة عرضية والحرب سجال . أن الاناضول يستمد روح قوته من سائر الامة العثمانية ومن كافة الشعوب الاسلامية .

وعلى الرغم من كل هذه المجهودات ومن سوق التانكس والاتوموبيلات المصفحة والمدافع الغليظة الى ميادين القتال فان اعتداء المستعمرين الانجليز شيء لن يتعدى حد الضعف واذا ما سقطت عليه ثلوج اكتوبر قضت عليه القضاء الاخير .

حقيقة ان الخسائر الناجمة عن هـذا الهجوم فادحة والمصاب جلل الا ان الاسلام يجب ان لايبرح عن باله انه واجد حتما خيرة المدافعين عنه أمام هذا الظلم العظيم فى صف الحلفاء انفسهم . فاصوات الفرنسويين ـــ بل واصوات الانجليز انفسهم ـــ سترتفع ضد هذه الاعمال التى لايمكن نعتها . وقد تأثر الرأي العام فى لندره من هذه الحوادث وتعالت فى باريس وفى روما اصوات الاحتجاج .

وقد امتاز الرأي العام الاكبر لخيرة المفكرين الفرنسويين بشدة متناهية ضد الهجمات الفجائية على الاناضول ، وعند عودتى من انقره لم أجد هنا سوى عطف على المسألة العثمانيه وسخط على أعدائها . ولا يوجد فرنسوي لايريد أن يتذكر عوامل الشقاق التى أوجدها خصومنا ومزاحمونا بيننا وبين الامة العثمانية بمهارة

فائقة . ولقد اهتم الجميع هنا بشأن هذه الدولةعلى الرغم من المشاكل الضئيلة القائمة بينها وبيننا . وفى كل مؤتمر يعقد ترتفع اصوات فرنسوية للاحتجاج بشدة على اضعاف الدولة العثمانيه والحط من كرامتها وهذا مايجب ان لايتناساه أصدقاؤنا هنالك . هذا ماقلته وما انا مستعدة لان اعيد قوله فى انقره اثناء المناقشات الحادة جدا التى تحدث بينى وأولئك الوطنيين . وهى مناقشات دائما متشبعة بروح الود كنت اثبت فيها على الدوام وجهة نظرى بدون أن أعدل عن شىء منها

وبعد ان أوضحت ماتقدم يمكننى أن أزيد عليه الآن انى عدت من تلك البقاع مزودة بتأثر عظيم من كل مارأيته أثناء سياحتى الهائله . فقد أثر فى نفسى الاخلاص المتصف به كل فرد هنالك والطريقة البديعة المصحوبة بعزة النفس التى يقوم بموجبها أولئك القوم باعظم تضحية لاجل سلامة وطنهم وعدم التعرض للاقوال التى لافائدة فيها كما أثر فى نفسى بالمثل أشد التأثير ذلك الظلم الهائل الذى لايمكن تصوره الموجه من عدو لايعرف الرحمة والعدل .

انى لاأدافع عن هذه المسألة فان السلام لن يسود بين انجلترا ولاسلام الا فى اليوم الذى يتخلى فيه الرجال الذين يديرون شئون

انجلترا فى الوقت الحاضر عن مراكزهم الى رجال آخرين مزودين بشعور اخر وآراء اخرى .

أما نحن الفرنسويين فان أفكارنا لن تتغير . فاننا باتحادنا مع الاسلام نريد ايجاد دولة عثمانية قوية ومستقلة وناشئة على الطراز الحديث مع بقائها محافظة على عاداتها ومألوفاتها واننا نشعر بعطف على رؤسائها الذين نجد بين أفكارهم مقدارا عظيما من الافكار الفرنسوية . ان نظريات الشبان الوطنيين لاتدهشنا ورأي جلال الدين عارف القائل « ان كل انسان سيد فى بيته » لاتثير غضبنا ولا تجعلنا اعداء أولئك القوم .

ألسنا نعرف ان أصدقاءنا الشرقيين اقبلوا الينا بعد انتهاء الحروب الكبرى التى لن تؤدى الى أي حل مايسألونا رأينا فيجدون لدينا أعظم مما يجدون فى أي مكان آخر من الآراء السديدة التي ينشدونها برغبة شديدة اذ يرون نتائجها الايجابية سريعة التحقق ؟

ان الوطنية العثمانية لابد أن تتغلب على كل الصعاب وتنتصر على خصومها لانها تعتمد على امنية شريفة ساميه ولان الذين يديرون حركتها يتجردون عن كل مصالحهم الشخصية وينسون انفسهم ولان نفوسهم فى منتهى العظمة والاباء

هذا مارأيته فى اسكى شهر وفى انقره اذ عشت بين اولئك

القوم وعرفت كنه حياتهم وافكارهم وتتبعت الاعمال التي يقومون بها لصد تلك القوى الهائلة المندفعة عليهم ولا ازال حافظة اجمل الذكرى للقاء الحبي الجليل الممزوج بالثقة الذى لوقيت به هنالك وعلى الرغم من كثرة الشئون الهامة التي تشغل كل انسان فى الاناضول وتستغرق اوقاته وافكاره فان اصدقائي الاناضوليين لم يدخروا وسعاً فى ان يوجدوا الوسائل الكافية للسهر على راحتى وعلى العناية بى . وطالما خاطبتهم هذه السائحة بلهجة حادة الا انها مشوبة بالود وهى تعترف لهم بالجميل لعدم تحمل نفوسهم من حدة الخطاب ولا صغائهم الى اقوالها بدون ان يداخلهم ادنى شك فى اخلاصها المتناهي . ٥

تم



ايضاح

أن كثيرين من قراء هذا الكتاب سيجدون فى ثناياه مالا يتفق مع اعتقادهم فى ابطال الوطنية العثمانية ، ومن قبيل ذلك ماتوهمه مؤلفته من أن العثمانيين يقبلون الاستشارة الفرنسوية أو بالاحرى الاشراف الفرنسوى. وهذا أمر يناقضه على خط مستقيم القتال الحار الذى نشب بين العثمانيين والفرنسويين فى ولاية اطنه التى يطلق عليها الفرنسويون اسم قليقية وفى ولاية حلب فقد أظهر الوطنيون العثمانيون به تفضيلهم الموت على التفريط فى جزء من الوطن المقدس . فلا يعقل أن من هذا شانهم يقبلون الاشراف الاجنبي عليهم . غير أن الكاتبة الفاضلة فيما روته عن الوطنيين العثمانيين كانت فرنسوية النزعة . ولا يبعد أن يكون الذين خاطبوها فى هذا الصدد افهموها انهم لايقبلون أية وصاية ولا رقابة دولية ولكن اذا حكم عليهم قسراً وكان لامفر لهم بعد المقاومة القصوى من اختيار دوله يستشيرونها فى الاعمال الفنية كانشاء الميناآت ومد السكك الحديدية واستغلال الغابات والمناجم الى غير ذلك فهم يؤثرون فرنسا على غيرها ففهمت هي هذا التعبير فهماً فرنسويا وهي معذورة لانها فرنسوية قبل كل شيء ولا تسعى الا لمصلحة فرنسا وتريد ان

تبسط نفوذ فرنسا واللغة الفرنسوية والعلم الفرنسوي والصناعة الفرنسوية فى أرض الشرق برمتها والبلاد العثمانية خاصة . وليس هذا بالشيء الوحيد الذى قد يستغربه القارىء فى آرائها عن الوطنيين العثمانيين بل لقد جسمت الخلاف القائم بين مصطفي كمال وانور الى حد ان اعتبرته عداء قاتلا . ونحن لا يداخلنا شك فى انه يوجد شيء من التنافس بين هذين البطلين ولكنه لخير الوطن لا يذهب الى ابعد من حد التبارى فى جلب الفائدة والى اعتقاد كلاهما انه اقدر على انقاذ الوطن من الآخر . غير أن الكاتبة باعتبارها فرنسوية أي من احدى دول الاتفاق التي شهر انور باشا عليهن الحرب وظاهر المانيا ضدهن تشعر فى نفسها بعاطفة حقد شديد عليه فتحاول أن تجمل شعورها الخاص شعور مصطفى كمال بالمثل فلا لوم عليها ولا عتاب فى ذلك . ويبلغ من سخطها على انور أن جردته من فخر استرداد ادرنه ونسبت هذا الاسترداد الى مصطفى كمال . ومسألة ادرنه أشهر من أن تغيب عن الاذهان الى حد تناسى بطلها العظيم الذى عند ما برز عزيمته التى لا تغالب وصمم على استعادة ادرنه اضطربت الحكومة العثمانية وخشيت تداخل اوربا وتفاقم الاخطار واخذ زميله ومناظره فتحى بك بطل طرابلس يحذر الحكومة من عواقب تهور انور ويغريها على استدعائه من جبهة القتال واسناد

مركز آخر اليه فى جهة بعيدة . فلما خابر سعيد حليم باشا الذى كان وزير الخارجية إذ ذاك أنور باشا بالتليفون وابلغه أن الحكومة مصممة على عدم التعرض لادرنة تفاديا من استجاشة غضب الدول الكبرى كان جواب انور باشا المشهور مايلى :

« الجيش فى يدى فاما أن افتتح ادرنه وأما أن افتتح الاستانة »

ثم سار بمائة وثمانين الف عسكرى يطرد البلغاريين امامه كأنهم حمر مستنفرة قاطعا فى كل اربعة وعشرين ساعة ثمانين كيلو متراً وهذا مجهود لم يسبقه اليه أحد فى العالم اذ قال الناقدون الحربيون اذ ذاك ان اقصى ماعرف من سرعة زحف الجيش اربعون كيلو متراً فى كل اربعة وعشرين ساعة فيكون انور قدأتى بعمله هذا مايكاديدخل فى دائرة المستحيل . وعندما دخل انور مدينة ادرنه قال كلمته المشهورة التي دوت فى جوانب أوروبا وفهمت الدول الكبرى ان لاسبيل الى اخراجه منها وهى :

« انى دخلت هنا بالسيف ولا اخرج من هنا الا بالسيف » .

ذكرنا هذه التفاصيل لشباننا الاذكياء الذين كانوا فى عام ١٩١٣ لايدركون من السياسة شيئا مذكورا ليقفوا على الحقائق

وقد ارادت ان تفهم الانجليز حقيقة مصطفى كمال ليتفاهموا معه وينكفوا عن مقاتلته بالطرق المباشرة وغير المباشرة فذكرت

ان مصطفى كمال لا يوافق انور على عمله الجنوني الذى اراد به ان يفتح الهند ووقف فى طريق مشروعه هذا كعقبة كأداء فخدمت انور بهذه الوشاية خدمة عظيمة جدا اذ جعلت له مكانة فى العالم الاسلامي غير مكانته الاولى .

وبما ان مقتضيات الاحوال لا تسمح لنا بالافاضة فى هذه التفاصيل والاستدراكات فالاوفق ان نذكر كلمة موجزة عن الفرق بين انور ومصطفى كمال : الاول وهو انور يعمل للعالم الاسلامي خاصة وللشرق عامة وقد وعد شعوبا شرقية كثيرة ان يحررها من نير الاستعباد متى تم اصلاح الدولة العثمانية وتقويتها وعندما نشبت الحرب الكبرى كان انور فى منتهى الجزع والتحسر وقال :

« ان ازهار اصلاحاتي ستتلاشى قبل ان تتحول الى اثمار ناضجة »

ولما سئل عن الحرب هل هى فى مصلحة الدولة العثمانية ؟ قال :

« كلا لانني لم اتمكن فى بحر السنة التي توليت فيها وزارة الحربية الا من تثقيف مائتي الف عسكرى وهي قوة لا تكاد تذكر ونحن اذا انسقنا الى خوض هذه الحرب فانما نخوضها بدافع الذود عن الحياة ، وفى اعتقادى ان النصر ليس في كفتنا ولكننا نموت كراما فى ميدان الشرف خير لنا من الموت بطريقة التجزئ المنوية لنا »

واما مصطفى كمال فضابط بارع مقدام الى درجة التهور فى

بعض الاحيان وهي خلقة محمودة فى الجنـدي ويمكن اعتباره فى صف أنور وفتحى وخليـل من الوجهـة الفنيـة المسكرية الا ان الجميع لايدانون انور فى المواهب الطبيعية الفائقة التى اختص بها ويروى عن مصطفى كمال نوادر عندما كان مع انور فى درنه وبنى غازى تدل على مقدار ما لديه من الجرأةواقتحام الاخطار فقد كان يهاجم المعاقل الايطالية المسلحة باضخم المدافع والمحمية بالاسطول القائم من خلفها بقوى من العرب لاتكاد تذكر سلاحها البنادق والسيوف وبعض المدافع الخفيفه. فبطل الاناضول اليوم هو رجل حديدي العزم حديدي الادارة لن يتراجع عما مضى فيه حتى يهىء له الله الفوز النهائى.

بقي ان نعود بالثناء العاطر على الكاتبة الباحثة التي كشفت الغطاء عن كثير من الدسائس التى يدسها خصوم الوطنية العثمانية لابطال العثمانيين المدافعين عن حوزة تلك البلاد .

وبقي ان افهم ابناء الوطن المصرى الاعزاء ان قوة الارادة تجعل المستحيل ممكنا . لقد صحت عزائم دول الاتفاق على تمزيق البلاد العثمانية واخذ كل دولة جزءا من الغنيمة فنهض بطل الوطنية العثمانية مصطفى كمال يشدازره فتيان العثمانيين وكهولهم وقال للاعداء المتكالبين عليه : قفوا مكانكم ! فوقفوا مبهوتين واخذ يصرعهم واحداً بعد واحد . واذا كانت خير البلادالعثمانية لا تزال فى ايدى

الاروام فان مجهود مصطفى كمال بلغ حدا لامثيل له فقد صارع فرنسا وانجلترا وارمينيا وايطاليا واليونان ولا يزال يصارع هذه الاخيرة . نسأل الله ان ينصره عليها على الرغم من انوف مظاهريها وان يلهم مصطفى كمال وانور الى العمل لخير الشرق باجمعه

قلنا ان التنافس بين أنور ومصطفى كمال لخير الوطن وان مازعمته مدام جوليس عن وجود عداء شديد بين هذين البطلين العظيمين لانصيب له من الصحة ، وقد جاءتنا الانباء الاخيرة بما يؤيد هذا القول فأهالى الهند قاموا يطالبون بالجلاء عن الاستانة والمضيقين واعادة أزمير وتراقية بما فيها ادرنة الى الدولة العثمانية . فجاء الى جريدة المساجيرو الايطالية من الاستانة « ان الحكومة التركية تستعمل وسائل النفوذ والتأثير فى الشعب الهندى من خلال بلاد الافغان حيث يوجد جمال باشا المعهود اليه فى تنظيم الدعوه . فبواسطة عمل أنور باشا فى القوقاز وتركستان وعمل جمال باشا فى افغانستان تجددت وحدة العمل الوطنى المراد به تقوية الحركة كثيرا » ومن هذا التلغراف يستدل على ان مصطفى كمال فى انقره وأنور فى خيوة أو بخارى وجمال فى كابول وعزت فى الاستانة يعملون باتفاق تام ولاجل غاية واحدة وهى استقلال الدولة العثمانية واستعادتها مجدها القديم !

وانا نحذر الجمهور من الاغترار بالاوهام فان الدولة الانجليزية لن تتنازل عن مساعدة اليونانيين لاجل سواد عيون الهنود الذين كلما أظهروا هذا التشيع الشديد للعثمانيين اشتد خوف الانجليز من هذا الشعور وعملوا بكل ما في وسعهم لمحو آثار النفوذ العثماني ليخلو لهم الجو في الهند ومصر على حد رأي مدام جوليس . فالمدار اذن على القوه . القوة وحدها هي الحد الفاصل ما بين الحق والباطل . القوة هي التي تنهض الدولة العثمانية من عثارها وتعيدها الى سابق مجدها وفخارها ! فاذا استطاع أبطال العثمانيين أن يحصلوا على المقادير الكافية من أنواع الاسلحة والذخائر وسائر الآلات الحربية الاخرى فهم ظافرون بخصومهم لا محالة ومجددون نهضة الشرق وهذا الامر ميسور لهم كما نعلم اذا تيسرت لهم الموارد المالية الكافية . والذي نعلمه ان موارد الولايات الاناضولية المجاهدة الآن لا تكفي بمفردها للقيام بهذه المطالب الجسيمة فاذا لم تمضدها الاقطار الشرقية كانت مهمتها في الدفاع شاقة طويله .

قد يتبادر الى الذهن من التلغرافات الواردة بتاريخ ١٠ مارس الجاري من اثينا منبئة بوجود ازمة وزارية أن حسن يكاد يحل محل السلم بين العثمانيين واليونانيين . والامر ليس كذلك في الحقيقة بل أن التصويت ضد الوزارة بغالبية **١٦٢** صوتا ضد **١٥٤**

صوتا يدل على أن مجلس نواب الشعب اليوناني غير راض عن مساعى الوزارة التى فشلت في اوربا . وما هي هذه المساعى ؟ بالطبع اننا لانستطيع أن نزعم العلم بحقيقتها ما دمنا لم نحصل على نص رسمي من اليونان نفسها أو من انجلترا المهيمنة على شؤنها والتى تسوقها بعصى من حديد وفق رغبتها ، ولكن الامر الذى نستطيع أن نتعرض له هو الاحتمال : فمن المحتمل أن يكون ذلك المسعى منشعباً الى شطرين احدهما سلمي وهو حمل دول الوفاق فى مؤتمر جنوه على تقرير بقاء ما تحت ايدي الاروام حتى الآن من الاملاك العثمانية ملكاً لهم بحق الفتح وبحق الاستاتيتكو فى القانون الدولى أي بقاء الموجود على ماهو عليه والفيت اكومبلى أي الامر الواقع . والثانى حربى وهو استمداد يدي المعونتين المالية والحربية من انجلترا التى زجت بها فى هذا المأزق الحرج . فاما عن الشطر الاول فلقد اصيب رئيس الوزارة اليونانية جونارس حقيقة بالاخفاق فيه لا لان جميع دول الاتفاق ابين أن يوافقن اليونان على تأييدها فى مؤتمر جنوه بل لان فرنسا هى التى ربما ترفض تأييد اليونان وما رفض فرنسا الا حائل دون حدوث أى اتفاق فى مسألة الشرق الادنى يكون لليونانيين فيه الغنم وللعثمانيين الغرم . فمجلس نواب اليونان يريد اذن تاليف وزارة تكون اقدر على حل الازمة بما

يتفق مع مصلحة اليونان ، وبعنى اوضح بالتاثير في انجلترا لانقاذها من هده الازمة أما بطريق الاتفاق الدولى وأما بطريق المساعدة على مواصلة الكفاح . بقى أن ندب الي نفس انجلترا لنكشف خبيئة امرها . هل توافق انجلترا علي ضياع اعمالها المعقودة بآمال اليونان ؟ وهل حدث من الامر ما يستوجب الخضوع لهذه الضرورة القصوى ، كلما تصفحنا الامر على وجوهه لم نجد ما يساعدنا على ابداء الجواب الايجابى . فتصريحات لويد جورج وكرزن وتشرشل العديدة فى البرلمان الانجليزى واقالة المستر مونتاغو وزير الهند من منصبه وتزعزع مركز حاكم الهند نفسه والقبض على محمد علي وشوكت علي ثم على غاندى اخيرا كل هذه الاعمال بواعث تدعو الى الارتياب فى مقاصد انجلترا . فانجلترا لاتزال اذن مصمة على انهاء هذه المسالة الشرقية بما يريح بالها من ذلك الشعور الحاد المستولى على نفوس الهنود والمصريين . ولا يتم لها هذا الامر الا بالقضاء التام على الحركة الوطنية العثمانية واخضاع العثمانيين كافة الى النير البريطانى .

وهنا قد يتساءل القارىء فى نفسه : اذا كانت انجلترا لاتريد نشر السلام فى ربوع الشرق الادنى ، واذا كانت لن تتخلى عن تعضيد اليونان للمضي فى هذا السبيل فما هي عاقبة الوطنيين العثمانيين ؟

فنجيبه نحن من الآن : قد يتقدم اليونانيون بمعونة الانجليز مرة اخرى الى نهر سقاريا بل ربما يعبرونه ويصلون الى انقره — وهذا أمر قليل الاحتمال — ولكن الوطنيين العثمانيين الذين وطنوا نفوسهم على الموت او انقاذ الوطن المقدس لن يسعهم حينئذ سوى الاقدام على فعل كل ما امسكوا عن اتيانه حتى الآن كالترامى فى أحضان البولشفيك وكالاغارة على الهند والعراق ، وهذا ما يسمى : فتح ميدان جديد ، بل ربما جعلوا لهم جبهة جديدة من جنوب سوريا فانحدروا الى شرق الاردن ثم الى فلسطين ! على ان مشاغل انجلترا الحالية لاتسمح لها بالتفرغ لهذه الميادين المتسعة فضلا عن مسائل ايرلاندا وجنوب أفريقيا وعقدة العقدوهي مشكلة الهند الكبرى

فاذا كانت انجلترا لاتزال اليوم مصممة على محو الوطنية العثمانية فان مقتضيات الاحوال ستلجئها فى المستقبل القريب الى العدول بتاتا عن هذا التصميم .

أيّد الله إخواننا المحروبين المجاهدين فى سبيل الحق والشرق

ظهر ١٥ مارس ١٩٢٢ — احمد رفعت

مذكرات لينين

عن المبادئ البولشفيه

اسم البولشفية جرى على السنة الناس كفة فى الشرق والغرب فاما الشرقيون فيحيون البولشفية كما ذكرت مدام جوليس فى كتابها هذا « الوطنية العثمانية » باعتبارها محررة الامم والشعوب من نير الاستعمار ، واما الغربيون فيرتاعون منها ويعتبرونها آفة هائلة ينبغى محقها قبل أن تقضى على مطامعهم الاستعماريه . وقد اختلفت الاقوال فى البولشفية وكثر التساؤل فيما اذا كانت هى اشتراكية حقيقية ؟ أم هى فوضوية تريد مجرد سفك الدماء وتخريب البلاد ! أم مشاعية تجعل خيرات الارض ملكا لجميع الناس يصيب كل انسان منها نصيبه العادل حسب جده واجتهاده من جهة وحسب مقتضيات حاجته ومن يعولهم من ذرية من جهة اخرى ؟ كل هذا يراه واضحا فى أتم وضوح من يقرأ كتب مذكرات لينين .

مذكرات لينين كتاب عجيب مدهش تحار فيه الالباب فقد اخذ لينين يعرض فيه المذهب البولشفى باعتباره المذهب

المشاعي الذي وضع اساسه كارل ماركس الاشتراكي الالماني الشهير واكمله وايده باقوى الادلة صديقه انجيلس .

اخذ لينين يناقش الاشتراكيين المعتدلين واحدا فواحدا ويفند دعاواهم الباطلة ويفهم العالم ان السعادة والهناء والرخاء والراحة لاتسود فوق ظهر الكرة الارضية الا اذا تطهرت هذه الكرة المسكينة من عمال الاستعمار الذين هم رجال الظلم والاستبداد والذين يريدون ان يخضعوا الامم الضعيفة للسلطات المالية المتحكمة القوية .

فمذكرات لينين كتاب يجب على كل ناطق بالضاد ان يتلوه بامعان ليخرج بالفائدة المقصودة منه . وبما انه لم يظهر من قبل باللغة العربية كتاب عجيب مثله فلا غرابة اذا أقبل القارئون عليه حتى كادت تنفد نسخ الطبعة الاولى منه مع انها تعد بالآلاف ولم يمض على ظهورها سوى بضعة أسابيع فقط .

وبما ان مدام جوليس قد ذكرت اهتمام البولشفيين بالعالم الاسلامي خاصة وبالشرقيين عامة وتسهيلهم عقد المؤتمر الشرقي الاكبر في مدينة باكو فمن الواجب على كل شرقي أن يقرأ كتاب زعيم البولشفية وعدو الاستعمار الالد لينين .